أحمد عثمان

لا نوڤيلا

رواية

- la novela -

ساحر الكتب

الإهداء

إليكِ

يا من أسرتني في الأول من كانون الثاني

إلى كل من اتهم عشقًا وظلم دهرًا

أكتب إليكم

لَ نوڤيلا

مستوحاة من أحداث واقعية

هل كتبتَ يومًا قصة حياتك، هل كتبها غيرك؟

هل ناداك يومًا من على الرف كتابٌ، فاقتربت لتستحوذ عليه، فباغتك سحرًا وأسَرَ عمرك، لتكتشف أنه يحمل بين طياته أسرار حكايتك؟!

أسئلة دارت في خيال كل منهم، فلقد اختارهم روائي ما أبطالاً لقصته، اختار حياتهم لتكون محور روايته، دون تحريف أو تعديل، فلم تغير الرواية حتى أسماءهم، بل إنها ذكرت أحيانًا ما كان في نفوسهم.

شك كل منهم في الآخر، ليبحثوا متفرقين عن الكاتب المجهول، الذي وصف حقائقهم دون تصريح أو استئذان، بل إنه حتى علم بتاريخهم عبر الأزمان، ليسرد قصة أجدادهم في كل مكان، ليفكر بعضهم بمقاضاة الكاتب، ويفكر آخرون في تصفيته، ويفضل البعض الحسنى. اختلفوا جميعًا في نفوسهم، وإن اتفقوا على شيء وحيد، وهو ضرورة كشفهم للكاتب الحقيقي للرواية! ليتباروا في الذهاب لمواجهته في اليوم الذي اختاره الكاتب لحفل التوقيع، فلقد كان يدرك جيدًا أن فضولهم سيجمعهم مرة أخيرة عند بابه.

في "الأول من كانون الثاني" في حفل توقيع الرواية

للكاتب؟؟؟

الكاتب الذي مَحَى الناشر اسمه بعدما تيقن أن أحداث تلك الرواية واقعية، وليست مجرد "حبر على ورق"، فلقد أيقن الناشر ما في الرواية من أسرار منذ الوهلة الأولى، حتى أنه أرسل موافقته على العمل فور انتهائه من قراءته، دون انتظار تزكية لجنة القراءة، فلقد لامس إيمان الكاتب قلب الناشر بشغفٍ ليصدقه، ليُخاطر بنشر هذا العمل بعدما حذف اسم كاتبه حفاظًا على سلامته، قبل أن يطلب إضافة جملة افتتاحية، يقيًنا منه بما يعرف...

"الرواية مُستوحاة من أحداث واقعية"

***

فرنسا القرن السابع عشر

ظلا يجرانه وهو مستسلم، مثقلاً بالأغلال يتوسطهما، محمولاً بين أيديهما، مكسورًا منحني الظهر من آلام نفسه وجسده، ظلت قدماه الحافيتان تنزفان من جراحهما بفسيفساء أرضية القصر الفرنسي العتيق، ثقل أغلاله وكرامته أتعبت آسريه، لينحنيا وهما يتقدمان به، لتخدش سيوفهما حياء أرضية الممر الطويل، محدثة صوتًا أرهبهما من قبله. ظلا يعبران به بجانب تماثيل المسيح وتلاميذه المنحوتين على جانبي الممر، واحدًا تلو الآخر، حتى وصلا به إلى القاعة التي نُصبت فيها اليوم محاكمته، ليخطف نظرة منكسرة إلى "مريم المجدلية" التي عطفت عليه من عين تمثالها الأخير، قبل أن تُفتح الأبواب لتستقبل ضحيتها،

أمام أعين الكثير من علية القوم، الذين جاءوا ليباركوا إدانته دون الاكتراث بسماع دفاعه. رغم معرفة الجميع بحقيقة العاشق القاتل، إلا أنه كان عكس ما توقعوه، لهول ما أصابه؛ فلقد صار المحب مسود البشرة، كثيف الشعر، نحيف الجسد، الذي تملؤه الإهانات.

استقرا به في وسط القاعة، التي كان طرازها من الفن القوطي بغموضه وأساطيره المخيفة، لتُرهب قلوب الجميع، بتماثيلها الرخامية البيضاء الباردة كالثلج الذي يتساقط في أنحاء البلاد؛ تلك التماثيل التي كانت تجسد أصحابها وهي مفتقرة للحياة، ومن خلال فتحة ضيقة ترسم صليبًا رشيقًا بالجدار الأمامي، تسربت إضاءة الرحمن، بشكل ذلك الصليب، كاتبة أسماءه التسعة والتسعين في ذهن الأسير.

تركه الحارسان الفرنسيان، ليقع أرضًا ساجدًا لربه الذي كان يحيطه بعلمه من خلال أسمائه الحسنى التي تعتلي المشهد والوجود بأسره، ليطمئن في سجوده بمعية مليكه، بينما ظلت أشعة النهار تدور، واضعة حوله هالة من النور رسمها ذلك الصليب، لترهب الجميع، وخاصة كبير القساوسة الذي حضر بنفسه اليوم ليترأس المحاكمة، تلك الرهبة التي تملكته خشية ذلك الحكم الذي كان قد أُعِدّ مسبقًا.

أمر القس الحارسين برفع رأس الأسير، فتوجها إليه، محاولين ذلك، وإن خارت قواهما دون أن يستطيعا، فلم يزل يدعو ربه أن يعينه على ظلم الحاضرين. مرت لحظات قبل أن يشرد من دعواته مع سماعه خطواتها؛ فقد كانت هي رب قلبه، ليستسلم

أخيرًا لحارسيه، ويرفع رأسه باحثًا عن خطوات أميرته، التي عبرت قاعة الحكم في خياله. نعم كانت هي معشوقته "مريم". ظل ينظر إليها باكيًا حتى تذكر أنه كان قاتلها، لتختفي العشيقة وتظهر تلك الملكة الفرنسية بتاجها الماسي، لينتبه كل من في القاعة لوجودها، ليقف كبير قساوسة البروتستانت ومن بعده الجميع وكأن على رؤوسهم الطير.

عبرت "ماريا" إلى القس مباشرة، همست إليه، فنظر القس إلى حُكمِها في تحفظ، وإن استجاب لها؛ فكان الملك ضعيفًا حينها، وكانت المحاكمة صورية ليس إلا، فلقد تم إصدار الحكم مسبقًا، منافيًا لوعودهم للسلطان العثماني.

أُصدِر الحكم..... قبل المداولة.

هذا بينما كان ابن الأسير "علي" في "إسلامبول(1)" لا يزال ينتظر عودة السفير العثماني، الذي أوصاه أن يرجع إليه حاملاً أوراق أبيه التي كونت تلك الرواية الجلدية، ليضعها مرة أخرى في صندوق والده، ليوصده جيدًا، حتى لا يتحرر السر إلا لأبنائه، أحفاد صانع الورق.

ليصل به "علي" لاحقًا إلى صحراء المغرب العربي، ليستقر هناك، محاولاً زراعة الصحراء بعلم أجداده الذي كان لا يزال في الصندوق، لينجح "علي" في تعمير تلك الصحراء، قبل أن ينتقل أحفاده في رحلة أخيرة إلى الإسكندرية.

***

الإسكندرية -القرن الحادي والعشرون

كانت الحروف العربية الملونة بألوان الصيف تتناغم مع بعض النقوش الهندسية، محدثة تشكيلات إسلامية معقدة تتراقص بين الأطراف الأربعة من أمامه، فلقد كان السقف مطرزًا بديكورات أندلسية قديمة، وكان هو مستلقيًا على سريره النحاسي الذي يتوسط غرفته التي سجنته في الشهور الأخيرة، وبالرغم من أنه كان محاطًا بكل من يحبه، إلا أنه لم يشعر بأي منهم، فلقد كان مهمومًا بافتقاده لأجداده وصندوقهم الذي ظلوا يتوارثونه جيلاً بعد جيل، حتى أضاعته زوجته التي تخلصت منه جهلاً منها بأسراره، ليجتمع الجد مع أبنائه، ليُوصيهم بوصيته الأخيرة التي تتطلب منهم تسخير كل ما أوتوا من قوة لاسترداد هذا الصندوق، ولكي يجتهدوا في البحث، قصَّ عليهم الجد سر "لَ نوڤيلا"، لينتبه إلى الحديث ذلك الحفيد الذي كان يتنصت على باب جده في براءة، قبل أن يدرك أن مشروع حياته قد تحدد بالفعل.

***

بعد عدة سنوات كان "مصطفى الخوانكي" الناشر المعروف يقرأ تلك الرواية الجلدية التي أرسلها إليه القدر بشيءٍ من الاندهاش، فلقد كانت بعض صفحاتها مكتوبة بطلاسم وحروف عربية غير مفهومة بالنسبة له، غير أن باقي تلك الصفحات كانت واضحة، مكتوبة بخط عصري حديث، لتقص قصة حب عاصفة، لم يكن يتخيل حينها أنها قصة حقيقية إلا عندما تأكد أنها تخص خليله الوحيد، ليظل "مصطفى" شاردًا في الحروف، عاجزًا عن التصرف، فهل يقص على صديقه، سر "الرواية" ويهديه إلى حب حياته، أم

يتركه يتوسط زوجته وولده؟ ظل توتر "مصطفى" يزداد وهو يرمق تاريخ "النتيجة" المُعلقة والسنة التي قاربت على الانتهاء، وهو يقرأ تلك السطور في الرواية الجلدية مرة تلو الأخرى.

"ظل "شادي" ينظر إلى القلم في رهبة، فلم يكن يهوى البُعد، كان يهابه ولقد كان الحق معه، فلقد ظل ينتظرها في ذلك اليوم في "غرناطة" بإسبانيا، حتى مل وذهب، جهلاً منه أن "نانسي" لا تزال تُعاود إلى نفس المكان في كل عام في نفس التاريخ، في:"

"الأول من كانون الثاني".

***

(١)

سنة جديدة ستمر على عمري الفارغ، وقد قررت أن أدون فيها أحداثها إن وجدت، لعلي أستفز أيامها بسؤالي.

أنا "مصطفى الخوانكي"، صاحب الثلاثة والأربعين عامًا من اللا شيء، لا أعرف بعد لمَ خُلقت! تائه أنا في طيات الزمان والمكان، أكتب من الإسكندرية، من داخل غرفة مكتبي بشقة "سموحة" التي ورثتها عن والدي، ولم تزل بنفس ديكوراتها القديمة، فالغرفة خشبية الحوائط، كالأرضية ذات الخشب العتيق، تملؤها المكتبات والأرفف المليئة بالكتب، التي تحمل الكثير من التراث، زينت حوائط المكتب شمعدانات قديمة، تعكس إضاءة صفراء على الخلفية، أما الإضاءة الرئيسية، فكانت من خلال ثريا نحاسية كبيرة معلقة بسلسلة حديدية، تعتليها الأتربة، وفي

وسط الغرفة كان مكتبي الخشبي، ذو الحليات النحاسية، التي تجسد تماثيل لرؤساء الملائكة السبعة، ليشير "غبريال" إلى ذلك الدرج السحري بالمكتب.

مع ذلك الديكور السحري لم يكن عندي ما أضيفه، فأنا أحب رائحة التراث المنبعثة من رائحة تلك الكتب، ولكني أخيرًا قد أضفت هذا الببغاء "الزنجباري" رمادي اللون مع ذلك الذيل الأحمر المميز والذي ابتعته ليشاركني وحدتي من داخل قفصه الأبيض الكبير.

لقد ورثت أيضًا من أبي دار نشر "الخوانكي"، التي كانت مسؤولة عن الكثير من الأعمال الأدبية المترجمة، بالطبع واضح من حديثي الممل فشلي في إضافة أي نجاح منذ وفاة أبي، لعلي ألومه، فلم أكن مستعدًّا أبدًا لفراقه، نعم لم أكن أبدًا مستعدًّا، فبعدما ودعتني أمي في صغري، لم أتمكن من فراقه، لعلي أعاتب أمي أيضًا عن عدم إنجابها إخوة لي، كما كنت أتمنى لو أن أبي فضَّل نفسه عليَّ وتزوج من أخرى، لكان أنجبت لي أنصاف إخوة، ولكنه وأأسفاه! فضلني وكتبه على نفسه، ليتركني معها وحيدًا أحاول أن أكتشف منها أسرار الحياة!

***

-"مصطفاااا"

قالتها "جميلة"، زوجة "مصطفى" لتقاطع حبل أفكاره، كانت في أوائل الثلاثينيات، نحيفة، سمراء البشرة، صهباء الشعر، إلا من جذوره السوداء، وكانت من مستوى اجتماعي ومادي أقل من

"مصطفى" الذي تزوجته بعد أشهر قليلة من وفاة والده، الذي كان سيرفضها بالطبع، دخلت وهي تلف جسدها المبتل بمنشفة زهرية، أثارت حفيظة "مصطفى"، الذي ظل يرمقها من خلف نظارته الدائرية.

كان "مصطفى" ممتلئًا بعض الشيء، أبيض البشرة، أحمر الخدين، كلاسيكيًا لأبعد الحدود، حتى أنه بالغ في تسريحة شعره التي تميل إلى الجانب الأيمن، مع شاربه الذي بدأ في تكوين بعض شعيرات بيضاء.

-خير يا "جيجي" في إيه؟

قالها "مصطفى" وهو يترك القلم بجوار أوراقه.

-إنت إللي في إيه، وبتعمل إيه؟

-ولا حاجه بكتب.

-بتكتب؟ هو إنت عشان مش لاقي كاتب تنشر له، هاتكتب لنفسك، طيب وهو القراء ذنبهم إيه؟

قالتها بسخرية كعادتها، فلم تكن أرستقراطية مثله في المعاملات. وقف "مصطفى" وترك مكتبه الخشبي المحلى بالملائكة النحاسية واقترب منها.

-وإيه لزوم الكلام ده بس يا حبيبتي في إيه؟

-إحنا مش عندنا ميعاد، ولا مش هاتحضر افتتاح معرض "شادي" صاحبك؟

نظر "مصطفى" إليها في اندهاش، فلقد كان جاهزًا للخروج، بعكسها، فلقد ارتدى بنطالاً كاكيًا من القماش، وقميصًا أصفر، وبابيونًا زيتيًا، وجاكيت صوف ممتلئًا بالمربعات القديمة، يغتمر بها اللون البني والبيج.

-أيوه عندنا ميعاد، إيه المشكله ما أنا جاهز؟

لم تكن ضعيفة ليحرجها، بل كانت مستفزة، على عكسه تمامًا.

-ما أنا عارفه إنك علطول جاهز، مش مفروض طالما جاهز بقى تيجي تساعدني؟

في اندهاش عقب "مصطفى":

-آجي أساعدك في إيه بس؟!

-تختار معايا اللبس.

-طيب يا حبيبتي، ما هو أنا أي حاجه هاختارهالك، هاتنقي عكسها كالعاده.

-ليه مجنونه يعني؟ وعمومًا دي برضه مساعده.

-حاضر يا سيتي، هاجي وراكي.

***

من داخل غرفة مكتب كلاسيكي قديم بأحد محلات الأنتيكات في "محطة الرمل" كانت "ليلى" تجلس خلف مكتبها الخشبي، ذي الحليات النحاسية، التي تجسد تماثيل لرؤساء الملائكة السبعة،

ليشير "غبريال" إلى ذلك الدرج السحري بالمكتب.

كانت "ليلى" في عقدها الرابع، ترتدي فستانًا أبيض، كأميرات القرن السابع عشر، حتى أنها زينت شعرها الذهبي بتاج قديم من الورود، وبعينيها الخضراوين ظلت ترمق قلمها الحبري بملائكية، تتناسب مع ملامحها وبياض بشرتها، وضعف جسدها الهزيل الذي يوينه شعرها الكستنائي، كانت تتملكها الرهبة والخوف، الخوف من المجهول، فلقد حاولت مرارًا وتكرارًا كسر حاجز الصمت والبدء في الكتابة، ولكنها كانت دائمًا تنهمك في شيء ما، ولعل ما أنهكها في السنين الماضية، هي "رغدة"، ابنتها الوحيدة، أما الآن وقد اشتد عود ابنتها، حانت اللحظة لتبدأ "ليلى" وتكسر بقلمها كل الحواجز، فوقفت واتجهت إلى تلك المرآة الساحرة الموضوعة في نصف الغرفة، لتظل تنظر إلى الكاتب الذي بداخلها، لتقرر أن تبدأ الآن وتكتب قصتها من داخل ذلك المكتب في معرض زوجها، تكتب في الصفحات الخالية من تلك الرواية الجلدية القديمة ذات الأوراق السحرية التي ابتاعتها من هذا المعرض قبل أن تتزوج من "عمر"، وتترأس إدارة المكان، لتخط "ليلى" بقلمها اسم روايتها الأولى:

"الحكم قبل المداولة"

***

أنا "ليلى تربانة"، ابنة إحدى العائلات العريقة بالإسكندرية، تبدأ قصتي في اليوم الذي دُعيت فيه لافتتاح معرض أحد الأصدقاء، كنت في العشرينات من عمري، أعيش مع عائلتي في "سموحة". كنت أعشق المنزل، وخاصة غرفتي ذات السقف العالي، التي

كانت مدهونة بلون زهري طفولي لطيف، وكانت حوائطها مليئة بصور لمطربي الزمن الجميل، "عبد الحليم حافظ" و"محمد عبد الوهاب" وغيرهما من العمالقة.

كنت جالسة أمام التسريحة الخاصة بي، وأنا أرتدي فستانًا أبيض، كفساتين السندريلا "سعاد حسني"، كنت أتزين بالقليل من أحمر الشفاه، حتى لا يجعلني أبي أزيله أو يمنعني من الخروج. كنت حالمة، أسمع أنغام "الأطلال" بصوت "أم كلثوم"، القصيدة التي كتبها الطبيب البشري "إبراهيم ناجي"، والتي كتبها من مرارة ألمه، عندما أجبر على أن يشرف على ولادة محبوبته التي تزوجت من غيره.

"هل رأى الحب سُكارى"

أعلم أني حالمة، عاشقة، ولكني لست بطائشة مثلها، "نانسي" التي قاطعت "أم كلثوم"، ببوق سيارتها القديمة، فخرجت من النافذة لأتأكد منها، وبالفعل كانت هي "نانسي"، تضغط على البوق بيسراها، وهي تضع أحمر الشفاه بيمينها وهي تنظر إلى جمالها الصارخ عبر مرآة السيارة، أشرت لها، ولكن دون جدوى، فلم تكن لتكترث، طائشة هي وجريئة أيضًا، تلك الجرأة التي ورثتها عن أمها الإسبانية، قبل أن تستقر مع والدها في الإسكندرية، فدخلت لأكمل زينتي المتواضعة، قبل أن أستأذن والدي وأُهرول على سلالم عمارتنا الفخمة، حتى وصلت إلى صديقة عمري "نانسي" صاحبة البشرة الخمرية والقوام المثير والشعر الأسود الطويل الذي كان يشعرني بالغيرة منها.

كانت "نانسي" لم تزل تضغط على البوق حتى رأتني، فتوقفت

مبتسمة، فذهبت لأركب إلى جوارها، إلا أني لاحظت سيارة أخرى تقف خلفنا مباشرة، نعم إنها سيارة "أنس" الفاخرة، فتوقفت لحظة، وظللت أرمقه باندهاش، فلقد كان "أنس" شابًّا غنيًّا، وسيمًا، رشيقًا، وإن كان قصيرًا نسبيًّا، ولقد انجذبت إليه بشدة، ولعلي تمنيته.

-"ليلاااا"...

قاطعتني "نانسي" بندائها لأنتبه لها وأركب السيارة، قبل أن تنطلق هي مسرعة، ومن خلفنا "أنس".

-هو إيه إللي جاب "أنس"؟

-عادي يعني، مايعرفش السكه، قلت له يجي ورايا.

صدقتها حينها، بل وتخيلت أنه ربما جاء من أجلي، ليعرف بمكان منزلي.

-طيب بقولك إيه، وقفيني عند بتاع الورد اللي في الشارع اللي جاي ده.

-ورد إيه بس يا "ليلى"، إيه الـ (Over) ده؟

-(Over) إيه يا "نانسي" دي الأصول.

-حاضر حاضر، أنا مش هاقاوح معاكي، إتفضلي.

صفت "نانسي" سيارتها، وترجلت أنا إلى محل الورود الذي كنت أزوره أسبوعيًّا، وفي دقائق كنت قد أعددت بوكيهًا من ثماني وردات حمراء ساحرة، لنتوجه بعدها إلى معرض

جاستيك" لنبارك لصديقنا "عمر" والذي كان يجاورني-J'astique" بعقار "سموحة" قبل أن يقرر الانفصال عن والديه؛ نظرًا لعشقه للأعمال والتجارة.

وصلنا إلى المعرض الذي كان في أحد عقارات "محطة الرمل" القديمة، بجوار سينما "أمير". كان المحل يحتل واجهة الدور الأرضي يمين المدخل.

صفت "نانسي" سيارتها أمام المعرض لنتوجه كلانا، ومن بعدنا "أنس" إلى الداخل. كان المعرض مخصصًا للأنتيكات والإكسسوارات، كانت واجهته تعرض الكثير من الأنتيكات القديمة، كما كان هناك الكثير من بوكيهات الورود أمام المحل بالخارج. دخلنا في سعادة، وكنت منبهرة بإنجاز "عمر" الذي كان يفوق الوصف، فلقد كان المعرض كلاسيكيًّا، يعكس بضاعته القديمة، وقبل أن يظهر "عمر" لفتت انتباهي زينة أعياد الميلاد التي زينت المعرض، مع إعلان نتيجة الحائط عن تاريخ اليوم:

25 ديسمبر2007

***

كنت قد قررت أن أمر بمحل الورود القائم في الشارع المجاور، فتوقفت بسيارتي وتركت "جيجي" واتجهت إلى البائع الذي كنت أزوره شبه أسبوعيًّا، وفي دقائق أعددت بوكيهًا من الورود الحمراء، ومن ثم توجهت إلى معرض "J'astique-جاستيك" للأنتيكات والأثاث، والذي كان في إحدى بنايات "محطة الرمل" بجوار سينما "أمير"، وبعد دقائق من الملل الزوجي المعتاد وصلت

إليه.

كان المعرض يحتل كامل واجهة الدور الأرضي، وإن توسطه مدخل العقار السكني. كان الجزء الأيمن يعرض الكثير من الأنتيكات، وعلى اليسار يعرض الأثاث والموبيليا. دخلت ومعي "جيجي" من جهة اليسار، ليلمحني "شادي"، هذا الرجل الوسيم الطويل قوي البنية، صاحب البشرة الخمرية، والمميز بأنفه الحاد وشعره الناعم، ليشبه الأمراء. أسرع "شادي" ناحيتي ومن بعده زوجته "ياسمين" التي تتميز بمظهرها العصري، مستغلة قصر قامتها في ارتداء تلك الأحذية ذات الكعوب العالية، كما كانت مميزة بنظارتها الحمراء وبشعرها القصير "ألاجارسون" الذي يشبه قصات الرجال، وقبل أن يتقدما ناحيتنا، كانت "جيجي" قد قتلت المكان بنظراتها، فلقد كانت دائمة الغيرة من نجاحات صديقي الوحيد "شادي" الذي كان دائم الإنجازات، بينما لفت انتباهي أنا زينة العام الجديد وتلك النتيجة التي أعلنت تاريخ اليوم بفخر:

25 ديسمبر2016

*** ***

أيام قليلة قبل الافتتاح، حاول فيها هذا البائع، ملء المعرض، بالبضاعة التي طلبها منه المالك، فكان يجمعها من كافة المستوردين، أو الموردين المحليين، ولكن طمعه في اختلاس بعض الأموال التي تركها له المالك "عهدة" جعلته يحاول استبدال بعض البضاعة ببعض الإكسسوارات القديمة التي كان يجدها، هنا أو هناك، حتى وجهه شيطانه باستبدال بعض الجنيهات بهذا

الصندوق الخشبي القديم؛ ليتجه به إلى المعرض ليلاً، ليضع عليه سعرًا باهظًا، ليخدع به المالك، ولكن قبل ذهابه فتح الرجل الصندوق؛ لتسحره تلك العدسة المكبرة القديمة، ليحاول اختلاسها حال غيره، إلا أن أصواتهم منعته من المحاولة، ليغلق الرجل الصندوق الذي وقع منه أرضًا، ويهرب بعيدًا، بينما ظلت نقاشاتهم تملأ أركان المكان في الليل؛ حتى جاء الصباح ليغرد الطير ويسكت الببغاء.

*** ***

(٢)

كان محل "عمر" يستهويني، فلقد كان كلاسيكيًّا، كمعروضاته، له رائحة عتيقة، لا نتذوقها كثيرًا هذه الأيام، كان يزين السقف عيدان خشبية خام، وكأنها قُطعت للتو من أشجار غابة مجهولة، كما كانت الحوائط عذراء متروكة بالطوب الأحمر، كنوع من الديكور القديم إنجليزي الطراز، عندما كان البناؤون يراعون ضمائرهم في عملهم، لأتعجب أنا، أين وجد "عمر" مثل هذا العامل؟! وبينما أنا حالمة في هذه الروح القديمة لاحظت "عمر" من بعيد وهو مع إحدى صديقاته التي كنت أجهلها حينذاك، وإن عرفت فيما بعد أنها "هدير"، هذا الاسم الذي لن أستطيع نسيانه طوال حياتي "هدير"، والتي لم تكن جميلة إطلاقًا، بل كانت متواضعة الجمال، بل محدودة الجمال، حتى أني لا أتذكر ملامحها جيدًا. عندما اكتشف "عمر" وجودي أهمل "هدير" نهائيًّا، وهرول ناحيتي بابتسامة غير متكلفة، كان "عمر" ضعيف البنية نسبيًّا، خمري البشرة، ذا شعر بني كثيف، وشارب خفيف، لا

يعكس سنه، فلطالما عكس مظهر "عمر" سنًّا أكبر منه، خاصة مع ارتـداؤه الـدائم للبزات ورابطـات العنـق السـوداء التـي تعكـس طموحه وعمليته واهتمامه بالأعمال والحسابات.

-إزيك يا "ليلى"؟ والله كنت خايف ماتجيش.

-وده ينفع برضه يا "عمر"؟ كفايه إنك سيبت البيت، ماينفعش أفوت فرصه نشوفك فيها.

لاحــظ "عمـر" وجـود صـديقه "أنـس" و"نانسـي"، فتوجـه إليـهما بالتحية:

-إزيك يا "نانسي"؟ أهلاً أهلاً.

-إزيك إنت يا "عمر" ألف مبروك.

-الله يبارك فيكي.

توجه "عمر" بنظره إلى "أنس" مشاكسًا:

-وإنت بقى، إيه النظام؟ شايفك جاي مع البنات يعني.

أحرج "أنس" الجميل واحمر خجلاً، فلقد كان "أنس" أبيض البشرة وطفولي الملامح، يتسم بالوسامة، وإن كنت أنتقد شعره الطويل الذي كان يشبه النساء.

-خلي بالك يا "نانسي"، "أنس" طول عمره حافظ الكلاكس بتاعك، من أيام ما كان بيجيلي البيت.

تدخلت "نانسي" لترفع الإحراج عن "أنس":

-اللّه يكسفك يا "ليلى"، إنتي اللي دايمًا فضحاني بالمكياج اللي بيأخرك عليا؟

لم أستطع كتم غيظي أكثر، واضطررت أن أضحي بـ"أنس":

-لا يا حبيبتي، مش لازم تتلككي بيا، هو "أنس" اللي واضح إنه كان مركز معاكي.

جرحتها، أعلم، ولا أعرف لمَ هذا الشر! هل أحسدها على اهتمام "أنس" بها، أم لعلها كانت الغيرة، غيرة على حب تمنيته، ولكن هل كان "أنس" يستحق أيًّا منا؟

-أبدًا يا "ليلى" أنا بس مستغرب إنتي ليه أصلاً بتحتاجي تحطي "ميك آب"؟

قالها "أنس" وفعلها الساحر، نعم هو بالفعل يستحق أيًّا منا، يستحق من يختار، فهكذا يجامل الرجال.

-لا، ده أنا أجيب إتنين لمون بقى.

قالها "عمر" ساخرًا، لتغضب "نانسي" وتعقب قائلة:

-يعني هو أنا اللي محتاجه "ميك آب"؟ ما تشوف صاحبك يا "عمر".

ضحكنا جميعًا، لأنسى الورود التي كنت أحملها وأنا أضع يدي اليسرى على فمي، لتتساقط بعض قطرات المياه التي كانت بها للحفاظ على تلك الورود من الموت.

***

قبل أن يصل إلينا "شادي"، كنت أتفقد أنا الآخر المكان بعيني، ولكن دون حسد، فلقد كنت أحب "شادي" وأحترمه، ولم تكن علاقتنا أبدًا علاقة عمل، رغم أنه كان أهم كتابي وأعظمهم، إلا أنني كنت دائمًا من جمهوره وليس صاحب دار النشر التي ينشر فيها.

فلا أستطيع أبدًا نسيان اليوم الأول الذي قرأت فيه أولى كلماته، منذ أكثر من خمس سنوات، وكنت كعادتي، أمر بضائقة مادية عظيمة، كالتي أمر بها شهريًّا الآن، ولذا اضطررت أن أبدأ في قراءة كل الأعمال المقدمة عبر بريدي الإلكتروني، لعل الله يهديني إلى عمل أستطيع الهروب به بسمعة والدي من الهوان، وبالفعل كنت قد قرأت بريدًا إليكترونيًّا مهذبًا، كُتب فيه الآتي:

"السادة الأفاضل/ تحية طيبة وبعد..

مرسل لسيادتكم طيه جزء من عمل روائي أود أن أمول طباعته ونشره ودعايته من خلال داركم الموقرة، برجاء الاطلاع عليه والإفادة. الرواية بطابع "رومانسية تاريخية"، وتحمل اسم:

"الأول من كانون الثاني"

علمًا أن هذا هو أول عمل روائي لي، وأن مجال عملي هو الترجمة والإرشاد السياحي، وأمتلك شركة "ريني" للترجمة في القاهرة.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير..

شادي هشام"

لكي أصدقكم ونفسي القول، الشيء الوحيد الذي جذبني للقراءة كان غرضه تمويل العمل؛ مما كان سيقلل من مخاطرتي في حالة الخسارة، لذا بدأت في القراءة. كان العمل تاريخيًا رومانسيًا مليئًا بالمشاعر والجراح، يشرح فيه الكاتب تأثر بطله الموريسكي بتركه للوطن والبحث عنه في أعين النساء، شعرت أن الله قد أرسل إليّ رسولاً، ينجدني من هول الخسائر النفسية والمادية التي كادت تطمس كل لحظة سعيدة في حياتي، لتحرمني من حمد ربي كل لحظة أستنشق فيها الهواء وأنا أستمتع بصحتي، تحرمني حتى من الاستمتاع بكل من كانوا حولي، تحرمني من كل متع الحياة، لينجح "شادي" في مد يد العون لي، لكي أكون خارج هذه الأحداث التي لم تكن تعاستي لتستطيع حلها بأي حال.

كان قلم "شادي" حرًا، جريئًا، صاخبًا، ساخرًا، يمتع القارئ، لتستعيد داري مكانتها، لسنوات ورواية "الأول من كانون الثاني" تغرق السوق بطبعة تلو الأخرى، ولكن قبل أن يكمل "شادي" الطريق، مستغلاً ما وصل إليه من نجاح، استطاعت زوجته "الحيزبون" إقناعه بالاعتزال.

-حاسبولي كده، سيبوني أحتفي ده الراجل الكبير بنفسه هنا.

-"شادي"، والله إنت اللي كبير بإنجازاتك، يا صديقي.

من خلف "شادي" جاءت "الحيزبون" زوجته في سعادة بلهاء، تُشبِهها:

-"جيجيي"، عاش من شافك يا بنتي، لازم يعني نعمل كل ده

عشان نشوفكم؟

قالتها "حيزبونته" لترد على "حيزبونتي" بشيء معْهودٍ من التكبر:

-يا حبيبتي، ما إنتوا علطول مفرحنا بمفاجأتكم، ألف مليون مبروك.

وبينما كلانا يراقب "الحيزبونتين" في اندهاش، عانقني "شادي"، وكنت قد نسيت الورود التي كنت أحملها، لتنسكب بعض المياه التي كانت تحفظها، لتباغتني "حيزبونه" قائلة:

-معلش يا دكتور متأسفه، إنت عارف "شادي"، حالاً هاجيب حد ينضف.

لم تستطع "حيزبونتي" أن تمرر الموقف دون أن تدلي بدلوها:

-حصل خير مفيش مشكله، هو "مصطفى" بس لازم يتعبكم بكادوهاته القديمه دي دايمًا.

قبل أن يكملا تركت الورود على طاولة بجواري، وعانقت "شادي" الذي همس في أذني:

-إلحقني يا صاحبي.

-إجمد يا وحش.

ابتسمنا ثم تعانقنا مرة أخرى.

-إديني أماره.

-إن الله حليم ستار، خليك في حضن أخوك.

كبتنا ابتساماتنا، وقيدنا سعادتنا، حتى لا نخسر راحة بالنا.

-بس إحنا مكناش نعرف يا "شادي" إن ليك في الفرش والأنتيكات.

-والله يا "جيجي" هو أنا أصلاً كنت نا....

لم تستطع "حيزبونه" أن تترك له المجال، وقاطعت الحديث، لتحصل على المجد، لعلها ستقلد بميدالية ما!

-أنا اللي أقنعته، إنتي عارفه "شادي"، فنان وكان لازم يطلع الفن ده في حاجه بتجيب فلوس، بدل الكتابة والترجمة، وشغل الشحاتة ده.

قاطع حديثها نادل مسالم، أحدب الظهر، لم يسلم هو من نظراتها البغيضة باستحقاره، لتتابع حديثها، حتى لا تترك المذياع.

-إتفضلوا إتفضلوا العصير.

-والله عملت طيب عقبال "مصطفى".

لم أستطع تحمل كليهما، فلكل منا طاقة.

-هي أصلها لازم تلف وتطبل على دماغي أنا في الآخر، يعني مش كفايه خدتوا مني "شادي"، وبطلتوه كتابه؟

-والنبي بلاش سيرة الكتابه تاني، ما صدقنا نركز.

لا تزال تهاجمني على اكتشاف موهبة أكرمه بها المولى، كما تفعل الأخرى.

-قوليله والنبي، يا "ياسمين" الحق علينا بننصحك.

-نصيحة إيه بس يا "جيجي"، عايزاني أقفل الدار وانزل أبيع سبح؟

-يا سيدي، يعني هاتسيب الوزاره يا خي؟!

-أيوه يا "جيجي" أهم من الوزاره، وبيتي وبيت أهلي طول عمرهم كانوا مفتوحين من الدار دي، ومش لازم كل مره نخرج نفتح الموضوع ونتخانق

تدخل أخيرًا أمير الرحمة -وليته ما فعل -فكنت أنوي أن أنهي مأساتي وأطلقها، أو لعلي أتمنى.

-في إيه يا جماعه؟ "ياسمين" كانت بتهرج، في إيه، إهدوا شويه.

-أهو صاحبك علطول كده، بيطلع همه ونقصه فيا أنا.

-نقص إيه يا "جيجيييي"؟!

مرة أخرى يرحمها هو مني، أو ربما رحمني أنا منها.

-يا "مصطفى"، في إيه يا بني تعالى، يا "ياسمين" والنبي فرجي "جيجي" جزء الإكسسوار، أكيد هايعجبها، يمكن أرجع أشوف فلوس "مصطفى" تاني.

نعم إنه صلح "الحزيبية"، فلتذهبا إذن إلى الجحيم!

-أيوه صح تعالي يا "جيجي" أفرجك المكان كله.

ذهبتا أخيرًا، لتتركاني مع صديقي الوحيد في هذه الدنيا.

-هيا بنا إلى مكتبي الفاخر يا صديقي لنحتسي الجعة، وأنت تدخن الغليون.

وبالمره أكشف عليك، أشوف موضوع النقص ده إيه.

-آه يا حقير يا كلب!

***

-أنا مكنتش متخيله خالص إن ليك في الأنتيكات والحاجات دي يا "عمر".

قلتها، وأنا لم أزل تحت تأثير سحر المكان.

-ولا أنا والله يا "ليلى".

-أفندم؟!

-قصدي مش فارقه معايا، أنا بحب التجاره، ودي حاجه ماشيه اليومين دول، فنويت أجيب آخرها.

قبل أن يكمل حديثه، أصابته سهام نظرات "هدير" ليرتبك..

-معلش عن إذنكم دقايق، خدوا راحتكم.

قالها وتبخر "عمر" برهبة غريبة، ليعلق "أنس"، مثيرًا فضولي و...أنوثتي:

-معلش بقى، أصل "عمر" صاحبته بتغير عليه أوي، حتى من

شغله.

-هو "عمر" مصاحب؟!

قلتها بغيرة غريبة، فأنثى أنا وبقلب رهيف.

-أيـوه بـس اللـه يكون في عونها وتستحمل شغله، إنتي عارفه "عمر" متجوز شغله.

قالها وهو ينظر إلى "نانسي" نظرة ذات معنى جهلته حينذاك، وإن صاحبتها ابتسامة خبيثة لـ "نانسي" التي سألت "أنس" سؤالاً كانت تعلم إجابته سلفًا:

-وإنت شغال إيه يا "أنس"؟

-لأ أنا تمام.

-تمام؟!

قالتها "نانسي" في اندهاش مصطنع وهي تؤكد لي على المعنى السلبي.

-قصدي، لسه هامسك شركة والدي، بس مستني كده آخد نفسي من السفر.

-إبن صاحب المخل يعني.

لم أتحمل ثقل حديث "نانسي" لأنصب نفسي مدافعة عن "أنس" بجهل مني للكثير.

-معلـش هي "نانسي" دايمًا كده كلامها دبش بـس طيبه، أصل

"أنس" يا "نانسي" كان بيعمل ماسترز في أمريكا ولسه راجع.

-إنتي متابعاني بقى!

قالها "أنس" مداعبًا أنوثتي مرة أخرى، لأجد نفسي رهن إشارته. شعرت بضعفي وابتعدت، فلم أعد أفهم مشاعري، رغم امتلاكي منها الكثير، فائض رهيب من المشاعر، أنتظر من يستحق لأسقطها في هواه، أحب للحب، أعشق للعشق، فهل أنا حالمة أم تائهة! أشعر بأني سأكون ضحية قلبي، أو لعلي أكون ضحية حبي!

بينما أنا هائمة كعادتي، ناداني هذا الصندوق، المطرز بألوانه السحرية، هل يمكن أن يتناغم الأحمر والزهري مع الأخضر واللبني! صندوق ساحر بقفل قديم صدئ، كان موضوعًا أسفل طاولة بعيدة، جذبني كالنداهة، مع هذه النقوش المرسومة على سطحه بحرفية شديدة، ناداني لأفتحه وحدي دون غيري، لأجد حصانًا خشبيًا أحمر قديمًا، انبهرت بأعمال "عمر" فكيف يتقن عمله بهذا الكمال! أمسكت الحصان الصغير وأخرجته؛ لأجد عدسة مكبرة مستطيلة الشكل نحاسية الصنع بيد خشبية، أمسكتها هي الأخرى بشيء من الاحترام، فلقد كنت أبجل كل ما هو قديم. لم يكن الصندوق قد أنهى ما في جعبته، بل وجدت صندوقًا آخر، زهري اللون، نسائي الصنع قد فُتح، لأجد فيه حُليّ قديمة وقلمًا حبريًا، هي رسالة من ربي إذن، وبالفعل جاءتني الإجابة، فقبل أن أعيد كل محتويات الصندوق، وجدت شيئًا أخيرًا، "رواية جلدية" بورق خفيف، بني اللون، لم أستطع منع نفسي من استنشاق رائحته، كانت رائحته ترجع إلى شجيرة بريئة، اغتيلت قبل أن تكمل نموها، وإن تقبلت الشهادة لتصنع

كتابًا صادقًا من صلبها. كان بالرواية بعض الصفحات المطرزة بتراتيل وكلمات غير مفهومة مكتوبة بحروف عربية، أظنها نقوشًا تزين الرواية، معطية إياه عبقًا للتاريخ من خلال التشكيل الذي كان يشكل الكلمات التي تفتقد للمعاني أو الفهم، في تجسيد رائع لغنى اللغة العربية وخطها. سحرتني تلك السطور لأناغمها بخط يدي كاتبة حكايتي، ومن ذلك الكتاب تغيرت حياتي.

بينما أنا ممسكة بالرواية، كان هناك زائرًا آخر للمعرض، يريد أن يلقي نظرة على الصندوق، الذي نظر إليّ راجيًا، فلم أشعر بنفسي وأنا أعيد كل المحتويات لمالكها وأنا أحتضنه، فلم يمتلكه سواي، رغم أنه كان باهظ الثمن، ولم أكن أنوي أن يثقل "عمر" عاتقي بمجاملة، فذهبت إلى "الكاشير" لأحاسب البائع الذي كان متوترًا بعض الشئ، مستغلة انشغال "عمر" مع "هدير" التي دخل معها غرفة مكتبه، وإن لم أكن أستطيع منع نفسي وأنا أحاسب أن أختلس بعض النظرات لهذه الغرفة التي جذبتني هي الأخرى. ومن خلال زجاج ضلفتي الباب الخشبي جرار الطراز، اخترقت الغرفة نظراتي الثاقبة، غرفة خشبية هي الأخرى، يتوسطها مكتب مطرز بملائكة نحاسية، كنت أجهل حينها أني سأعيش فيها سنين كثيرة من حياتي.

***

دخلت مع "شادي" غرفة مكتبه وأنا منبهر بديكوراته العتيقة، فالمكان يمتلئ بالمكتبات المكتظة بالكتب يتوسطها صندوق قديم، بينما تلك الشمعدانات القديمة تضيء الحائط بهذا اللون الأصفر المُتهالك، الذي عكسته تلك المرآة الساحرة التي

تجاهلتني، بينما توسط الغرفة مكتب خشبي، مطرز بالنحاس، يكاد يماثل مكتبي، فلم أتمالك نفسي أن أتوجه إليه بالجلوس، حتى أن "شادي" كان قد لاحظ فضولي، ليباغتني قائلاً:

-إتفضل يا كبير، مكانك على مكتبي، مكانك.

-ما شاء الله يا شادي جميل أوي المكان، ديكوره ممتع جدًّا.

ضحك "شادي" وعقَّب:

-هو إيه ده اللي ممتع؟ هو في رقاصه وأنا مش واخد بالي.

والله أنا أحب هذا الرجل، يستطيع أن ينتشلني من همومي بكلمة. ضحكت وأخرجت غليوني الأحمر الحميم، لأبدأ في وضع تبغي العطري الفاخر، فكنت عاشقًا له، فبالرغم من عدم تدخيني للسجائر طوال حياتي، إلا أني كنت عاشقًا للغليون ورائحته، ولعله السبب أن مدخن الغليون يقوم بكل شيء أثناء استخدامه للغليون باستثناء التدخين، فمدخن الغليون يقوم بتنظيفه وتسليكه ثم تنظيفه مرة أخرى دون حتى أن يدخن!

-أيوه كده يا صاحبي إضحك، بدل ما إنت طايح كده في الوليه.

-الله ينور عليك، عشان وليه، وليه، فعلاً وليه.

-وهي عجبتك أوي كده؟

كنت لا أزال منبهرًا بمطابقة المكتب بمكتبي، فظللت أتفحصه، كالطبيب الذي يبحث عن شيء ما يجهله، هو شخصيًّا مثله كمثل المريض، وإن كان المريض على الأقل يعلم بألمه!

-يا بني إفهمني، هي مش عارفه تحترمني ولا قادره تراعي شعوري قدام حد.

-معلش يا كبير، هي بس تلاقي أعصابها متوتره عشان التحاليل، هي النتيجه إمتى؟

أصابني "شادي" بجهله، فلم أكن متحمسًا من نتيجة تحاليلي التي أجبرتني عليها زوجتي نظرًا لتأخر إنجابنا.

-قريب.

-خير إن شاء اللّٰه!.

قبل أن يكمل "شادي" كنت قد عثرت على ذلك الدرج سحري، الذي يماثل درج مكتبي، والذي يشير إليه "غبريال" بشئ من الغموض، ففتحته بشيء من الفخر، كالطبيب الذي أصاب تشخيصًا، عندما طلب من مريض أن يقوم بكل التحاليل التي ابتدعها العلم.

-إيه ده، إنت كنت حرامي خزن قبل كده؟!

-حرامي إيه يا مهزأ، المكتب ده أخو اللي كان عند أبويا الله يرحمه، وبعدين ما تستهونش بالبايب دي.

تذكرت أني ما زلت لم أشعلها بعد، فأخرجت قداحتي فرنسية الصنع، وأشعلتها أخيرًا، ليستقبل فمي طعمًا أرستقراطيًا ممتعًا، ليتطاير الدخان ويعود ليرتبط بصوف ملابسي دون غيري.

فتحت الدرج، لأجد كتابًا جلديًا بديعًا، موضوعًا فيه قلم حبري.

فتحت الكتاب بفضول، لأجد بين أوراقه خطًّا عربيًّا ملهمًا. بخبرتي، استطعت الكشف عن هويتها بين السطور، فرواية مكتوبة بخط واضح، لكاتب أو شاعر، يكره استخدام الحاسوب، هل يعطيني الله فرصة أخرى لاكتشاف نجم جديد بعد اعتزال "شادي" الذي توتر فور إيجادي لتلك الرواية؟!

طيب استنى، دي أكيد حاجة صحاب المحل.

قالها "شادي" ببراءة كعادته وهو منزعج من دخان غليوني الغزير الذي منعه من الاقتراب.

-أمال إنت مين؟! وبعدين يا عم دي روايه، ياللّا رزقي، يمكن يطلع حد من الزمن الجميل وأنشرها، ولّا إنت بتكتب هنا من ورا مراتك؟

ساخرًا أجاب "شادي":

-لا أرجوك، أنا راجل أوي وماسمحلكش، خصوصًا لما ببقى لوحدي، ببقى راجل وسيد الرجاله.

-طيب سيبلي بقى يا عم الراجل الروايه دي أقرها كده، يمكن يكون فيها خير لاخوك.

-طيب بس إوعى تقول لمراتي إنك لقيتها عندي.

-لأ حقيقي عيل خ... خروف.

قلتها ضاحكًا وأنا أستكشف الكتاب السحري الذي بين يدي، والذي كان يريد أن يكشف لي الكثير، ورغم جهلي بمعنى ما كُتب

في فصله الأول، حيث كان مكتوبًا بشفرة غريبة، مكونة من حروف عربية كتبت بخط جذاب لتُكوِّن كلمات غامضة نسجت أصل الحكاية، إلا أني ظللت أقلب صفحاته وأنا أستنشق رياحه العاصفة، لأجد ما أفهمه أخيرًا من كلمات واضحة كتبت بخط عصري، ولكن لا يقل سحره عما سبق، ورغم خبرتي كناشر، إلا أني لم أكتشف الحقيقة حينها، وأن هذا هو الكتاب الذي سيصاحبني حتى فراش الموت، فوالله لو كنت أعلم لتركته، ولكني لست ممن يستبق الأحكام.

"فالحكم الراجح يأتي دائمًا بعد المداولة"

*** ***

دخل الحفيد أحد معارض الأنتيكات والموبيليا في الإسكندرية، وقد صار رجلاً فتيًا، يهابه الجميع، دخل بخطوات صاخبة أقلقت هذا البائع أحدب الظهر الذي شعر بوحدته فجأة، فلقد كانت نظرات القادم قاتلة، ليتجه إليه في تحدٍ قائلاً:

-اسمك إيه؟

لم يرد البائع الذي لم يفهم الأمور، ليمسكه القادم بشيءٍ من الخشونة؛ ليجيب البائع هلعًا:

-"عاطف" اسمي "عاطف".

-طيب يا "عاطف"، ركز معايا كويس في إللي هاقولهولك، عمرك شوفت هنا صندوق بالشكل ده.

قالها القادم، وهو يخرج صورة قديمة لصندوق جده، ليندهش

"عاطف" من هول ما سمعه.

*** ***

(1) «تأسست مدينة «بيزنطة» قبل الميلاد، حتى قام «قسطنطين» الأول بجعلها العاصمة الشرقية للإمبراطورية الرومانية، لتسمى ب»القسطنطينية» تلك المدينة الذي تنبأ نبي المسلمين بفتحها، حيث قال «مدينة هرقل تفتح أولاً» وأثنى على من يفعل، ليقوم بعد ذلك بمئات السنين السلطان «محمد الثاني» العثماني، بفتحها ليُسمَّى ب»محمد الفاتح» و»قيصر الروم» بينما سُميت المدينة حينها ب»إسلامبول» أي مدينة الإسلام، قبل أن تُعرف باسمها الحالي إسطنبول»

الفصل الأول

«الأول من كانون الثاني»

بسم الله أبدأ..

أنا "أنطونيو"، لا بل أنا "هيثم"، "الهيثم بن عبد المجيد بن رشد السمري تربانة"، أكتب عشقًا بلغة "الألخيميادو" وهي لغة ابتدعها أجـدادي للمحافظة على ما تبقى في أذهاننا من لغتنا العربيـة، فكلما تعلمت في الكنيسة حرفًا أعجميًا، كان والدي يعلمني حرفًا عـربيًا، حتـى نضـجت واسـتأمني يـومًا علـى السر، وبدأ تعليمي تدوين اللغة القشتالية بحروف عربية لأتذكر دين أجدادي، وها أنا ذا، لم أنسَ أو أتناسَ، فكما أوصاني أجدادي، كنت أنوي أن أوصي أنا أحفادي، لنظل لتراثنا حافظين، ولعهود الهوى عاشقين، لم ولن أشكو أحدًا لربي، وإن شكوت فلن أشكو إلا بني جنسي، الذين تناسوا إيمانهم بسحر الأندلس، أجمل بلاد الدنيا، التي تشغل كل مـن حكمـها عـن ربه، فجنة هي علـى الأرض، فكيف تكون جنة خالقي! فويلي من ربي إن لم أدركها!

سأكتب من سجني، سأكتب قصتي، لعل هناك من يقرأها من على الورق الذي صنعه جدي الأمير صانع الورق وورثه أبي، هذا الورق الذي سافر مرارًا من "غرناطة" إلى "القسطنطينية"، سافر بحثًا عمن يدافع عن دين الله في بلاد الأندلس، ولكني الآن سأقص على الورق قصتي التي لن تضيف للتاريخ، ولكنها تؤنس وحدتي، فستموت أسرار أجدادي عندي، فلم أورثها لابني كما ينبغي بعد، وأظنه قُتل أو استعبد بعد الأسر، وإن حدث فلن يكون لعائلتي

ذرية، ستكون هي نهاية عائلة "تربانة".

الآن أنا في عربة قديمة متهالكة، يجرها حصانان تعيسان من "أورتيز" في جنوب التراب الفرنسي إلى شماله. أجهل مصيري ولا أهتم، فلقد حاولت سلفًا إنهاء حياتي وفشلت، وإن كادت حركة العربة تنجح في ذلك، مستعينة بصقيع فرنسا الذي تسرب إلى ضلوعي.

لقد ولدت في "غرناطة" في بداية عهد الملك الإسباني "فيليب الثاني"، الملك الذي زاد ظلمه عن أجداده، فقبل ملكه بأكثر من ستة عقود، سُلمت "غرناطة" للملكين الكاثوليكيين، "إيزابيلا" و"فرناندو"، بمعاهدة سلام حفظت لأجدادي العيش في أمان، المعاهدة 2 التي كانت مجرد "حبر على ورق"؛ فلقد خُرقت كل بنودها في أقل من عشر سنوات، ليبدأ الجحيم.

***

2 المادة الأولى من معاهدة تسليم «غرناطة» للملكين الكاثوليكيين:

"على ملك غرناطة والقادة والفقهاء والحجاب والعلماء والمفتين والوجهاء، بمدينة غرناطة والبيازين وضواحيها، أن يسلموا إلى صاحبي السمو، أو من ينتدبانه للنيابة عنهما، في مدة أقصاها ستون يومًا، اعتبارًا من 25 تشرين الثاني، عام 1491م. معاقل الحمراء، والبيازين، وأبواب تلك المعاقل، وأبراجها، وأبواب المدينة المذكورة، والبيازين، وضواحيهما، وأبراج أبواب المدينة المذكورة، وضمن هذه الشروط يأمر صاحبا السمو، بأن لا يصعد

أي نصراني السور القائم بين الحمراء والبيازين، لئلا يكشف عورات المسلمين في بيوتهم، وإن خالف أحد هذه الأوامر، يعاقب عقوبة شديدة، وضمن هذا الشرط، سيقدم المسلمون الطاعة والإخلاص والولاء كأتباع مخلصين لصاحبي السمو. وضمانًا لسلامة تنفيذ هذه البنود، يقدم "أبو عبد الله الصغير" ملك غرناطة، إلى صاحبي السمو، خمسمائة شخص من أبناء وبنات علية القوم في المدينة، والبيازين، وضواحيهما، وذلك قبيل تسليم الحمراء بيوم واحد، مصطحبين معهم الحاجب "يوسف بن قماشة"، ليكونوا جميعهم رهائن، لدى صاحبي السمو، لمدة عشرة أيام، يتم خلالها ترميم المعاقل المذكورة، شريطة أن يعامل الرهائن إلى حين انتهاء هذه الفترة معاملة حسنة. وفي نهاية الأجل، يرد الرهائن إلى ملك غرناطة، ويراعي هذه الاتفاقية صاحبا السمو، وابنهما دون خوان وسلالتهم. ويعتبر أبو عبد الله الصغير، وسائر قادته، وجميع سكان غرناطة، والبيازين، وضواحيهما، وقراهما، وأراضيهما، والقرى والأماكن التابعة للبشرات، رعايا طبيعيين، ويبقون تحت رعايتهم ودفاعهم. وتترك لهم جميع بيوتهم، وأراضيهم، وعقاراتهم، وأملاكهم حاليًا ودائمًا دون أن يلحق بها أي ضرر أو حيف، وألا يؤخذ أي شيء منها يخصهم، بل بالعكس، سيتم احترام الجميع ومساعدتهم، ويلقون المعاملة الطيبة من قبل صاحبي السمو، وشعبهما كخدم وأتباع لهما".

(٣)

في صيف 2017، خرج "أنس" متوترًا من مكتبة ألف بكفر عبده،

بعدما اشترى الرواية التي علم بسرها صديقه "عمر"، الرواية التي رفضت دار نشرها الإفصاح عن كاتبها في مفارقة غريبة، ليُسرع إلى سيارته "السيات" ويفتح نسخته، ليجد اسمه مكتوبًا في الصفحات الأولى.

***

في بداية عام 2008، وبعد أقل من أسبوع من افتتاح معرض "عمر"، كانا في شارع الكورنيش، داخل سيارة "أنس"، يخططان لما سيفعلانه، في الأيام القليلة القادمة.

-يا "نانسي" حرام عليكي، أنا بقالي شهر مش عارف أخرج معاكي، ولا عارف حتى آجي أتقدملك، أنا ذنبي إيه في ده كله؟

-إنت عارف كويس يا "أنس" إني مش مستعدة أخسر "ليلى".

قالتها تاركة يديه، في إشارة واضحة لانزعاجها من طرحه لذلك الحديث.

-طيب وأنا ذنبي إيه؟ أنا معلقتهاش بيا ولا فتحت بوقي بكلمه.

-ما هي "ليلى" كده، بتحب على نفسها، وأنا الصراحه مش هاعرف أواجهها بحاجه زي دي.

حاول "أنس" الإمساك بيدها مرة أخرى بينما ظلت هي شاردة في العالم الخارجي من خلال نافذته المغطاة بالعاكس الأسود "الفيميه"، الذي يحجبهما عن الأعين.

-طيب يعني أعمل إيه أنا دلوقتي؟

-ولا حاجه، ماتفتحش معايا أي مواضيع غير لما أحس إن "ليلى" قفلت الموضوع في دماغها خالص، ولو مش عاجبك، أنا مش ماسكه فيك.

كانت تعلم كم هو متعلق بها، فضغط هو أكثر على يديها متقبلاً الأمر، ليظل تابعًا لها لزمن طويل.

-لأ لأ، مفيش مشكله يا حبيبتي.

حقًّا، كثيرًا ما نتدخل في حياة الآخرين دون وجه حق، بدافع دعم من نحب، ولكن "نانسي" جهلت حينذاك أنها ستجرح قلبي، قلب صديقتها المقربة، ولكني سأظل أغفر لها، فهي كانت وستظل صديقتي الوحيدة، بل وصاحبة الفضل على قلمي، فهي من شجعتني على البدء، ليس فقط بالدعم المعنوي، بل في التجربة، فلولا تلك التجارب، لما وجدت الخبرات التي دفعت قلمي إلى تدوين آلامي في تلك السطور.

-"مصطفاااااا"

فزعت من صوت "الحيزبون" وهي تخرجني من أحداث الرواية، بعدما كنت قد اندمجت فيها أخيرًا، فلقد عشت في أحداثها منذ وصولي غرفة مكتبي، فقد بدأت أشعر أن شخصيات تلك الرواية ليست مجرد "حبر على ورق"، نظرت إلى الساعة، فوجدتني قد استغرقت أكثر من ساعة في قراءة أحداث "ليلى" وأصدقائها، حقًّا إن كاتب تلك الرواية له حس لطيف، عكس تلك المرأة "الحيزبون" الواقفة على أعتاب مكتبي بنظرات من التهديد.

-في إيه يا "جيجي"، بتندهي على أطرش؟

-والله قول لنفسك.

قالتها بشيطانية تشبهها.

-خير يا سيتي؟

-أنا هاطلب أكل، أجيبلك حاجه معينه؟

كانت "الحيزبون" ربة منزل، بكل ما تفقده الكلمة من معنى، فلقد كان وزني يتزايد يوميًا من الوجبات السريعة التي تطلبها، بينما يقل وزن جيبي تدريجيًا، وإن كان ما يغيظني، هو استطاعتها الحفاظ على وزنها، حقًا تستحق لفظ "حيزبون"!

-طيب ما تعملنا حاجه بيتي، إحنا كل يوم بنطلب أكل، يعني أوفر وأصح.

ردت وكأني "سراب يا سامح":

-يعني مش عايز حاجه؟

ولكنـي لـم أكـن لأمـرر المـوقف، فـرددت عليـها بمنتـهى العنف والقسوة:

-لأ عايز يا حبيبتي، عايز آكل من إيديكي.

-والله لما تبقى عندنا طباخه، محدش قالك إني مضطره أطبخ كل يوم.

من قال إن الرجولة في الرد على زوجاتنا!

-طباخه يا "جيجي"! أنا ممكن أنا أشتغل طباخ دلوقتي، إنتي عارفه دول بياخدوا كام؟

-والله ما هو إنت لو ركزت زي صاحبك كان زمانك أحسن منه، ومعاك فلوس.

نعم أشعر بالندم، وعرفت خطأي، ولن أكرره أبدًا ما حييت، فلم يتوجب عليّ التعقيب منذ البداية.

-تاني يا "جيجي"؟ عمومًا أنا في إيدي روايه شكلها كويس، لو ربنا كرمني بيها هاتجيب فلوس حلوه.

-إيه "مراد"؟!

-لأ يا "جيجي"، ده كاتب جديد، لسه ماعرفش إسمه.

كادت تقتلني بنظرات الاستحقار، فتابعت:

-بس هاعرف، هاعرف أكيد، حد من معارف "شادي"، ماتخافيش.

-وأخاف من إيه؟ إش ياخد الريح من البلاط، إنت لو حتى كنت رجعت تنشر للكتاب الصغيرين المرميين عندك على حسابهم، كان يمكن ربنا كرمنا.

كانت تعلم أني قد انتهيت من هذه المرحلة، خصوصًا بعد ما أكرمني الله بـ"شادي" واستطاع إضافة شهرة ونجاح للدار.

-إنتي عايزاني أنشر أي زباله يا "جيجي"؟

-لأ يا حبيبي العفو، الزباله دي إكلهالنا إحنا، عمومًا أنا هاطلب أكل،

لو جعت، في زباله كتير في التلاجه...تصبح على خير.

قالتــها حبــيبتي برومانســية وغــادرت، قبـل أن تعـاود برقتـها المعهودة، لتضيف جملة حالمة أخيرة:

-ماتنساش تخرج الزباله معاك وإنت خارج الصبح.

حـقًا كـم أنـا محظـوظ، فقليـل هم من يسـتقبلون هـذا القـدر من "الزبالـة" فـي حياتـهم اليوميـة! شـردت فتـرة فـي ملكـوت اللـه، لأشـكره علـى نعمـة الزوجـة الصـالحة، قبـل أن أتـابع أحـداث شخصيات الرواية الجلدية التي بين يديَّ، لأتابع أحداث "ليلى" مع صديقتها "نانسي" مرة أخرى.

***

كـانت "نانسـي" بمنزلـي كمـا اعتـدنا، وكنـت أتزيـن كعـادتي، بينمـا كانت هي نائمة على سريري وهي ممسكة بهاتفها الذكي الجديد، والتي كانت منبهرة به، بعد جدال طويل من سخريتها لقدم طراز هاتفي.

-سيبي اللي بتعمليه ده وياللّا إطلوبلنا أكل يا "ليلى".

-وليه يا سيتي نطلب "دليفري"؟ تعالي معايا وأنا هاظبطك، البيت فاضي.

خرجنـا سـويًّا تـاركتين "أم كلثـوم" وحيـدة، مغردة الأطـلال فـي شجن، توجهنا إلى المطبخ الذي كان مفتوحًا على غرفة المعيشة، وإن حـافظت الـديكورات على هيبتـها، رغم حـداثتها، فلقد كان المطبـخ يتوسـطه جزيـرة مـن الخشـب الأبـيض القديم، محلـى

بإكسسوار حديدي إنجليزي الطراز، حتى أن المعيشة ذاتها، احتوت على مكتبة تليفزيون من نفس الخشب القديم، مطرز بكوابيل خشبية كبيرة، أما السقف، فتُوج بثريا إنجليزية رشيقة من الحديد أيضًا، كما كانت الحوائط دافئة بألوانها المنعكسة من بن القهوة التي يعشقها والدي.

توجهت "نانسي" إلى الأريكة فاتحة التلفاز، دون أن تعرض عليَّ المساعدة، لأتوجه أنا إلى الثلاجة، دون حساسية، فهي صديقتي وضيفتي.

-أنا هأكلك مكرونه طلياني، هاتاكلي صوابعك وراها.

-طلياني؟!

علقت "نانسي" ساخرة.

-أيوه طلياني، ومش عايزه تريقه، ومش عايزه مساعدتك، أنا عارفه إنك برنسيسه في نفسك.

-طيب لو كده يا ريت تعملي للبرنسيسه قهوه ساده.... بن فاتح.

-ماشي يا سيتي أوامرك، أي حاجه تانيه من طباختك؟

-لأ خلاص، وبعدين إنتي بتطبخي ليه؟ أمال الرجاله لزمتها إيه؟

كانت "نانسي" ذكية، عملية، ولكنها لم تكن تعلم أنها بالفعل امرأة، ضعيفة المشاعر، تمتلك قلبًا عظيمًا، ولكنها فقط جهلت مداخله، بعكسه، فلقد عرف المدخل ومفاتيحه، وامتلكها في بضع ساعات.

-أفندم؟!

-عمرك ما هاتفهميني، ما هو أصلك خلاص وقعتي الراجل.

أجبت بجهل مني لخطتها في البداية:

-"أنس"؟!

-"أنس" إيه هو إحنا هانستهبل؟!

قالتها بخبث واضح لم أستوعبه حينها.

-مش فاهماكي يا "نانسي"، بتقولي إيه؟

-هانستعبط يا "ليلى"، أنا بتكلم على "عمر".

صدمتني بحديثها، بل "برجلتني"، فـ"عمر" رجل بكل ما تحمله الكلمة، فهو تاجر، ناجح، وسيم، لا أستطيع إنكار أني كنت أتخيله في صغري، عندما كنت أراه وهو متأنق في دخوله وخروجه للعقار، فلقد كان جارنا، وكما تعلمون أنا أحب للحب، أعشق للعشق، للحالة التي أعيشها، كالسفينة التي تنتظر أن تستريح من رحلتها على الميناء، ناسية أنها لن ترسو إلا أيامًا معدودة قبل أن تعاود رحلتها.

-" عمر"!!

-بلاش كهن الفلاحين ده يا "ليلى"، إنتي عارفه كويس إنتي عامله إيه في الراجل، ده بيسيب صاحبته عشانك.

-عشاني أنا؟!!

قلتها وأنا شاردة، حتى كادت المعكرونة التي أطهوها تحترق،

لأخفض سريعًا غاز البوتاجاز، لتستمتع "نانسي" بنجاح خطتها وتتابع:

-هو إنتي مش عارفه ولّا إيه؟ أنا اتأكدت إنه فركش، وعرفت إن السبب إنها غارت عليه من البنت اللي واخده عقله ودايمًا بيكلمها طول النهار، هو إنتي بجد مش واخده بالك، ولّا بتستعبطيني؟

-هو "عمر" بيكلمني كتير فعلاً، بس أنا مكنتش فاهمه إنه بيتكلم عليا، كنت فاهمه إنها غيرانه من بنت تانيه.

قلتها لأسرح كثيرًا في كلامها، لأظل أنظر إلى الحلة التي أمامي وأنا أقوم بتقليب الطعام في دوران يشبه دوران فكري، الذي ظل في الدوران والدوران.

شعرت أنا بدوران "ليلى" فلقد غلبني النعاس وأنا أدور في حكايتهم التي ظلت تشغل رأسي، لتتابع الدوران في أحلامي، لأنام على مكتبي بجوار صديقي الببغاء.

***

بعد الانتهاء من الاحتفال بالمعرض الذي أعاد "شادي" افتتاحه بنفس الاسم والديكور، بناءً على طلب زوجته، يعودا إلى المنزل معًا بعدما تركا ابنهما الوحيد "يحيى" ابن السنوات الخمس ليبيت عند والدها. دخلا من باب فيلتهما الصغيرة بـ"كفر عبده"، والتي كانت مكونة من طابقين؛ الأرضي كان مليئًا بصالونات فرنسية تعكس ذوق "ياسمين" الرتيب.

توجهت "ياسمين" إلى السلم الذي كان على يسار المدخل، لتخطو

بسرعة محدثة تناغمًا أنثويًّا مثيرًا بصوت كعب حذائها بطرقاته على رخامه "الإمبرادور" الإسباني الذي أصر عليه "شادي" رغم سعره الباهظ.

صعدت "ياسمين" وعبرت خلال غرفة معيشة عربية الطراز، واتجهت مباشرة إلى غرفتها التي توسطت غرفتين صغيرتين لم يستغلاها بعد. فتحت الباب، وخلعت حذاءها، وتوجهت بنظرها إلى تسريحة كانت على يسار الباب، ظلت تنظر داخل نفسها في المرآة في دهشة، فلم تعد تتقبل جمالها، تشعر بأن شيطانها تغلب عليها في الكثير من التصرفات، خاصة اليوم، فهي تعرف كُره "شادي" للتجارة، ولكنها ظلت شاردة بنظراتها داخل المرآة لتفتش الغرفة بفخر.

"وإيه يعني، ما هو كمان ماكنش عاجبه ديكور الأوضه دي، ومكنش متخيل الجمال ده كله".

كانت الغرفة مدهشة للعيان، واسعة، حديثة الديكورات والمعالم، يفصلها عن الحمام حائط زجاجي، يتوسطها تلفاز معلق من السقف، ومن خلفه الجاكوزي، يطل على الغرفة بطريقة مثيرة، وكان الحائط الزجاجي يحوي بابين من الزجاج، أحدهما يمين التلفاز ومنه مدخل لكابينة أخرى بانورامية للاستحمام، والباب الآخر يسار التلفاز وهو الذي يوصل إلى كابينة خاصة بالمرحاض، وفي منتصف الحمام من خلف الجاكوزي، كان هناك حوضان من الرخام الأبيض، من أمام مرآة كبيرة تعكس الغرفة معطية إحساسًا بالاتساع، رغم الجرانيت الأسود الذي استخدمته في أرضية الحمام وحوائطه بشيءٍ من البذخ والترف.

خلعت "ياسمين" نظارتها الحمراء ثم قرطها وجزءًا من حليها ، حتى ظهر "شادي" الذي احتضنها برغبة ملحة، بعدما أثارته اليوم بزينتها المبالغة، ولكنها أظهرت له امتناعها، وأبعدت يديه الحاضنة لها بشيء من الضيق، واتجهت إلى باب الحمام الأيسر.

-لا، أرجوكي، أنا ماصدقت إن إحنا سيبنا "يحيى" عند أنكل.

-بلاش لعب العيال ده يا "شادي"، إكبر بقى، مش معقوله كده، أنا تعبانه.

دخلت إلى الحمام ووقفت أمام المرآة الكبيرة، ليتبعها بشغف.

-أنا مش فاهم إنتي متضايقه ليه؟ ما أنا بعملك كل حاجه يا "ياسمين".

-أديك قولتها، بتعملي كل حاجه، وعمال تحاسبني قدام الناس وكأني مفتريه وقاهراك، مش بعمل كده عشان تبقى أحسن.

قالتها وهي تخلع فستانها القصير، الذي سقط أرضًا وهو يستفز "شادي"، لتتجه "ياسمين" إلى الجاكوزي وتجلس على حافته، لتخلع جواربها الشفافة، لتصبح مجردة، إلا من أقل القليل، ليجثو "شادي" على ركبتيه بجوارها ممسكًا بفخذها الأيسر.

-طيب يا سيتي خلاص مش مشكله أنا مبسوط، يالا بقى نتبسط سوا.

في منتهى البرود وقفت "ياسمين" وخلعت ما تبقى لها من ستر، بعدما أبعدت يديه بشيء من العنف، لتتابع قسوتها:

-إنت إيه، معندكش دم؟ أنا بجد تعبانه.

قالتها ودخلت إلى كابينة الاستحمام، ذات الباب الزجاجي، لتضخ على جسدها الماء الساخن، ليتصاعد البخار متوغلاً بين طيات جسدها العاري، ليظل "شادي" ينظر لها، ليتذكر، لمَ كره هذا الديكور منذ البداية، فلقد كان يعلم، أن الحياة لا تحتوي فقط على الشفافية والعسل!

خرج "شادي" واتجه إلى غرفة المعيشة التي كان يرتاح إليها بشيء من الغضب، وإن هدأت من روعه الأريكة العربية نسبيًّا، ليشرد قليلاً في تناغم الألوان الزهرية واللبنية التي تزين الغرفة، حتى شعر أنه بحاجة إلى الكتابة، فتوجه إلى طاولة خشبية في آخر الغرفة أمام نافذة معلق عليها الورود، كانت الطاولة مليئة بالأوراق المتناثرة، ظل يبحث فيها عن أية ورقة خاوية في صعوبة، حتى ازداد غضبه مرة أخرى، ، لينظر إلى تمثال صغير لراقص "الفلامنجو" كان قد ابتاعه من "إسبانيا" بشئ من الحنين قبل أن يجد أخيرًا بعض الأوراق التي تخلو ظهورها من الكتابة، ليجدها مناسبة للبداية قبل أن يتركه "الوحي". أخذ "شادي" الورق في سعادة بالغة وكأنه وجد كنزًا، ثم قرب كرسيًّا صغيرًا من الأرابيسك، وحاول إيجاد مساحة خالية على الطاولة بصعوبة، ومن ثم تذكر حاجته للقلم، فبدأ بالبحث كثيرًا أيضًا دون جدوى، وإن ظل يتابع، حتى وجد قلمًا باليًا، وبدأ في الكتابة، وبدأ في كتابة الاسم الأول فقط "نانسي"، ومن ثم جف حبر القلم، لتبكي عيناه أسفًا، وإن ظل "شادي" يكتب بقلمه البالي ما يتذكر، ورغم عدم تدوين القلم لكلمة أخرى، ظل هو يتابع كتابته وذكرياته، فهي أول من أعطت لخياله قلمًا، ليسترجع هو الأحداث التي كاد

أن يمر عليها ثمان سنوات، عندما كان يزور أرض الأندلس في "الأول من كانون الثاني".

***

من داخل مطار "مدريد"، كان "شادي" و"نانسي" يجلسان سويًّا. كان واضحًا عليهما الإرهاق، ظلا ينظران إلى الطائرات من خلف الزجاج البانورامي وهما يمسكان تذكرتي ركوبهما في ملل.

- 14 ساعه! ده كتير أوي، لازم تكون في حاجه تسلينا.

-أنا عن نفسي متسلي عليهم.

قالها "شادي" وهو يشير إلى بعض الركاب المصريين، الذين كانوا ينتظرون هم أيضًا في ملل.

-إنت مركز مع الناس أوي.

-أنا كده، بحب الحواديت.

قالها بجاذبية لم تكن هي معتادة عليها، لتقترب أكثر:

-ألله! طب ما أنا كمان بحب الحواديت، إحكيلي.

استجاب "شادي" وأشار إلى سيدة في الأربعينيات كانت جالسة تعد بعض اليوروهات، بجوار زوجها النائم.

-طيب بصي يا سيتي، شايفه الست اللي هناك دي؟

-مالها؟

في ثقة تابع "شادي" حديثه:

-دي مبسوطه أوي إن الطياره اتأجلت، وبتعد فلوسها، عشان تشوف "تايير" كانت عايزاه وملحقتش تشتريه.

-"تايير" إيه بس؟ ماتقفلنيش منك.

-هي كده ذوقها قديم، وبتحب المنظره، وجوزها خايف من طلبها، وبيدعي ربنا في سره، إنها تتهد وتنام، زي ما هو بيمثل عليها.

اتجهت السيدة إلى زوجها لتوقظه، ويتشاجران سويًّا، لتضحك "نانسي" وهي تنظر إلى "شادي" بإعجاب زائد وانجذاب ما زالت لا تعهده على نفسها! ليتابع هو، دون أن ينظر إليها، مشيرًا إلى رجل آخر في الثلاثينيات يتحدث في الهاتف، مرتديًا بذلة كحلية ورابطة عنق زهرية.

-ده بقى مش رجل أعمال، بس بيحاول يقنع نفسه إنه مهم، وإنه مشغول، بيحاول يقنع نفسه إن تأخير الطياره ضيع مستقبله، بس هو عارف كويس أوي إن مفيش حاجه في الدنيا مستنياه.

انتبهت "نانسي" لعمق نظرات "شادي" التي تخترق البشر، ليزداد انجذابها رهبة!

-إنت تخوف يا "شادي". صحيح.. إنت بتشتغل إيه؟

-ما قولتلك، أنا أصلاً مترجم أسباني.

-آه نسيت! أصل الصراحه ده مش خيال واحد بتاع ترجمه.

ضحك "شادي" الذي كان قد انجذب هو الآخر لها، انجذابًا لم

ينجذبه لأحد مسبقًا، ليظل يتساءل عما به هو الآخر:

-ليه يا بنتي؟ أنا بترجم روايات وأدب.

-لأ برضه، إنت خيالك أكبر من كده، طيب تعرف تقولي قصة الإتنين دول إيه؟

قالتها وهي تشير إلى شاب وشابة في أواخر العشرينيات، يداعب كل منهما الآخر، في حب مبالغ، وهما ممسكان الأيدي، ليجيب "شادي" بخياله الواسع:

-دول مش فارق معاهم وقت ولا مكان، دول مش معانا، دول في حته تانيه خالص.

-يعني إيه؟

تابع بشغف، أنساها الدنيا وما فيها، لتظل غارقة في بحر عينيه الناظرتين بغيرة للمتحابين:

-شايفه مسكة إيديهم؟ دول لمسة إيديهم لبعض معيشاهم في مكان تاني خالص، مش فارق معاهم وقت أو زمن، كل اللي فارق معاهم، إنهم مايتفرقوش.

-تلاقيهم في شهر العسل.

اعترض "شادي" بثقة لم تقنعها كعادته، فلقد كان لـ"شادي" وجهة نظر أخرى:

-لأ، دول متجوزين من سنين، ومخلفين ولد وبنت، كمان، بس فضل للمسة إيديهم سر يخليهم يحاربوا كتير، خلاهم يتحدوا

الدنيا عشان ياخدوا بعض، عاشوا حياتهم وماندموش على حاجه.

-بص، هو أنا ماشترتش دي، بس بقى ليك عندي رصيد يسمحلي أغفرلك الألش، إنت بجد لازم تكون مؤلف، إنت لازم تكتب، مش بس تترجم.

ضحك "شادي" وتذكر حيرته الدائمة في إيجاد قلم يستخدمه في حياته اليومية، دون أن يفقده كالعادة!

-أكتب إيه بس؟ طب ده أنا حتى عمري ما عاشلي قلم!

-بس كده؟

وقفت "نانسي" باندفاع ومدت يدها اليمنى إلى "شادي" الذي ظل يرمقها في دهشة، قبل أن يستسلم لها، مادًّا لها يده، ليتلاحما وينصهرا داخل بعضهما البعض، ليقف "شادي" وإن جرحه خاتم خطبتها، لتُحرج "نانسي" وتترك يده متابعة حديثها:

-خلاص خلي القلم عليا، يالّا بينا.

- على فين؟

-هاشتريلك قلم.

قالتها وسبقته بخطواتها المترددة، لتظل متسائلة عما تفعله! فلقد جاءت "إسبانيا" لمهمة محددة، لتشتري فستان زفافها، ليس أكثر، شردت لحظات، ونظرت للشابين المتحابين، قبل أن يظهر من خلفهما ابنهما ثم ابنتهما، ليعانقهما الأب والأم، دون أن يتركا لمسة

يديهما. نظرت "نانسي" إليهم مبتسمة، ليتوقف عقلها عن العمل لبضع ساعات، وتنتظر "شادي" الذي كان خلفها، لتمسك بيده اليمنى وهو متعجب، وإن لم يظهر امتناعًا، غير أن خاتم خطبته كان قد جرحها!

*** ***

في ظلام الليل، ومن داخل تلك المرآة خرجوا جميعًا، واحدًا تلو الآخر، وإن كان أصلهم جميعًا واحدٌ، ينظر إلى بديع خلقه في فخر واعتزاز.

*** ***

(٤)

تحرك رأس المنبه القديم بقوة بين قرصي الجرس مدويًا بصوت قديم، ليستيقظ "مصطفى" منزعجًا، ليجد نفسه نائمًا في مكتبه بين أحضان الرواية الجلدية وأحداثها، بينما يغرد صديقه الببغاء محدثًا أنغامًا سحرية. نظر"مصطفى" للساعة، ليجدها التاسعة صباحًا، ليتذكر بصعوبة ميعاد محاضرته اليوم التي تم تحديدها في تمام الساعة التاسعة والنصف، ليقف في توتر، ويخرج من درج مكتبه بعض الفستق ويضعه في القفص لصديقه، ثم بحث عن مفاتيحه، حتى وجدها، وأمسك بها وهرول خارجًا بسرعة، ليترك الرواية الجلدية وحيدة، بجوار هذا الببغاء الزنجباري الذي ظل يردد:

-ليلاااا.

لينفتح زجاج النافذة فجأة، وتتسارع أشعة الشمس مع نسائم الـهواء المتسـابقة، لتعـاكس وجـه "لـيلى" بـين طيـات صـفحات الرواية التي ظل الهواء يتسارع في قراءة حروفها، مقلبًا صفحة تلو الأخرى، بينما قد أضاءت خيوط الشمس المكان، حتى قاطعها "مصطفى" بعودته مرة أخرى إلى الغرفة، ليسارع سحر النسيم بالفرار، ليتجه "مصطفى" إلى الرواية الجلدية الموضوعة على مكتبه التي لم تزل تغازلها أشعة الشمس، ليمسكها ومن ثم يتجه إلى النافذة ويغلقها في تعجب، قبل أن يغادر المكان بعدما وجد ضالته، تاركًا صديقه وحيدًا دون إيناس أهل الرواية.

***

أدرك "مصطفى" محاضرته قبل أن يغادر الطلاب، بعد اعتذاراته التي لم يكن مضطرًا إليها، فلقد كان "مصطفى" أستاذًا مرموقًا في الجامعة، والأهم أنه كان محبوبًا جدًّا من قبل طلابه الذين كان يلمسهم "مصطفى" بشغفه الشديد الذي سبق احترافه في العمل.

كانت المحاضرة في قاعة كبيرة بسقف مرتفع لأكثر من خمسة أمتار، وكان الطلاب متراصين بشكل نصف دائري من أمامه، وقد ازداد عددهم عن الثلاثمائة طالب، وإن كانت القاعة تتحمل أقل من هذا العدد بخمسين منهم، ولكنهم تحملوا التزاحم لحضور محاضرة "مصطفى" الذي لا يحاضرهم إلا مرتين شهريًّا في مادة اختيارية، استطاعت بوجوده أن تكتسح باقي المواد، التي لم يعد أي طالب يختارها، إلا القليل من الأفاقين الذين اختاروا مادة رئيس القسم؛ تملقًا له واقترابًا منه مستغلين توجه الجميع لمادة

"مصطفى".

كان لهيئة "مصطفى" طابع مختلف، يتقبلها طلابه دون غيرهم، حتى إن الطالبات كانت تنتظر استنشاق رائحة تبغ غليونه الذي لاقى استحسانهن، ليتسارع الطلاب في تقليد قدوتهم بتدخين الغليون. كان صوت الطلاب مرتفعًا نسبيًّا، حتى اعتلى "مصطفى" مكتب المحاضر وبدأ في تجربة "المايك"، ليصمت الجميع احترامًا له.

-صباح الخير يا ولاد، ما شاء الله إيه العدد ده كله، هما بيوزعوا حاجه النهارده!

ضحك بعض الطلاب، ليتابع هو:

-لا والله بجد في إيه؟ إنتوا كنتوا أقل من نص العدد ده المره اللي فاتت.

تطوع بعض الطلاب بالكلام:

-أصل إحنا كنا مسجلين في ماده تانيه، بس حولنا.

-يا فرحة الحاجه بيكم، طب ده بأمارة إيه؟

ضحك مرة أخرى بعض الطلاب، وتابعوا:

-يا دكتور أصل حضرتك بتشرح بطريقه مختلفه.

-مختلفه ازاي يعني؟

قالها "مصطفى" ضاحكًا.

-يعني يا دكتور بشغف، شغف كده مش موجود عند أي حد.

-طيب والله دي حاجه ظريفه ممكن نبدأ بيها النهارده.

سكت لحظة وأخذ "المايك" من مثبته، وبدأ يتحرك وسط الطلاب:

-عارفين إيه الفرق يا ولاد بين الشغف والاحتراف؟

سكت أغلب الطلاب، وأجاب البعض:

-الشغف ده اللي هو الهوايه، والاحتراف هو الشغل.

-غلط، أكبر غلط، لو كل واحد فينا اشتغل بشغف هاينجح في شغله أكتر ما بينجح في هوايته، لإن الشغف لما بيمتزج بالخبره، لازم البني آدم ينجح.

-بس هو ازاي نشتغل بشغف؟

سألت إحدى الطالبات، بصوت ضعيف:

- ومالك خايفه ليه؟

قالها مبتسمًا، قبل أن يتابع:

-ده أهم سؤال، والجواب كلمه سحريه وحيده... الإيمان.

-الإيمان؟!

مبتسمًا اقترب منها، لتقف الطالبة، ليجلسها هو بلمسة يد أبوية ويتابع:

-الإيمان هو السر، لو كل واحد مننا مؤمن باللي بيعمله، مهما الاحتراف غيره وقتله، هايفضل الشغف يتولد كل يوم جديد، لو الدكتور مؤمن إن الطب رساله عمره ما هايتحول لتاجر وهايفضل شغوف في شغله، لو كل واحد دور على رسالته، وبدأ يخلي أكل عيشه يخدمها، هايبقى صادق بجد في اللي بيعمله، بكده ممكن الشعوب تتغير.

سكت "مصطفى" وبحث داخل كل منهم بعينه ومعرفته، مفتشًا عن مستقبل أفضل للجميع، قبل أن يلخص لهم ما يعني في جملة أخيرة:

-يعني ممكن ألخص الكلام ده في جمله بحبها:

"كن مؤمنًا، تكن شغوفًا، تصبح صادقًا"

صفق جميع من في القاعة لصدقه؛ لتدمع عينا "مصطفى" خجلاً أسفل نظارته الدائرية، قبل أن يعاود مكتبه في منتصف القاعة، وإن استمر الجميع في التصفيق، فلقد لامس بصدقه أحلامهم، وإن جهل الجميع أنه يستطيع إرشادهم إلى الطريق الذي ضله هو من بعيد، فلم يصل إلى ما يصبو إليه حتى الآن! ولعل "مصطفى" قد أدرك أن أكثر ما يستطيع تقديمه للآخرين بشغف صادق هو الإلهام، لعل كلاً منهم يمسك بقلمه ليغير واقعه للأفضل، وإن كان يستطيع مساعدة الجميع، ولكنه فشل في مساعدة شخص واحد.. "نفسه"!

دارى "مصطفى" دمعته وهو ينظر للجميع باحثًا عن أمل يعيش من أجله بعدما يئس من ظلم الحياة التي يحسده الجميع عليها،

دون علـم عمـا بـداخله. تحـدث "مصـطفى" بـ"المايك" لـيتوقف التصفيق بسرعة وحزم.

-بمناسبة الإيمان، تيجي نتكلم على موضوع محاضرة النهارده؟ هو بيتكلم عن الإيمان برضه.

اكتســب "مصــطفى" فضــول الجميع، الـذين كـانوا يعـرفون أن محاضرة اليوم لها بُعد تاريخي مختلف.

-عارفين يا ولاد الأندلس سقطت من إيد المسلمين بعد وجودهم فيها بأد إيه؟

بدأ الطلاب في التخمين، فلقد كانت هذه المادة اختيارية نظرية، عكس باقي دراستهم، فظهر جهلهم بالكثير.

- 100 سنه؟

-يا ريت يا ولاد، الأندلس سقطت بعد حكم حوالي 800 سنه.

ذهــل الجمــيع غــير مصــدقين، مســلمين ومســيحيين! ليتــابع "مصطفى":

-أيوه 8 قرون تقريبًا، يعني أكتر من تلت تاريخ أسبانيا الميلادي. عارفين وقعت ليه؟

كـان شـعور الطـلاب بالمحاضـرة قـد تلاشـى، وسـاد الاسـتمتاع بحدوتة، قصة يقصها عليهم العم "مصطفى" بشكله القديم.

-وقعت لما فقد المسلمين الإيمان، بعد ما نسيوا سبب وجودهم فـي جنـة الأنـدلس، الأنـدلس سـحر، سـحرهم بالـدنيا، 800 سنه

المسلمين بيتخانقوا فيها على حاجه واحده بس، مين فيهم اللي يحكمها!

استطاع سحر الأندلس الوصول إلى كل من في القاعة، حتى أن كلاً منهم قد تخيل نفسه ملكًا على الأندلس، ملكًا مستعدًّا لقتل أخيه للحفاظ على مملكته. بعد لحظات من التأمل أكمل "مصطفى":

-لسه بدري على السرحان ده.

قالها "مصطفى" ساخرًا قبل أن يتابع:

-عارفين الإنجليز بيقولوا إيه أهم تلات تواريخ في حياة الإنسان؟

أجاب البعض عن تاريخين منها.

-تاريخ ولادته، وتاريخ وفاته.

-بالظبط كده، وفي تاريخ تالت أهم من الإتنين دول، لإنه التاريخ الوحيد اللي بنتحكم فيه.. تاريخ جوازنا.

ضحك الطلاب، خصوصًا المتحابين منهم، ليمسكوا بأياديهم أسفل طاولات جلوسهم، بابتسامات خجولة، أسعدت قلب "مصطفى" قبل أن يكمل:

-حقيقي الجواز ده أهم قرار في حياة البني آدم، مش بس البني آدم، لكل البني آدمين، يعني كل واحد منكم هنا النهارده، بسبب قرار خده أبوه في ساعة طيش.

ضحك الجميع ساخرين، جاهلين ما يرمي إليه "مصطفى"، ليتابع:

-يا ساده..

في عقد جواز ممكن يغير التاريخ.

في عقد جواز اكتشف بسببه كولمبس الأمريكتين.

في عقد جواز بسببه وقعت الأندلس.

في عقد جواز في 1469 غيَّر التاريخ.

***

في ربيع 1469م، كانت الأميرة الجميلة "إيزابيلا" حزينة في غرفة قصرها بقشتاله بالأندلس، لم تكن "إيزابيلا" قد وصلت إلى الثامنة عشرة من عمرها بعد، كانت محبوبة جدًّا من الجميع، خاصة لتواضعها وحسن أخلاقها؛ حيث كانت الأميرة كاثوليكية محافظة، كما كانت جميلة وهادئة الملامح، وكانت تبتعد عن البذخ المبالغ فيه. كانت الأميرة الكاثوليكية حزينة، خاصة بعد وفاة أخيها "ألفونسو" وتنصيب أخيها "هنري الرابع" ملكًا لقشتاله، حيث لم يكن لديه إلا ابنة وحيدة، هي "خوانا" أو "جنة" والتي كانت صغيرة ومشكوك أيضًا في نسبها، لصديق الملك ووصيفه الدوق "خوانا بلترانيخا" ليعترف "هنري" بأحقية "إيزابيلا" في العرش من بعده، كما ساندها جميع أهالي "قشتاله" المحبين لها، لتصبح "إيزابيلا" محط أنظار جميع الملوك الذين رغبوا في الزواج منها طمعًا في عرشها، وكان أبرزهم ابن عمها الأمير "فرناندو الأراجوني" ابن الملك "خوان الثاني" ملك "أراغون"، الذي

كان يتمنى تلك الزيجة لتقريب مصالح المملكتين بعد الكثير من المنافسة والخلاف، كما كان هناك الكثير من الأمراء والملوك المتنافسين على زواج "إيزابيلا"، منهم "ألفونسو" ملك "البرتغال"، وكبير فرسان قلعة رباح الذي فضله "هنري" أخوها ليزيد من همها، فلقد كانت تربية "إيزابيلا" الكاثوليكية تحثها على البحث عن مصلحة أهم من الاهتمام بالحكم والسيطرة، كان إيمانها بما هو أقوى بالفعل، لتفضل الزواج من ابن عمها "فرناندو"، ولذلك وفي تلك الليلة، أخذت "إيزابيلا" ورقة وقلمًا لتغير بهما التاريخ، فجلست على مكتب صغير بغرفتها الشاسعة، لتكتب شروط زواجها من "فرناندو". كتبت له كل أحلامها التي تحققت بالحرف الواحد، سطرت بيدها التاريخ، من تلك الغرفة الملكية، كتبت بنت السابعة عشرة مكتوبًا غير كل التاريخ، بحلوه ومره، وليكن هذا حسابها، فلقد كان ذلك مكتوبها.

كتبت شروط زواجها التي كان من أهمها احترام "فرناندو" قوانين "قشتاله" وتقاليدها، وأن يجعل منها مقرًّا لإقامته، وألا يغادرها دون إذن منها، وألا يتخذ أي قرارات أو تعيينات في المملكة دون إذنها، وأن يتعاون معها في الحرب ضد أعدائها.

شروط لم يكن ليقبلها غيره، فلقد أحبها "فرناندو" من مكتوبها، حبًّا في إيمانها، وجد فيها السند والشريك، لذلك لم يتكبر "فرناندو" أو يعترض، بل وافق واتجه سرًّا إليها بمدينة "بلد الوليد" التي سميت على اسم الخليفة الأموي "الوليد بن عبد الملك"، وفي التاسع عشر من أكتوبر من نفس السنة، ومن قصر "الفييرو" ب"بلد الوليد" تزوج الملكان سرًّا، في حضور القليل من الأصدقاء، الذين شهدوا زواجًا قد غير التاريخ، مغيرًا من خارطة

العالم كما نعرفه الآن.

***

ظل الطلاب مستمتعين بما يسمعونه من قصص وحكايات، متناسين أنهم في محاضرة علمية تاريخية، فما التاريخ إلا قصص وحواديت لأشخاص عاشوا حياتهم قبلنا، وقريبًا سيتكلم عنا أحفادنا، فتُرى هل سيخلد التاريخ أسماءنا، أم سنذهب دون حتى أن ندلي بدلونا؟!

-وإيه اللي حصل بعد كده يا دكتور؟

-ولا حاجه، بعتت "إيزابيلا" لـ"هنري" وشرحتله أسباب جوازها من "فرناندو"، وبعد أقل من خمس سنين مات "هنري"، واتنصبت "إيزابيلا" ملكه على "قشتاله"، بعد ما ساعدها حبيبها وجوزها "فرناندو" على التخلص من كل أعدائها اللي نادوا بالحكم لبنت "هنري" "جنة"، حتى إن ملك البرتغال نفسه دخل في حرب ضدهم، لكن "فرناندو" دافع عن حكم حبيبته، وبعد كدة مات أبوه "خوان الثاني" ملك "أراغون"، عشان هو يمسك الحكم، وتنتهي الحروب ويتوحد الحبيبين أو الزوجين، الملكين الكاثوليكيين، زي ما سماهم البابا "إسكندر السادس"، ويتوحد من وراهم شعوبهم تحت إسم "إسبانيا" لأول مره في التاريخ.

-طيب وبعدين يا دكتور؟

قالتها إحدى الطالبات متناسية الوقت الذي استُهلك، لينظر "مصطفى" إلى ساعته معلقًا:

-والله إنتي اللي فكرتيني إني عندي معاد مع دكتور، كفايه عليكم كده النهارده. بالمناسبه، كل اللي حكيتهلكم النهارده ملوش علاقه بالمنهج، إنتوا منهجكوا بيتكلم بس عن "الموركسيين".

ضحك الطلاب وتساءلوا:

-مين "الموركسيين" دول؟

-دي حاجه لو عرفتوها تبقوا عُمد، سلامو عليكم.

قالها وتركهم لفضولهم، ليزدادوا شوقًا إلى ما هو قادم، وقد انتبه كل منهم اليوم إلى خطورة ذلك التاريخ الثالث الذي نقرره بأيدينا، لتنفصل بعض أيادي المتحابين المتشابكة، والذين كانوا لأهمية الحدث غافلين.

*** ***

حال الجميع، اشترت "جيجي" تلك الرواية التي صدرت توًّا، لتقرأ في غضبٍ وصْف الكاتب لها بين السطور، فلقد جهلت "جيجي" كيف ذكرت الرواية أدق تفاصيل حياتها، وكيف علم الكاتب بكل مخططاتها، وكيف أدرك ما كانت تنتوي فعله.

*** ***

الفصل الثاني

من داخل تلك العربة المتجهة إلى الشمال، لا زلت أتابع كتابتي، التي أكتبها لابني "علي" عله يسمع صوتي يومًا ما، كما أكتب لتخليد حكايتها، ذلك الملاك الذي سحر كل الأندلس، ملاك اسمه "مريم" اسمًا ومذهبًا، وفيها قد عشقت المسيح وقدست الكنيسة، فهي السلام وهي التسامح، في زمن تصارعت فيه المذاهب، وسالت فيه الدماء تعصبًا.

فبعد أقل من عشر سنوات من سقوط غرناطة، حنث الملكان الكاثوليكيان كل وعودهما وأصدرا مرسوم التنصير الإجباري، الذي خيَّر مسلمي الأندلس بين التنصر أو المغادرة أو الموت، ليختار جدي الأكبر المكوث والتنصير، إلا أن الإسلام لم يغادر قلبه أبدًا، حاله حال الجميع، ليسمينا القشتاليون بالنصارى الجدد، أو الموركسيين، باعتبارنا خونة. وكان الحق كل الحق معهم، فلقد مكث جدي الأكبر الذي كان من كبار علماء الأندلس وأمرائها، محاولاً استعادة زمام الأمور.

كان جدي الأكبر ممن يصنعون الورق ويطورونه، وكان يستخدمه في الرسائل التي ظل أجدادنا يرسلونها سرًّا للقسطنطينية3؛ طلبًا للعون من المذلة، لتشتعل "البشرات" بثورة تلو الأخرى.

***

٣من شعر أهل الأندلس إلى السلطان أبي زيد خان العثماني:

فقال لنا سلطانهــم وكبيــرهم لكم ما شرطتــم كاملاً بالزيادة

فكونوا على أموالكـم وديـاركم كما كنتـم من قبل دون أذية

فلما دخلنا تحـت عقد ذمامهـم بدا غدرهم فينا بنقص العزيمة

وخان عهودًا كان قد غـرنا بهـا ونصرنا كرهًا بعنفٍ وسطـوةِ

وأحرق ما كانت لنا من مصاحفٍ وخلطها بالزبل أو بالنجـاسـة

وكل كتاب كان في أمـــر ديننا ففي النار ألقـوه بهزءٍ وحقرة

ولم يتركوا فيهـا كتابًا لمسـلمٍ ولا مصحفًا يخلى به للقـراءة

ومن صـام أو صلى ويعلم حـاله ففي النار يلقـوه على كل حالة

ومن لم يجئ منا لموضع كفـرهم يعاقبه اللبّاط شـــر العقوبة

ويلطم خـديه ويأخـذ مالــه ويجعله في السجن في سوء حالة

وفي رمضانٍ يفسدون صيـامـنا بأكل وشرب مرة بعـد مـرة

وقد أمــروا أن نسب نبيـنا ولا نذكرنهْ في رخـاء وشدة

وقد سمعوا قومًا يغنـون باسـمه فأدركهم منهم أليم المضــرة

وعاقبهم حكامهـــم وولاتـهم بضرب وتغريم وسجـن وذلة

ومن جاءه الموت ولم يحـضر الذي يذكرهم لم يدفنـــوه بحيلة

ويترك في زبل طريحـا مجـدلاً كمثل حمار ميت أو بهيمـة

إلى غير هذا من أمـــور كثيـــرة قباح وأفعال غــــزار ردية

وقد بدلت أسماءنا وتحـــــولت بغير رضا منا وغيـــر إرادة

***

(٥)

"كاذب كل من يدعي أن المرأة هي الكائن الأكثر رومانسية فحسب، كاذب وأحمق، بل محتال، فالمرأة هي الكمال، هي وحدها سر الجمال، هي من خلقت شعرًا من قلوب الرجال، أسفل قدميها سجد الملوك بالمال، فهي السكن والوطن عبر الأزمان، وهذا وصف الزوجة في القرآن".

قرأها "شادي" ثم أغلق روايته "الأول من كانون الثاني" ووضعها مرة أخرى في مكتبته أعلى التلفاز، وإن ظلت كلماته المكتوبة عالقة في ذهنه، فلقد شعر أنه قد وفق في تشبيه المرأة بالوطن، ليشعر بوجع بطل روايته الذي ظل يبحث عن الوطن كما يبحث عنه شادي بين عيون النساء، فلقد كان "شادي" هشًّا كطفل تائه يبحث عن والدته، تخدعه كل من تكتشف براءته، مستغلة ضعف قلبه وغربته، فلقد عاش منذ ولادته مغتربًا عن وطنه الأصلي، ولكنهن كنَّ سرعان ما ينفرن منه، فلا يجدن عنده، إلا الذكريات، فلقد فقد كل ما يمتلك في يوم واحد، عندما سلبت "نانسي" كل ما يعرف "شادي" عن الهوى، سلبته قلبه وإرادته من بلاد الأندلس، في "الأول من كانون الثاني".

وفي لحظة حنين "شادي" للوطن، أرسلته قدماه باحثًا عن ربه،

في مسجد عائلته بمحل سكنه القديم بميدان المنشية. قرب سوق "الترك". وصل "شادي" في دقائق متلاشية، ليجد نفسه داخل سيارته في موقف ميدان "محطة الرمل"، فخرج منها متوجسًا خيفة وفضل أن يكمل طريقه سيرًا في شارع الترام متجهًا إلى المنشية. أخذت الشمس في الزوال مُزيدة من صقيع الشتاء. عبر من جانب القنصلية الفرنسية التي نظر إليها بشيء من العتاب، واستمر حتى سمع الأذان، فظنه قادمًا من جامع "التربانة"، الجامع العثماني الملفت للأنظار، والذي تحتل الدكاكين دوره الأرضي. كان الحنين يغمر "شادي" وهو ينظر إلى الطوب صغير الحجم الملون بالأسود والأحمر الذي يزين مداخل المسجد، ولكنه اكتشف أنه مغلق للترميم، فظل واقفًا يتذكر عندما كان يصطحبه والده للصلاة ليقفا بين الأعمدة التي تعود إلى العصر الروماني واليوناني، ليقفا بين المصلين أسفل ذلك السقف الخشبي المزين بزخارف ملونة، أنشأها التاجر "إبراهيم تربانة" الأندلسي الأصل، عندما أتى مهاجرًا من المغرب، ظل "شادي" يدعو ربه الذي هجره منذ سنين ليستكين قلب شادي إلى حين.

***

صفَّ "مصطفى" سيارته "السيات" في موقف ميدان "محطة الرمل"، ثم نظر إلى زوجته التي كانت متأنقة بشكل مبالغ فيه. كان يحتاج إلى مساندتها في مثل هذا الموقف، ولكنها كانت منشغلة بوضع لمساتها الأخيرة على "مكياجها" في المرآة، واضعة المزيد من أحمر الشفاه اللامع، وهي تستمتع بنظرات ذلك الساعي أحدب الظهر الذي غرق بين شفتيها المفتوحتين، ليتوجه ويفتح بابها، لتضم على شفتيها بقسوتها المعهودة، وتترجل بكعب

حذائها العالي علو كبريائها وهي تنظر إليه باستحقار، ليشفق عليه "مصطفى" ويترجل ويضع في يده بعض الجنيهات، قبل أن يعبر الشارع والترام متجهًا إلى عيادة طبيبه. ومن بين محلات شارع سعد زغلول، دخل "مصطفى" وزوجته مدخلاً مدفونًا بين "فتارين" المحلات، يحسبهما المرء متجهين للتبضع، ولكن مدخل عمارة ظهر من العدم بعد "الفتارين"، ليصعدا سلمًا رخاميًّا قديمًا، حتى وصلا إلى الدور الثاني، ليجدا باب العيادة الأبيض ذا الضلفتين مفتوحًا. تريث "مصطفى" لحظة متعكزًا على درابزين السلم ليستريح، فلقد كان ارتفاع أدوار العمارة شاهقًا، حتى تقدمت "جيجي" إلى الداخل. كانت العيادة مبهرة، وإن كانت قديمة الطراز. كان على يسارها كاونتر الاستقبال، الذي تجلس خلفه سكرتيرة حسناء، أكدت الحجز وأشارت لها لتجلس في الجانب الآخر، الذي امتلأ بكراسي خشبية قديمة فرنسية الطراز، فأشارت لـ"مصطفى" ليسرع، بينما اتجهت بصوت خطواتها على ألواح خشبية إلى كرسي عالي الظهر، لتجلس ومن خلفها "مصطفى" بخطواته الثقيلة، الذى فضل الأريكة، مستسلمًا للانتظار الذي كاد يقتله. أخرجت "جيجي" علبة سجائرها "المارلبورو" وقداحتها الفرنسية المصنوعة من الذهب الخالص، وأشعلت سيجارة ملأ دخانها حرمة المكان، حتى توجه إليها هذا "التمرجي" البدين في غضب:

-يا فندم التدخين ممنوع هنا.

في رفض مستفز تجاهلت "جيجي" الرجل، وأمسكت حقيبة يدها، وفتحتها مخرجة منها ورقة مالية بمائة جنيه، ومن ثم رفعتها بين أصابع يدها التي تحمل السيجارة، حتى كادت

تحرقها، قبل أن يحميها "التمرجي" بسرعة منقذًا إياها من الهلاك، ليتقبل ذل المرأة التي دفعت ثمن دقائقه القادمة قائلة:

-يبقى عشان الدخان يا ريت ندخل بسرعه.

سكت الرجل الذي نظر في عيون المرضى المتواجدين في المكان بشيء من الانكسار، والذين كادوا ليتدخلوا، لولا أن سارع "مصطفى" وخطف سيجارة زوجته، ووقف معتذرًا للجميع، موجهًا كلامه "للتمرجي":

-معلش، إحنا آسفين، بس إحنا مستنيين نتايج مهمه.

قالها "مصطفى" وتوجه لإطفاء السيجارة في الخارج، لتعكس عيناه ما جاء لأجله وتوقعه الجميع، ليتوجهوا بنظرات القبول إلى "التمرجي"، الذي سارع هو الآخر في إدخالهما بعدما خرجت الحالة الأخيرة.

***

من داخل غرفة مكتبي في المعرض، لازلت أتابع كتابة أحداث قصتي في صفحات تلك الرواية الجلدية القديمة، والتي تُجبرني على سرد الأحداث دون تحريف أو نسيان، حتى بعد مرور أكثر من ثمان سنوات، فلقد شهد عام 2008 الكثير من الأحداث لتغير تاريخي ومستقبلي بعدما صدقت "نانسي" واتبعت خطتها؛ فلقد ذهبت إلى "عمر" تكرارًا ومرارًا، باحثة عما أصدقه، بحثت بقلبي وجنبت عقلي، بحثت عن حب لم يكن هناك ليستجيب، وتمسكت بوهم مبني على الأكاذيب، لأظل أنعي حظي أو النصيب!

ربما كانت حبيبة "عمر" السابقة هي الأخرى السبب، فكلما اقتربت منه، كانت تحاول استعادته هي الأخرى، وكنت دائمًا أتساءل عن الحياء، فكيف لمرء يفرض نفسه دون كبرياء؟! حقًّا كنت أجد في تصرفاتها الكثير من البغاء، وإني قد علمتُ كم كنت شديدة الغباء!

-إضحك بقى.

-أضحك على إيه بس يا "ليلى"؟

-يا سيدي إضحك وخلاص، ضحكتك حلوه، وبعدين هو مش إنت النهارده عيد ميلادك؟

-يا سيتي أهي سنه سبقتني وعدت من غير ما آخد منها اللي أنا عايزه.

-ليه يا "عمر"؟ ما إنت فتحت المعرض اللي كان نفسك فيه.

قلتها وسكت، قبل أن أتذكر قلبه المجروح.

-ولَّا إنت زعلان عشان فركشت؟

-إطلاقًا.

قالها بقوة، ظننتها مصطنعة حينها.

-طب عيني في عينك كده.

لم يساعده حزن عينيه لأصدقه، وقد علم ذلك هو الآخر.

-أكيد حاسس بزهق، بملل، بس أنا متفهم إن ده أحسنلي.

تنهد وأكمل في وحدة لامست قلبي:

-أكيد أحسنلي.

قبل أن أتابع حديثه، رأيتها من خلف "فاترين" معرضه في الخارج، تقتلها الحرقة والندم، نظرت إليَّ ببغض وكأني أقتلها، فقد كانت تجهل أني كنت أحميه منها، فلقد قرر ورفضها، ووجب عليها احترام قراره، نظرت إليها وأمسكت يديه بجرأة كنت أفتقدها، فابتسم.

-يالَّا بينا.

-يالَّا على فين؟

-"سانتا لوتشيا".

-"سانتا لوتشيا"؟ بس لازم نكون لابسين.

قالها وقد انتبه لفستاني الأحمر القصير، الذي كنت أرتديه بعدما أعددت كل شيء مسبقًا، نظر لي بعدما أدرك جمالي للمرة الأولى -كما أعتقد -ليبتسم قائلاً:

-ده إنتي مرتبه كل حاجه بقى؟

أجبته وأنا أنظر إليها من خلال الزجاج، وكانت قد أدركت أنه لي:

-طبعًا، هو إنت فاكر إيه؟ ده عيد ميلادك يا أستاذ.

-طيب يا سيتي، لو كنت أنا مش جاهز، كنتي هاتعملي إيه؟

ضحكت وأنا أخرج العلبة التي كانت في حقيبتي.

-إنت دايمًا جاهز، دايمًا شيك، دايمًا بالبدلة والكرافت.

قلتها وأنا أعطيه العلبة السوداء، التي زين غطاءها رابطة بشريط أحمر على شكل زهرة صغيرة، فتحها ليجد رابطة العنق حمراء اللون التي ابتاعته إياها بثمن باهظ، لتكمل مظهره الذي يتمناه كرجل أعمال منذ شبابه، فبالرغم من اهتمام "عمر" بهندامه وارتدائه للبدل مصرية الصنع التي أعطته الطابع الذي يتمناه، ظهر عجزه في شراء رابطات العنق التي تستطيع أن تتماشى مع هذا الطابع، لتجعله أشبه بالتلميذ الذي يرتدي رابطة عنق "الأستك".

أخذ "عمر" الهدية في سعادة مبالغة، ونظر لي لأربطها له، ولكنني عجزت وإن تمنيتها، كحال كل الأفلام الكلاسيكية.

-طيب أنا أعمل فيكي إيه دلوقتي؟

-تتفضل تلبس الكرافت وتيجي معايا.

-على القسم ولّا إيه؟

-القسم ده هاوديهولك لو اتأخرت، أنا واخده إذن من ماما للساعه حداشر والساعه داخله على تمانيه، وإنت مقعدني هنا ترغي وبس.

-حاضر، حاضر، ثواني هاظبط نفسي واجيلك.

-طيب، بسرعه بقى.

اختفى "عمر" داخل مكتبه، حتى ظهرت "هدير" وفتحت باب المعرض. كانت مثيرة، بل رخيصة، متوفرة دائمًا، ولكني لم أكن لأسمح لها، دخلت وهي تحمل هديتها، ولم أكن أستطيع اعتراضها، لتدخل بسرعة إلى الداخل. كنت أشعر بغيرة مبالغة، فلم يحدث بيني وبين "عمر" ما يدعو لتلك الغيرة، ولكني كنت كالجمرة، حتى أني ذهبت واقتحمت خلوتهما، بطريقة لا تشبهني إطلاقًا.

-"عمر" أنا كده هاتأخر جدًّا.

تعجب "عمر" وقبل أن يجيب تكلمت "هدير":

-مش مهم يا حبيبي، ممكن تروح مشوارك وأنا هاجيلك بالليل، ما أكيد البنوته عندها مدرسه الصبح.

قالتها وهي تتمايل بجسدها لتعبر من جواري إلى الخارج. رباه، كم كان "عمر" صعب المنال!

-ماشي يا "هدير" هاتصل بيكي.

قالها بضعف، قبل أن يتعافى ويكمل ربط رابطة عنقه، ثم اتجه إلى الخزينة وأخذ بعض الأموال، ومن ثم أوصى موظفه الوحيد الذي لم يكمل دراسته بعد عن المكان، فلقد كان "عمر" يعرف كيف يتاجر بأحلام الصغار ليصنع هو حلمه بوعود لا يستطيع إيفاءها. خرجنا ليشير "عمر" إلى تاكسي قديم ليتوقف صاحبه الأحدب.

-محطة الرمل؟

-ولو عاوز تروح مصر، يا فندم.

ضحكنا وركبنا السيارة ليسأل "عمر" كعادته:

-ربنا يخليك، إسم الكريم إيه؟

-"عاطف" إن شاء الله.

دقائق ووصلنا إلى شارع "صفية زغلول" بمحطة الرمل، وعندما لمح "آفايري" المكان وقوف التاكسي، سارع بفتح بابي، لأترجل وأنا أنظر إلى تلك الواجهة الزجاجية ذات الإطار الخشبي بسعادة بالغة، فكم كنت أنتظر اليوم الذي أدخل فيه عالم "سانتا لوتشيا" بفارس أحلامي! تابعني "عمر" وتوجهنا سويًّا إلى سحر المطعم اليوناني، والذي تُوج بـ"ملك المطاعم" منذ أن افتتح في بدايات القرن العشرين، من باب خشبي مرتد للداخل، دخلت لأستمع لصوت عزف بيانو خطف قلبي، لأتوقف وأبحث عن مصدره. كان مدخل المطعم ذو سقف مرتفع يضم طابقين، ينتهي بشبكة خشبية، يتوسطها الزجاج المطرز بألوان مختلفة. ظللت ثابتة للحظة وأنا أنظر إليه قبل أن أشعر بلمسة "عمر" على كتفي الأيمن، لأتجه بنظري إلى يميني، لأجد عازف البيانو ذا الشعر الأشيب، الذي استقبلني بمعزوفة فرنسية حالمة. ابتسمت له كما فعل، وأنا أنظر إلى المائدة التي كانت تضم مجموعة كبيرة من الأصدقاء الذين كانوا يتسامرون ويضحكون بأصوات عالية تناغمت مع العزف. قبل أن نشرد أكثر، ظهر من على يسارنا رجل من خلف كاونتر صغير:

-في حجز يا فندم؟

-أيوه.

قلتها بخجل وتابعت:

-"عمر" و"ليلى".

ابتسم "عمر" وضغط أكثر على كتفي، بلمسة كنت أفتقدها.

-آه طبعًا أهلاً أهلاً، الدور اللي فوق يا فندم، إتفضلوا معايا.

تابعنا الرجل سويًّا، بعدما أنزل "عمر" يده من على كتفي، وأمسك بيدي ونحن نصعد السلالم الخشبية، التي ظهر عليها التهالك نوعًا ما، وكنت أتمنى أن لو أضافوا لجمالها تلك السجادة الحمراء التي أجدها في كلاسيكيات الزمن القديم. بعد بضع خطوات تفرع السلم بشكل شرفي، يمينًا ويسارًا، يفصلها من أمامي حائط عالٍ وُضعت عليه لوحة زيتية لامرأة فقدت المعالم، وكعادتي وأنا منبهرة توقفت لحظة أتأملها قبل أن أتابع الرجل الذي توجه ناحية اليمين في خطوات مستقرة. مررت من جانب دولاب كدواليب الفضيات، من الخشب أيضًا، يتخلله أرفف زجاجية، كالكاسات الموضوعة عليه، في لمسة منزلية مختلفة. خطوات أخرى فوق سجاد أهانه الزمن، لنتوقف عند مائدة مربعة بجوار الدرابزين المطل على الدور الأرضي. توجه الرجل وحرك الكرسي لأجلس، ولقد تمنيتها من "عمر" الذي جلس منبهرًا بالمكان، كما تخيلته بالضبط وهو يحسب كم ستكلفه فاتورة الحساب، أما أنا، فلفت انتباهي ذلك الورد الأحمر المجفف الموضوع على المائدة على شكل قلب صغير، كما هو الحال على أغلب الموائد في المكان، وهذا باعتبارنا عشاقًا بالفعل كالآخرين.

-النهارده إنت معزوم، خلي بالك.

في اندهاش لا يخلو من الطمأنينة، أجاب "عمر":

-يعني إيه عازماني، ليه خارجه مع "سوسن"؟

ضحكت لسخريته، وتمسكت بكلامي.

-النهارده عيد ميلادك، ودي هديتك.

-أمال الكرافت دي كانت إيه؟

قالها ساخرًا.

-الخروجه هي الهديه، والكرافت جزء منها.

-يعني هاتاخديها بعد الخروجه؟

كان قد استسلم لدعوتي، وبدأت روح الدعابة تتوغل لباله المرتاح مرة أخرى.

-كفايه هزار، واحكيلي بقى يا "عمر"، إمتى هاتصالح طنط وأنكل؟

لم يتوقع سؤالي، وكنت قد اكتفيت بالحديث عن حبيبته السابقة.

-والله يا "ليلى"، هما اللي المفروض يصالحوني، أنا اللي زعلان مش هما.

-هو لمَّا إنت تسيب لأهلك البيت يبقوا هما اللي غلطانين؟!

اقترب مني وكأنه يهمس إليَّ وأكمل:

-أنا بقالي سنين بيعاملوني كأني مجرد لعبه، محدش حاسس بيا،

أبويا كل همه إني أطلع زيه، عايزني أعيش حياته، وأنا عارف إني لو هاندم على حاجه قبل الموت، هاندم إني ما عيشتش حياتي زي ما أنا عايز، وساعتها هاكرهه، وأنا مش عايز أكرهه.

رغم قوته، ظهرت على "عمر" مشاعر فياضة لم أعهدها عليه، لعلها من أسباب انخداعي في بادئ الأمر!

-عارفه يا "ليلى"، أنا مكنتش محتاج أنجح، دلوقتي مضطر أنجح عشان بس التحدي اللي حاطوني فيه، خلوا طعم النجاح ماسخ.

-أمال كنت عايز إيه؟

-كنت عايز أعيش حياتي، الوقت بيجري بسرعه، مش قادر أعد مع صحابي على القهوه، كل لحظه بتفوت أقدر أعمل فيها حاجه هاعملها، أنا كده، ساعات بحس إني أناني، مش مهتم غير بحياتي، بس ده مايخلنيش وحش.

قالها بوضوح وياليتني سمعتها، يا ليتني.

-عارفه يا "ليلى" لما تبقي بتدوري على حاجه ومش لقياها؟ الحاجه دي مكنتش في بيتنا، ولا في كليتي، والغريبه إنها برضه مش في المعرض.

تعجبت حينها قبل أن أمسك زمام الأمور في السنين الماضية.

-طيب حلمك فين؟

سكت قبل أن يدخل الرجل، ليشعل شمعة وحيدة أوشكت على النفاد.

-نعمل أوردر دلوقتي؟

-أنا عارفه هاطلب إيه.

قاطعني "عمر"، وأخذ مني قائمة الطعام.

-أنا هاطلبلك على ذوقي.

قالها وقد امتلكني وكنت قد أحببت ذلك.

-بس معلش، سيبني خمس دقايق.

-تحت أمر حضرتك.

انصرف الرجل، وظل "عمر" يقرأ القائمة التي كانت تحتوي على أصناف مكتوبة بالفرنسية قبل أن تُترجم للعربية بخط صغير.

-ممكن إنتي بقى تحكيلي شويه؟

-أحكيلك إيه؟

-اللي ييجي على بالك.

ظللت أرمقه، أرمق رجولته وشبابه وهو يختار أصناف الطعام، لأبدأ:

-والله ولا حاجه، إنت عارف، أنا خلاص أيام وأخلص دراستي.

-التاريخ؟

قالها دون أن يرفع نظره إليّ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ألاحظ نظارته الطبية التي يرتديها.

-أيوه يا سيدي التاريخ، وبابا اشترالي شقه.

كنت قد استطعت أن ألفت انتباهه، ليرفع نظره إليّ من أعلى نظارته:

-وفي نفس العماره، ولسه باباك ومامتك كانوا بيباركولي عليها، بجد يا "عمر" هما بيحبوك أوي.

قاطعنا الرجل الذي بدأ يُدون الطلبات من "عمر" الذي طلب لي الـ "فيليه بوافر" الذي كان يُفضله،بينما شردت أنا في النظر إلى المتسامرين في الدور الأرضي، والذين كانوا يحتفلون بمرور عام جديد على عمر صاحبهم، لعله وجد فيه نفعًا ما!

*** ***

كان الصندوق لا يزال في غرفتها صامتًا، وإن كان يُدون بعض الأحداث كل حين وآخر وهو يُشاهد هذا القلب العاشق الذي يُشبهها (هي) صاحبة الصندوق الأولى.

*** ***

(٦)

بعد قراءة مشهد "ليلى" و"عمر" أغلقت تلك الرواية التي هربت إليها بعدما عرفت نتيجة تحاليلي، بعدما فضلت التنزه سيرًا وحيدًا عن العودة مع زوجتي الشامتة، فلقد بدأت أستشعر النهايات، لست مريضًا، ولكني عقيم، قرر الخالق أن ينهي سلالة أجدادي عندي وقطع ذريتي، من أنا لأتحمل نهاية نسب

"الخوانكي"؟! يا ألله، كم هو حِمل صعب ومسؤولية ثقيلة! كم كنت أتمنى أن أشارك حزني أحدًا، ولكني وحيد عقيم يتيم! يا والدي لمَ تخليت عني؟! وهبني الله لك، ويا ليتك آخيتني، يا ليتك خلقت من صلبك عونًا لي، كما فعل اللّه وشد عضد "موسى" بـ"هارون"، فلمَ تجاهلت حاجتي؟! هل تعتقد أني سعيد بتفرغك لتربيتي؟! عفوًا والدي، لقد فشلت، وجعلتني أكفر بما آمنت، فمن أنا ومن أنت! ويحي من وحدتي، ويحي من ظلمتي! هل أبكي متناسيًا شاربي؟! ها قد شِبتُ للمرة الثالثة بعدما فقدتك وأمي، يا ربي ضمني إليك، أتمنى أن لو كنت مجرد "حبر على ورق"، ففي قلبي حرقة ولهيب. هربت من رجولتي دمعة وصلت لشاربي الذي طردها لتتساقط على ورق الرواية، لترسم بحرًا غريبًا في خيالي، فابتسمت وتذكرت "ليلى" خاصة عندما وجدت نفسي في شارع صفية زغلول أمام عالم "سانتا لوتشيا"، ومن أمامه "فاليه" المطعم، الذي جهلت "ليلى" اسمه. "أحمد متولي" في كامل هندامه أمامي، بهذه البذلة السواريه التي يتداخل في بعض نسيجها لون أحمر جريء. هرع إليّ "متولي" بعدما شعر بأني في حاجة إلى مساعدة.

-حمد اللّه على السلامه سموك.

-اللّه يسلمك يا "متولي"، إمسك إيدي والنبي.

-خير سموك.. أطلب دكتور؟

-لا، أنا بس محتاج أدخل أعد على ترابيزتي.

-أوامر سموك، ألف سلامه عليك.

حاول "متولي" حمل حقيبتي ولكني أبيت، ووضعت بها روايتي الجلدية، وابتسمت له ومددت يدي اليسرى وأنا أنظر إلى عالم "سانتا لوتشيا" الذي كانت تجهل تاريخه "ليلى" كما يجهل الجميع، ولكني كنت أعلم عنه الكثير، فوالدي كان من أصدقاء مؤسسيه اليونانيين، الذين ظلوا يتوارثونه من "بانايوتي" الذي خصص المطعم لإعداد الولائم الملكية "للملك فؤاد"، حتى وصل لحفيده الخواجة "ياني" رئيس الجالية اليونانية، هذا المطعم الذي استقبل "الملكة فريدة"، و"الملكة ناريمان"، و"شاه إيران"، و"ديميس روسوس"، وحتى "داليدا"، ليستقبل أخيرًا صعلوكًا عقيمًا مثلي!

صعدت بمساعدة "متولي" بنفسه، وكنت معروفًا بحبي لمائدة في آخر الدور العلوي، فلا أحب أن أجعل ظهري مكشوفًا للغدر، كما كنت أستمتع بمراقبة الجميع، خصوصًا الملاك التي أحرجتني في الماضي، عندما حاولت التعرف عليها، فلقد كانت تأتي وحيدة باستمرار لتجلس على مائدة مطلة على الدور الأرضي، وكانت تعشق النظر إلى عازف البيانو، بينما كنت أكتفي أنا بسماعه، أو لعلي كنت أراه بعينيها، أو لعلي كنت أفضل النظر إليها عن عازف البيانو!

والآن كنت قد رأيتها، وحيدة كعادتها، تراقب العزف شاردة، وهي تمسك بقهوتها الخالية من سكر الحياة، ظللت أرمقها وأنا أقترب، وكنت قد عبرت بجوارها للتو، ولم أعرف لمَ خانتني يدي اليمنى لأسقط حقيبتي! أستند على مائدتها، لينتبه إليَّ هذا الملاك الذي كنت دائمًا أراقبه من بعيد، للمرة الثانية أرمق هذا الوجه عن قرب، كان بعينيها قدر ثمين من الحنان، يجهل قيمته الكثير،

وقفت السيدة في لحظة، دون تكلف أو مضايقة:

-سلااامتك.

حاول "متولي" إيقافي لأكمل طريقي، كما انتبه بعض العاملين في المكان وهرعوا إليّ، لتقف هي وتمسك بيدي طالبة مني الجلوس أمامها على مائدتها الخالية.

-"متولي" أعده هنا بسرعه.

-حاضر سموك.

انتبهت السيدة لوجود الكثير من العاملين، فصرخت فيهم:

-إبعدوا عن الراجل، خلوه يعرف ياخد نفسه.

وافقها الجميع إلا "متولي". أمسكت الأميرة بذراعه. حقًّا هي أميرة، فلقد كانت مختلفة. بيضاء، رشيقة، ذات شعر كستنائي ناعم طويل، تضع مكياجًا أنثويًّا ناعمًا، دون تكلف، كما كانت ترتدي فستانًا أبيض، مزركشًا كفساتين "سندريلا" الشاشة العربية، شابة لم تكمل عقدها الرابع بعد، شارد أنا في وجهها الذي كنت أهرب منه مكتفيًا بمراقبتها من بعيد، لتتوجه هي بحديثها إلى "متولي":

-ماله الأستاذ يا "متولي"؟

-"مصطفى".

قلتها لعلها لم تسمعها المرة الماضية، قلتها بابتسامة لا تمت للفرسان بصلة، فلست "رشدي أباظة" أو "عمر الحريري" ولكن لا

بأس بجمهور "يحيى الفخراني".

-أنا "مصطفى".

هذه كانت الثالثة.

-"ليلى".

قالتها وأعادتها وكأنها تعتذر مني.

-أنا "ليلى" إتشرفت بحضرتك، طمني محتاج حاجه؟

-بالعكس، ده أنا في منتهى السعاده.

ابتسمت ضاحكة، ومدت يدها لتلامس جبيني، غير مهتمة بغزارة عرقي، في لمسة افتقدت معناها منذ وفاة والدي.

-حضرتك دافي.

لم أكن أعلم إن كانت حرارتي قد ارتفعت قبل أو بعد أن لمستني! فلقد نسيت كيف تكون لمسة النساء، فهي غير لمسات "الحيزبون"، فلم يلمس جسدي مؤنث غير كلبتي التي ماتت منذ شهور!

-لا، يمكن بس من المشي، وأنا عندي أزمه في صدري، بتيجي من الزعل.

-طب سموك أجيب لحضرتك دوا؟

-لا خالص، البخاخه في العربيه.

-طيب خلاص يا "متولي" سيب "مصطفى" بيه براحته.

تركنا "متولي" لنستقبل الشيطان سويًّا، أو لعلي تمنيت.

-أنا عارفه الزعل ممكن يعمل إيه يا "مصطفى" بيه، بس صدقني الصحه ما بتتعوضش، ألف سلامه على حضرتك، وأتمنى تبقى أحسن إن شاء الله، عن إذنك.

قالتها وأخذت حاسوبًا صغيرًا كان أمامها، وذهبت في طرفة عين، ذهبت قبل أن يجالسنا الشيطان، لحظات شردت في مكاني الذي كنت أجلس فيه، والذي ظل يراودني عن نفسه، ولكني أبيت أن أفارق مكاني، وأرسلت لأريكتي ابتساماتي من بعيد، حتى عاد "متولي" بحقيبة بلاستيكية صغيرة.

-عامل إيه سموك؟

-أحسن، خلاص يا "متولي" لما هارجع هاخد البخاخه هابقى كويس.

-طيب إتفضل البخاخه.

لم أفهم، ولكني وجدت "متولي" قد جلب لي بخاخة جديدة.

-ليه كده يا "متولي" بس سيبت شغلك؟ عمومًا تسلم إيدك، دفعت كام؟

-مادفعتش حاجه يا فندم.

قالها مبتسمًا، قبل أن يتابع:

-مدام "ليلى" كتر خيرها اديتهالي من عربيتها، عشان أوصلها لحضرتك، أصل هي كمان عندها حساسية.

-مدام "ليلى"؟!

قلتها مبتسمًا وأنا أشير إلى الكرسي الشاغر أمامي وأنا أستمتع بإيماءته بالإيجاب.

-هي مين "ليلى"؟

-دي زبونه عندنا من أكتر من عشر سنين، كانت دايمًا بتيجي مع جوزها، بس بقالها فتره بتيجي لوحدها.

-اتطلقوا؟

قلتها بأسلوب راقٍ كعادتي، ليندهش "متولي" معلقًا:

-بعد الشر، ما أظنش، هو في حد يسيب ملاك زي مدام "ليلى"؟!

وكان الحق كله معه. ما الذي حل بي؟! اعتذرت من "متولي" وسكت.

-سموك مش هاتنقل على ترابيزتك؟

-لأ.

قلتها وأنا أنظر إلى مكاني من بعيد، لينصرف "متولي"، وأتحرك أنا وأجلس مكان "ليلى" في الكرسي المقابل لي، لأندهش من موقع المائدة، فلقد كان ساحرًا، ولكن في وجودها يظل مكاني أفضل. قطع خيالي صوت المتسامرين من أسفل في الدور الأرضي،

والذين كانوا يحتفلون بمرور عام جديد على عمر صاحبهم، لعله وجد فيه نفعًا ما! ما هذا؟! أراني أستخدم كلمات كاتب الرواية الجلـدية. أخرجتـها مـن حقيبتي، وقبـل أن أتـابع، جاءني هـذا الاتصال من المؤلف، صديقي الوحيد "شادي" الذي كان حائرًا بين الطرقات يهرب من الذهاب إلى معرضه الجديد.

-إنت فين يا درش؟

-مال صوتك؟

-يا "مصطفى" إنت فين؟

-هاكون فين! في "سانتا لوتشيا".

-طيب جايلك.

-آلو! آلو! يا "شادي".

كان "شادي" قد أغلق الخط والإرهاق قد تملكه فكريًّا وجسديًّا، حتى أنه لم يستطع العودة لسيارته سيرًا كما فعل، وقبل أن يشير إلى تاكسي، ناداه الترام، فابتسم "شادي" وهو مُسيَّر إلى المحطة، بعد بضعة سلالم متهالكة، حتى وقف بجوار أريكة مظللة بحوائط من الطوب الزجاجي، سُرقت أغلب بلاطاته، حتى سمع صوت حركـة التـرام الـذي يشـبه العجـوز الذي يحتـاج إلـى من يسنده. توقف الترام وصعد "شادي" وقد بدا عليه ثراؤه بالنسبة لركاب الترام الذين رمقوه بنظرة السائح. وقف "شادي" لحظة لا يعرف ماذا يتوجب عليه فعله، فلقد مرت عقود منذ أن استخدم الترام! رمـق الجمـيع بنظراتـه الصـبيانية، ابتسـم لسـيدتين مـن سـكان

الإسكندرية، ترتديان ثيابًا راقية، كما كانت السيدات ترتدي في الستينيات، إحداهما قصيرة الشعر تغطيه بطرحة قصيرة، كادت تشبه الحجاب، لولا الصليب الذهبي الذي وشمت بها يدها، أما الأخرى فكانت صهباء، تخاف من الحسد بآية الكرسي التي تتوسط صدرها. تناغم حضاري غريب شرد فيه "شادي" وسط ضحكات السيدتين اللتين تناغمت ذكريات عمرهما في خياله. أخيرًا لمح "شادي" "الكمسري" الذي جلس شبه نائم من خلف منضدة صغيرة، وضع عليها التذاكر. أُحرج "شادي" فلم يكن يعلم كم ستكلفه التذكرة، فأخرج ورقة نقدية فئة الخمسين جنيهًا، وطلب تذكرة واحدة، ولكن الرجل ظهر عليه الانزعاج من عدم وجود "فكة"، فابتسم وأشار لـ"شادي" بالجلوس، ولكن "شادي" كان يريد الاحتفاظ بتلك التذكرة، فحاول التفتيش في جيوبه، وعندما يئس، اقترب من الرجل وهمس قائلاً:

-معلش خلي الباقي، كل سنه وإنت طيب.

وقف الرجل وهو في قمة سعادته:

-الله يعمر بيتك ويخليلك ولادك!.

انتبه الجميع، وتغيرت نظراتهم لـ"شادي" بابتسامات صادقة ممتنة، فأحرج وقطع لنفسه تذكرة، وابتعد بضع خطوات وجلس بجوار السيدتين اللتين وقفتا لتنزلا في المحطة القادمة، ولكنهما ربتتا على كتف شادي بحنان أمومي وابتسامة راضية، جعلت "شادي" يعرف لمَ اختار جده هذا البلد دون غيره، البلد الوحيد الذي عوض جده شوقه للوطن، فهذا البلد بني على مودة ورحمة بين سكانه وأديانه، افتقده الجد بين ترحاله.

أراح "شادى" ظهره الثقيل على الأريكة الجلدية حمراء اللون؛ ليغمره إحساس مفقود بالدفء تملكه مع تعالي صوت حركة الترام واهتزازه الذي يشبه حركة الأم التي تحاول أن تصل برضيعها للنعاس.

***

-نشتريلك قلم من فين هنا؟

ابتسم "شادي" لـ"نانسي" ثم قال:

-بقولك إيه، إحنا هانعمل إيه كل الوقت ده؟

-هانجيبلك القلم.

-هانجيب قلم في 14 ساعه؟

-أكيد لأ، هارجع للمطار لما يظبطولنا أوتيل.

-ممكن يتأخروا، إحنا أعياد.

-طيب عايز إيه؟

ضحك شادي من أمام "مطار مدريد"، وأضاف بصبيانيته البريئة:

-نركب القطر.

-قطر؟!

-هافرجك على أسبانيا بجد.

-فين؟

-"غرناطة".

-إنت أكيد مجنون!

قالتها "نانسي" وهي تعلم جيدًا أنها تعشق كل هذا الجنون.

***

استيقظ "شادي" من نعاسه قبل أن يفقد محطته المنشودة، ليحاول أن يتناسى ذكرياته، ويتوقف لينزل في محطة الرمل ليكمل رحلته سيرًا حتى وصل إلى "متولي" الذي حياه بحفاوة:

-أهلاً سموك، "مصطفى" بيه في انتظارك فوق.

-شكرًا "متولي".

-"شادي" بيه، خلي بالك من أستاذ "مصطفى"، شكله تعبان.

انزعج "شادي" وأسرع في الدخول والصعود، وبدأ يبحث بعينيه عن "مصطفى" في آخر المكان كعادته، إلا أنه وجد "مصطفى" يرفع له يده من مائدة أخرى في منتصف المكان. كان "مصطفى" مبتسمًا بشوشًا كعادته، فارتاح "شادي" واقترب ليجلس.

-إيه يا درش مالك؟

-مالي؟!

قالها "مصطفى" مبتسمًا وكأنه تحت تأثير مخدر ما.

-"متولي" بيقولي إنك تعبان.

-بالعكس، ده الجو منعش وجميل، أنا في منتهى السعاده.

ضحك "شادي" وعلق وهو ينظر إلى الزجاجة التي أمام "مصطفى":

-أنا قاطع عليك، إنت شارب؟!

-شارب وواكل وحاجه آخر ألصطه.

قالها وظل يضحك، حتى دمعت عيناه، فشاركه "شادي" الضحك.

-اشرب اشرب هاتتبسط، أجيبلك تاني؟

قالها "مصطفى" وهو يرفع يده للنادل.

-لو سمحت، خمره، هات خمره تاني.

حاول "شادي" خفض يد "مصطفى"، وهو يهمس له:

-يا "مصطفى" أنا مابشربش.

-عارف عارف، ولا أنا.

قالها "مصطفى" ثم توجه للنادل الذي كان قد اقترب وأضاف:

-خمره تاني، بس خلي بالك إحنا مابنشربش.

-أفندم؟!

-بسرعه بقولك.

انصرف النادل ليحضر الطلب، بينما توجه "مصطفى" بصب كأس لـ"شادي" الذي كان لا يزال رافضًا، ليبدأ "مصطفى" في رسم ملامح الجدية وقال:

-أنا ندمان يا "شادي".

-في إيه يا "مصطفى"؟

-أنا ندمان على العمر اللي راح هدر.

سكت لحظة وتابع:

-ضاع هدر من غير ما أشرب خمره.

قالها وتابع في ضحكاته الصاخبة لتبدأ السهرة لتوها.

*** ***

دخلت (هي) يومًا إلى غرفتها؛ لتجد هذا الصندوق مفتوحًا وقد وضعت تلك الرواية الجلدية على مكتبها، ولكنها كانت لم تزل صغيرة، فصرفت نظرها عن النداء، وأعادت الرواية إلى الصندوق بثبات، وإن هربت (هي) من الرواية، إلا أنها لم تتجاهلها أبدًا حتى النهاية.

*** ***

الفصل الثالث

كان جدي يرسل الرسائل إلى القسطنطينية طلبًا للعون بعدما منع فيليب الثاني اللغة العربية، وأحرق الكتب والمصاحف، وطاردت محاكم التحقيق كل من خالف ذلك، حرقًا وقتلاً، ولكن الورق صُنْع جدي صمد، فسره كان غائبًا عن النظر، ومن هنا ظهرت لغة "الألخيميادو"، التي دوّنا بها اللغة القشتالية بحروف عربية، وكانت كالشفرة لا يفهمها غيرنا، وكانت من مفاتيح ثورات البشرات.

-ماذا تفعل أيها الحثالة؟

قالها بفرنسية جندي فرنسي وبصق عليّ وهو يوجه إليّ بندقيته.

-لا شيء، لا شيء.

قلتها بخوف، لا يعكس رهبتي من بطشه، ولكني كنت أخاف على الأوراق التي تحمل اسم "مريم". كنت شبه عاري الجسد، فلم يحتمل جلبابي الضعيف ما مررت به من مشقة، ليتلاشى شيئًا فشيئًا، لذا اكتشف الرجل أوراقي وتفحصها، وسرعان ما ضحك ورماها بوجهي، لأمسك بها قبل أن يسحبني بالسلسلة الحديدية المربوطة بالطوق الحديدي الذي كان حول عنقي. خرجت مجرورًا من العربة. كانت الثلوج تتساقط مغطية الأشجار والحقول وحتى الطريق الطيني، لامست قدماي الحافيتان الثلج ليتوغل الصقيع داخل قلبي في ثوانٍ، بينما كان هذا الجندي محتميًا من برد الشتاء بمعطف ثقيل غطى حتى سيفه وبندقيته.

كانت الخيول مجهدة، كما كانت الجنود كذلك. أمروني وبعض المساجين بتجهيز الخيام. ساعات من الذل ونحن مقيدون بشجرة شابت أغصانها، نتبادل أماكن التغوط، ونأكل ما يتبقى من فتات الجنود. ظل الأسرى صامدين، فنحن رجال الأندلس ذقنا كل أنواع العذاب، فلقد مررت بما هو أشبه بذلك وأنا ابن العشر سنوات!

***

في الثالث والعشرين من حزيران 1569، تلقى "دون خوان" مرسوم "فيليب الثاني" بنفي موريسكيي غرناطة إلى مختلف بقاع قشتاله لتضعف عزيمتهم. كان "دون خوان" قد جهز مسبقًا للأمر، وجمع جنوده في المدينة تحت جنح الظلام، حتى اطمأن قلبه أن عدد الجنود كافٍ للسيطرة. فبعث بالمنادين إلى مختلف الأحياء عامة وحي البيازين خاصة، طالبين من جميع الذكور التي تتراوح أعمارهم بين العشرة أعوام إلى الستين، ليجتمعوا في الكنائس القريبة، محذرين كل مخالف لذلك.

ارتعب "هيثم" واحتمى بأبيه "عبد المجيد" الذي أنجبه وهو في نهاية عقده الرابع. لم يستطع الأب طمأنة ابنه، ليتركه في أحضان أمه.

ذهب "عبد المجيد" إلى "دون خوان" والذي استقبله لعلو شأنه، فلقد كان جدي من أحفاد الأمراء، كما فعل "دون خوان" مع بعض العلية من القوم، وكان الجميع مرتعبين من انتشار الجند في أنحاء الشوارع، متنبئين بمصير الموريسكيين المائة الذين ذُبحوا في سجن المدينة سابقًا، ولكن "دون خوان" بمكره استطاع

إقناعـهم بـأن هـدف تجميعهم، هـو إحصاؤهم فقـط لـيس إلا، ليصدقه "أندلسيو السلم" كما أطلق عليهم لابتعادهم عن أي دم، ليعود الأب إلى ابنه أخيرًا والذي كان لا يزال متمسكًا بحضن أمه، بجوار أخته الوحيدة. كانت أمه عظيمة، حنونة، وكانت من علمته الفلاحـة، فلقد كـانت من أعظـم مزارعي غرناطة، وكـانت تـرعى أرض أجدادهم وتشرف عليها، كما تحملت مر محاكم التحقيق، وخسارة أخويها في ثورة البشرات. كانت الأم تعلم أنها النهاية، فبرغم ادعاءات الأب، إلا أنها كانت متيقنة من الحقيقة، ولكنها رسمت ابتسامة قوية وهي تترك ابنها وتتوجه إلى الأب قائلة:

-تعلم أني كنت سندك وعضدك في الدنيا.

-بل! وكنتِ أمي وشريكتي.

-إذن فهل إنت راضٍ عني؟

دمعت عينا الأب وركع أمام زوجته، لتضمه إلى خصرها فقال:

-بل! هل إنتِ راضية عني؟

-رضيتُ وارتضيت وبعشقك ارتويت.

اقتــرب "هــيثم" وأختـه وانضـما لحضـن أسـري أخـير. ظلـوا متماسكين حتى بزوغ النهار، لينادي المنادي في الميادين، بنداء الوداع وفراق الأحبة، ليطرق الجنود على الأبواب، بضربات في قلوبهم كالصواعق، ليقف الأب بعد ساعات مرت كلحظات، متشبثًا بيـد ابنـه بشـماله، كمـا فعلـت الأم مـع ابنتها، ليتماسك الزوجـان بيمينهما.

-سأعود.

-سأنتظرك.

-احفظي شرفي وشرف ابنتنا.

-لا تخف، بل احفظ عهدك، فسأنتظرك.

تباعدوا وإن ظل "هيثم" مستمسكًا بأمه، التي لم تستطع أن تطمئنه بأكثر من ابتسامتها الجريحة، ليتركها وإن ظل ملتفتًا إليها حتى انتبه إلى أخته التي تمسكت به لتخطف عناقًا أخويًا أخيرًا، ليتباعدوا كما تباعدت بينهم الأندلس، وبالرغم من المصير المشؤوم الذي كان ينتظر "هيثم" ووالده، إلا أنهما كانا أوفر حظًّا من الأم والطفلة، حيث حضرا حملات صيد الرؤوس، التي نظمها السفاح "دون خوان" تاركًا "غرناطة" سابحة في بحور الدم، قبل أن يغادر إلى "مدريد" التي استقبلت بطلها استقبال الفاتحين.

***

(٧)

-تصدق إنت كان عندك حق يا "مصطفى".

-إشمعنى؟

-أنا فعلاً ندمان.

اندهش "مصطفى" بينما أخذ منه "شادي" الغليون، وتابع:

-أنا فعلاً ندمان على العمر اللي ضيعته هدر.

تنـهد "شـادي" مـالئًا رئتيـه بـدخان الغليـون الـذي اسـتنشقه مـن صديقه قبل أن يكمل:

-أنا كان لازم أسكر من زمان.

ضـحكا وقـد امتـلأت المائـدة بزجـاجات مختلفة من "الكونيـاك" و"الويسكي".

-فاكر يا "شادي" "استيفان روستي"؟ كان بيقول لـ"فاتن حمامة" إن الكونياك ده مشروب البنت المهذبه.

-عليا النعمه إنت راجل مسخره.

-ما تحترم نفسك يا بني آدم.

أُحرج "شادي" من استياء "مصطفى" الذي أكمل:

- أنا سكران آه بس مش مهزأ، أنا دكتور ....

قالها بجدية، ثم سكت لحظة قبل أن يغمره الضحك مرة أخرى وهو يقول:

-عندك حق، أنا دكتور مسخره الصراحه.

-يا عم خضتني.

-خلاص، خلاص، كفايه ضحك، نتكلم جد شويه.

-مابلاش.

قالها "شادي" بتنهيدة أثارت فضول "مصطفى"، ليغلق الزجاجة،

وينظر لـ"شادي" ليستفهم:

-مـابلاش ليـه، فـي إيـه يـابني؟ إحنـا لسـه سـايبينكوا امبـارح مبسوطين.

-مبسوطين!

علق "شادي" ساخرًا، وتابع:

-ده اللي الناس بتشوفه، بتشوفه من بعيد، بتشوف راجل غني، ناجح، متجوز مزه.

-هو إنت اتجوزت على مراتك؟

قالها "مصطفى" ضاحكًا، قبل أن يعتذر.

-معلـش، معلـش هـي بـس كـانت حلـوه فـي سـاعتها، كمـل خـلاص كمل.

-أكمل إيه؟ ما إنت فصلتني أصلاً.

-خلاص خلاص والله.

قالها وانتبه إلى نظرات الفضوليين الذين يبتسمون لهما.

-يعني يا "مصطفى" زي نظرات الناس دي لينا، شايفنا بنضحك، مايعرفوش إننا بنسكر من همنا، مش من انبساطنا.

تذكر "مصطفى" همه وأكد رأي"شادي":

-حقيقي.

-محدش عارف الوجع اللي جوايا، ولو فتحت بوقي وحاولت أبين همي، الناس بتكفرني، عشان مش مقدر النعم اللي أنا فيها!

-طيب إيه اللي جد يا "شادي"؟ ما إنت عملت لـ"ياسمين" كل حاجه هي عايزاها.

-هي دي المشكله، اللي هي عايزاها، مش اللي أنا عايزه.

تعجب "مصطفى" وتابع أسئلته:

-طب وإنت عايز إيه يا "شادي"؟

-عايز أكتب.

-يا ريت يا أخي، حتى عشان جمهورك ما ينسكش، أو يقول إن إنت وليد صدفه أو حاله.

-مش قادر يا "مصطفى"، إنت عارف كويس أنا كنت بكتب لمين.

-"نانسي"؟

قالها "مصطفى" ليسكت "شادي" فلقد كان يعرف رأي "مصطفى" مسبقًا، ولكن حالة "مصطفى" اليوم كانت مختلفة.

-إنت فعلاً يا "شادي" حبتها في يوم واحد؟

تعجب "شادي" من رد فعل "مصطفى" الناعم، واقترب من المائدة:

-أول مره ماتهزئنيش.

-عشان مصدقك.

-إشمعنى؟

-إصرارك، طب بقولك إيه ما تحكيلي عن اليوم ده.

ابتسم "شادي" وابتهج، وبدأ في حكايته:

-بجد؟

-آه والله، ده إنت حتى "Mother Lucker"

-أفندم!

-"مذر لاكر" يعني إبن محظوظه.

قالها "مصطفى" وظل يضحك قبل أن يحاول تمالك نفسه ويتكلم بجدية مصطنعة.

-لا والله بجد، بجد أنا عايز أسمع الحكايه منك.

-طيب بص يا سيدي، الحكايه بدأت يوم واحد واحد ألفين وتسعة.

-في "الأول من كانون التاني"؟

-أيوه وبرضه في بلاد الأندلس.

***

-أنا مش مصدقه إني طاوعتك.

قالتها "نانسي" من داخل القطار المتجه إلى "سانت آنا" ومنها إلى "غرناطة". كان القطار فاخرًا، يسير في هدوء مبالغ رغم سرعته،

وكانت "نانسي" منبهرة به، وإن كان فضولها لركوب هذا القطار من أسباب موافقتها، فهي تجربة مختلفة عن الطيران أو الإبحار. كان القطار مريحًا جدًّا، وكانت المقاعد تحتوي على وسائد للرأس حمراء اللون، وكان لكل أربعة مقاعد تواجه بعضها منضدة، تحتوي على مفاتيح كهرباء ومقابس للشحن، وكان من أمامهما ثنائي، زوج فرنسي وزوجة إسبانية، وظل "شادي" يتابع حديثهما رغم نظراته لـ"نانسي":

-وليه لأ؟

-مش ممكن تكون عايز تخطفني؟!

قالتها ضاحكة.

-يا ريت اقدر.

نظرت إلى قلبه، واقتربت سائلة:

-طيب لو كنت هاتخطفني، كنت هاتوديني فين؟

ابتسم "شادي" وأجاب شاردًا:

-الصراحه، "غرناطة" برضه.

-إشمعنى "غرناطة"؟

-السحر.

-سحر إيه؟

-سحر الحضاره، سحر الرقص، سحر الغناء، سحر الحب.

لامست يداها يده، قائلة:

-ده إنت خاطفني بجد!

-قولتلك يا ريت.

-إنت شاعر.

-لأ، أنا مترجم وبحكي حواديت.

-طيب احكيلي، الإتنين اللي قدامنا بيقولوا إيه؟

-مش فاهماهم؟

-لأ فاهماهم، بس أنا عايزه أسمع حكايتهم منك.

-طيب، بصي يا سيتي، هي أسبانيه، وأنا بحب الأسبانيات.

قالها ضاحكًا، لتضيف "نانسي":

-يبقى لازم تقابل ماما.

-إشمعنى؟

-أصلها أسبانيه.

عرف "شادي" لتوه سرًّا من أسرار انجذابه إليها، فلقد كانت فعلاً تملك سر جمال بنات قشتاله، فشرد في جمالها لحظات قبل أن يتابع قصته:

-الراجل بقى فرنساوي، وهما متجوزين وبيتكلموا أسباني

وفرنساوي وإنجليزي.

-وبعدين؟

-هي عايزه تعلم ولادها برتغالي كمان.

-ده إيه الافترى ده؟

-ما هو مش موافق طبعًا.

-عاقل.

-هو عايز يعلمهم ألماني.

ضحكت "نانسي" معلقة:

-رغم إني كنت فاهمه، بس إنت حقيقي ليك طريقه مختلفه.

-مختلفه؟!

-ليها سحر، سحر الشرق.

-شحات يعني؟

-حاجه زي كده.

ضحكا سويًّا، وشردا سويًّا، وتحابا سويًّا، وتمنيا أن يظلا سويًّا، ولكنهما جهلا أنهما سيظلان سويًّا فقط في الأول من كانون الثاني!

***

قاطعت "ياسمين" ذكريات "شادي" باتصالها الهاتفي، لتظهر عليه علامات الانزعاج، قبل أن يطلب منه "مصطفى" الرد.

-رد على مراتك يا "شادي".

-ما إنت مش دافع حاجه من جيبك.

-لا يا صاحبي، أنا حسابي مسدده من قبلك.

جاوب "شادي على الاتصال، لتبدأ "ياسمين" في الصراخ:

-إنت فين يا بني آدم من الصبح؟

-في إيه يا "ياسمين"؟

-في إن "يحيى" عيان وأنا رايحه آخده من عند بابا ومش راضيه أكلمك، باعتبار إنك راجل محترم وفي شغلك، ألاقيك مرحتش! أمال كنت فين من الصبح؟

-هافهمك بعدين، بس فهميني "يحيى" ماله؟

-إنت اللي قولي كنت فين من الصبح؟

-يا "ياسمين" طمنيني على الولد.

-مش قايلالك يا "شادي" إلا لما ترجع، أفهم كنت فين، وبعدين تبقى تعرف.

أغلق "شادي" الخط، وتوجه إلى "مصطفى" باعتذار:

-معلش يا "مصطفى"، "يحيى" تعبان لازم أمشي.

لمعت عينا "مصطفى" حزنًا عند سماع خبر مرض "يحيى"، ليس غيرة، بل محبة لا تخلو من بعض الألم.

-ألف سلامه، طب آجي معاك؟

-لا لا، أنا كويس.

قالها ووقف ليغادر، ولكنه كاد يسقط، فلم يقف من سكره.

-يا بني آدم، هاتعرف تسوق؟

-ماتخافش، ماتخافش.

تماسك "شادي" وذهب تاركًا "مصطفى" دون أن يسأله عن سر حزنه، فلم يكن "مصطفى" كثير الكلام مثل "شادي"، بل كان مستمعًا جيدًا، ولذلك كان يحتوي "شادي" بسهولة ويسر. انتظر "مصطفى"، حتى ابتعد "شادي" بقدر كافٍ ليعلق:

-حقيقي.. ست "حيزبون".

قالها علنًا، قبل أن ينظر يمنة ويسرة كالسارق، ثم أخرج الرواية من حقيبته، وقبل أن يبدأ القراءة، ظلت تراوده عن نفسه، تناوشه، تخدش حياءه، ظل ينظر إليها بحزم، حتى ابتسم لها أخيرًا، وهمَّ إليها ليفتحها، ولكنه لم يصب كأسًا واحدًا، بل تجرع منها مباشرة، ليزيد من سكره محبة، قبل أن يُتابع قراءة الرواية وأحداثها التي تمت في 2008.

***

"مبروك مبروك يا حياة قلبي مبروك، هالفرحه فرحتنا والفرحه

جمعتنا شو حلو دنيتنا مبروك مبروك".

غناها "رامي عياش" في فندق "سان ستيفانو" المطل على البحر المتوسط، ومن قاعة كلاسيكية الديكور، رُصت الموائد الزجاجية بيضاوية الشكل بطريقة دائرية حول "البيست" الأبيض الذي جمع أغلب شباب وفتيات الخِطبة، بينما ظل جزء قليل منهم في آخر القاعة، على مناضد مرتفعة، كان اللون الأحمر مفتاح الديكور، فقد زُينت به كل مائدة بزهور صناعية مستوردة، كما امتلأت الأسقف بزينة وإضاءات تناغم فيها الأحمر والأبيض والذهبي، خاصة مع الثريات الكريستال الفرنسية التي تتوسط الكرانيش المطرزة بشكل ثري، أما العروسان "نانسي" و"أنس"، فكانا يتوسطان الشباب من أصدقائهما، وكانا يتراقصان في سعادة وسط غيرة الجميع، فلقد أصر "أنس" على تحمل تكاليف الخطبة، كما لم يبخل بشيء على المناسبة، فقد وجه الدعوة لأكثر من ثلاثمائة شخص ليشاركوه هذه المناسبة الغنية، وهذا العشاء الفاخر الذي لم يخلُ من أشهى أنواع أسماك بحر الإسكندرية. كانت "نانسي" تراقص الجميع، بينما كان "أنس" يصفق وينتظر عودتها ليتمايل مع جسدها الرشيق. كان يرتدي رابطة عنق ذهبية اللون، متماشية مع فستانها الذي لم يصل إلى ركبتيها، وكان يحتوي على تطريز أحمر من جانبيه والصدر، وقد غضبت "نانسي" من "أنس" عندما ارتدى رابطة العنق تلك، بدلاً من الحمراء التي كانت قد اختارتها له، فلقد أقنعته الأم قبل الحفل بدقائق بوسطية اللون الذهبي.

دقائق من الرقص الشرقي قبل أن يعلو صوت موسيقى الفلامنجو التي تعشقها "نانسي" تأثرًا بوالدتها الإسبانية، لتبدأ في

طرق الأرض بقدميها، فكانت من أمهر راقصات الفلامنجو. حتى إنها كانت تدرس الرقص في مدرسة حديثة بـ "لوران"، ولم يستطع "أنس" مجاراتها في الرقص كالعادة لتظل تطرق الأرض غضبًا، أما أنا فكنت بجوار العروس، وإن كنت منزعجة من تأخر "عمر"، حتى قاطع حبل أفكاري "الدي جي" متحدثًا في المايك:

-أصحاب العروسه والعريس، يسقفولهم عشان "الفيرست دانس"، بصوت "خوليو إجلاسيوس".

توسطت "نانسي" و"أنس" المكان، ومن حولهما كنا متراصين، لتبدأ الرقصة وأظل أنا أرمق صديقة عمري وهي بين أحضان "أنس"، الذي كنت يومًا أتخيله فارسًا لأحلامي، تملكني شعوران متضادان، أولهما عتاب أو اتهام لصديقتي التي خطفت حلمي، والثاني عتاب لنفسي، التي حلمت بحلم صديقتي الوحيدة، وبين هذا وذاك، ظل "خوليو"يغرد؛ ذلك المغني الأسباني الذي يجهل الكثيرون أنه كان لاعب كرة قدم محترف قبل أن يُصاب في حادث جعله طريح الفراش ليُمسك جيتارًا للمرة الأولى ليُصبح من أشهر مغنيي العالم، ومثل المثابرة وقدرة الإنسان على التغيير، بينما كنتُ أتمنى أن أكون من ترتدي هذا الفستان، ولكني لم أكن أحسدها بل أغبطها، وأتمنى أن يحل يوم عرسي، وإن كنت لن أرتدي مثل هذا الفستان الجريء بأي حال من الأحوال! وبينما أنا أتمايل حالمة، ظهر "عمر" أخيرًا، ولكنه توجه إلى أصدقائه على المناضد المرتفعة، وظل يدخن سجائره، بينما أنا أراقب أنفاسه وهو يرتدي رابطة العنق التي أهديته إياها.

-تسقيفه كبيره للعروسين.

ودلوقتي مع كل "الكابلز" اللي في القاعه، يا ريت نشارك العروسين فرحتهم.

تهافتت كل فتاة مع حبيبها على "بيست" الرقص، وظللت أنا أنتظر "عمر" حتى بدأ "عمرو دياب" في الغناء، فلم أتمالك نفسي إلا وأنا أسحب "عمر" من وسط أصدقائه.

-إنتي فين؟ كنت بدور عليكي.

-بتدور عليا وسط الصيع دول؟

ضحك "عمر" وفاجأني:

-وحشتيني.

أعرف ضعفي، وها أنا أسلم نفسي لمخططاته، ليتراقص بي بجوار العروسين، لتغمز لي "نانسي" كما فعل "أنس" لـ"عمر". لحظات من السعادة قبل الألم، فلقد تفاجأنا بظهور حبيبة "عمر" السابقة، والتي لم تتلقَّ دعوة مباشرة من العروسين، ولكنها جاءت في صحبة أعز أصدقاء "عمر" و"أنس"، ليسقط قلب "عمر" وكبريائه مع تعريف الرجل لها للعروسين كخطيبة له.

لم أفهم، كيف تتلاعب امرأة هكذا بقلوب الرجال، فقط لكي تصل إلى قلب رجل مسكين، أو هذا ما تخيله عقلي حينذاك، عندما كنت أحكم قبل المداولة! خرج "عمر" من بين "أنس" وصديقهما بغضب وانفعال بعدما قتلها بنظراته التي لم تؤثر بها، بل زادت من متعتها، ثم نظرت إليَّ نظرة تحدٍّ وكره أرعبتني، فلم أجد مجالاً من الهروب خلف "عمر".

من خارج القاعة وجدت "عمر" وقد فك رابطة عنقه، ومر بجانب السلم الشرفي الكبير، الذي هبط منه العروسان، ثم اتجه إلى نافذة تطل على البحر وفتحها، وكنت أظنه سينتحر، قبل أن أعلم كم يحب هذا الرجل نفسه ويقدسها! تخلل من النافذة هواء المتوسط، ليملأ به رئتيه.

-مش قادر أصدق! أنا حاسس إني مجرد "حبر على ورق"، ولا حاجة!.

-يا "عمر" ما إنت عارفها، هي ممكن تعمل أي حاجه، دي ست مش سويه.

-دي بتذلني يا "ليلى" بتذلني وبتكسرني، ورايحه تتخطب لواحد صاحبنا، عايزه تخسرني كل حاجه.

-إوعى تقول كده.

ظل يرمق البحر، حتى أمسكت يديه ليلتفت لي:

-إنت تستحق أحسن منها بكتير، اعرف قيمة نفسك.

كنا بجوار السلم الشرفي، الذي زينته الورود والإضاءة، فلمس خدي بسحر المنظر وقال:

-أنا محتاجلك، محتاجلك أوي يا "ليلى".

-وأنا جنبك يا "عمر".

قلتها وأمسكت كف يده وقبلتها قبل أن أكمل كذبتي التي صدقتها.

-وأنا بحبك يا "عمر"، بحبك أوي.

*** ***

-ماينفعش حد يعرفك، ماينفعش حد يعرف الحقيقة.

-جمَّعهُملي كلهم، وأنا أواجههم بالحقيقة...

-امتي وازاي؟

-في حفلة توقيع الرواية، في "الأول من كانون الثاني" في مكتبة ألف "كفر عبده".

-اشمعنى "كفر عبده"؟

*** ***

(٨)

وصل "شادي" إلى شارع منزله في "كفر عبده" بصعوبة، فلم يزل تحت تأثير الكحول. كانت قيادته للسيارة كارثية، حتى أنه اصطدم بعمدان البرجولة الخشبية التي كانت تحمي سيارته من الشمس، لتتهاوى عروق البرجولة الخشبية على سقف سيارته الزجاجي، ليتهشم محدثًا صوتًا مدويًا أيقظ "ياسمين" التي كانت نائمة في غرفة ابنها، لتتوجه إلى النافذة بحرص بعدما ارتدت "روبها" الأحمر، لتشاهد "شادي" الذي كان يحاول الخروج من السيارة دون إحداث مزيد من الإزعاج. ظل "شادي" ينظر إلى نافذة غرفته، ليتأكد من عدم استيقاظ زوجته، حتى اطمأن

وحمد ربه، ثم نظر إلى كلبه "فلامنجو" الذي ظل يرقص محييًا صديقه، فتوجه إليه يراقصه، قبل أن يدرك ما يخشاه مع صوت غلق نافذة ابنه، ليحاول "شادي" تذكر كل ما يحفظه من آيات قرآنية، حتى تذكر سكره، فاتجه إلى صنبور مياه موصل بخرطوم طويل، كان ملفوفًا بضع لفات، فحاول "شادي" فتح المياه وهو ممسك بطرف الخرطوم، حتى اندفعت المياه في شريان الخرطوم لتصل إليه أخيرًا بقوة مبالغة، لتغرق وجه "شادي" ويفقد السيطرة على الخرطوم الذي استطاع التملص من يده والتراقص كأفعى الكوبرا مغرقة المكان يمينًا ويسارًا بسم المياه، ليقف "شادي" غارقًا عاجزًا عن التصرف، ويظل "فلامنجو" ينظر إليه في اندهاش، حتى امتدت يد "ياسمين" لتغلق الصنبور، ليجدها "شادي" غارقة في روبها الأحمر المفضل، ليتمنى أن تبتلعه الأرض قبل أن تبتلعه هي، فلقد كانت مختلفة تمامًا عن "نانسي" عندما أغرقتها المياه هي الأخرى.

***

وصل قطار "شادي" و"نانسي" إلى محطة "سانتا آنا"، ليستقلا آخر إلى "غرناطة". خرجت "نانسي" من عربة القطار وابتعدت بضع خطوات، لتكتشف أمطارًا غزيرة قد بدأت لتوها، لتغرقها حتى أخمص قدميها، خاصة وأنها تركت معطفها الأحمر مع "شادي" الذي تسمَّر مكانه في انتظار التوبيخ، قبل أن تبتسم هي، ليطمئن قلبه ويخطو خطوته الأولى خارج القطار، متجهًا إليها بمعطفها، بعدما غطى هو رأسه. ابتسمت له ولم ترتدِ المعطف، وظلت تتراقص أسفل الأمطار بحرية وسلاسة، محدثة ضربات للأرض بحذائها، كما علمتها أمها لرقصات الفولكلور الإسبانية. ظلت

ترقص، وظل قلبه يرتعش، تطرق الأرض بقدميها، موجعة قلبه الضعيف، حتى اخترقت نظرة ثاقبة منها روحه، ليخلع "شادي" كنزته ويتراقص معها في صمت، فلطالما حاول "شادي" الالتحاق بمدارس الرقص اللاتيني التي تغذي روحه الظمآى. ظلا يراقصان الأمطار، وظلت هي تداعبهما، لتغرقهما سعادة لامست الجميع، ليلتف عليهما كل الحضور في شكل دائري، أشبه بقلب سعيد، ليتناغم كل المحبين حولهما في سعادة ورقي، فلقد ولد حب خالد لتوه، ولد يتيمًا تحت سماء الأندلس، ولد في "الأول من كانون الثاني".

***

-يعني كمان راجع سكراااان!

قالتها "ياسمين" من صالون الفيلا وهي تنظر إلى "شادي" من خلف نظارتها الحمراء بشيء من العتاب، بينما كان "شادي" واقفًا كطفل صغير يتعرض للتوبيخ. كان صامتًا، يشعر بالخطيئة، مبتلاً يرتجف من ضعفه وبرودة قلبه. لم تشعر "ياسمين" بطفلها الأول أبدًا، بل كانت تجهل احتياجه إليها، ولقد رفضت هي احتواءه، فلم تسخر هذه القوة التي يحتاجها إلا لتهذيبه، ليصبح الرجل الذي في خيالها.

-معلش.

قالها في انكسار، كمن تلبس سارقًا أو زانيًا.

-معلش؟!

هو ده اللي قدرك عليه ربنا؟

لم يستطع تبرير موقفه. ظل صامتًا ينتظر أن ينفد الوقت، بل وظل شاردًا يتمنى أن لو كان يستطيع أن يسرع من حركة عقارب الساعة، كالتلميذ الذي يحلم بنهاية فترة الامتحانات، حتى لو رسب.

-إنت راجل محترم يا "شادي"، كبرت على تصرفاتك دي.

لم يتجاوب "شادي"، وظل يرمق رخام أرضية الصالون الإسباني بإعجاب شديد.

-"شادي" يا حبيبي.

قالتها وهي تقترب منه في مودة مصطنعة.

-إنت سنك مابقاش ينفع تعمل فيه الحاجات دي، دي كده مراهقه متأخره، إنت عمرك ما سكرت وإنت عيل عشان تسكر وإنت في سنك ده.

كانت تشعره بالعجز، وإن لم يصل إلى عقده الخامس بعد، حتى إنه كاد يراقب تلون بعض خصلات شعره إلى الأبيض تجاوبًا لحديثها المر، حتى أن عقله الباطن أرسل لباقي مفاصله الخمول، ليشيب "شادي" عجزًا أمام كلماتها.

-أنا آسف، "يحيى" ماله؟

تذكرت غضبها الأول، لتسترجع "ياسمين" نبرتها الأولى:

-فكرتني صحيح، إنت فين من الصبح؟

-أنا كنت..

-قبل ما تكدب، أنا عارفه إنك مارحتش الجاليري.

-ما أنا مارحتش فعلاً.

قالها بشجاعة لا مفر منها.

-يبقى رحت فين؟

كان جسده لا يزال يرتجف، ولكنها لم تكن تبالي.

-أنا رحت بيتي القديم.

لم تحرك هي جفنًا، ليتابع "شادي" مضطرًّا:

-أصلي كنت زهقان شويه.

-زهقان من إيه يا "شاااادي"؟ حرام عليك، ده الجاليري لسه مفتوح امبارح، إنت عايز تجنني؟!

شعر "شادي" بسكين تطعن بعض شرايين جسده، فلم يكن يستطيع الصمود. شعر بجرح في يسراه، كاد يتهاوى، ولكنه كان يخاف من أن تتهمه بالضعف، فآثر التحمل والسكوت.

-ما ترد عليا، ما تحرقش دمي.

-أنا فعلاً آسف، معلش حقك عليا.

-حقك عليا؟! وحق الواد الغلبان اللي مرمي فوق ده فين؟

كان قلب "شادي" يضعف مع كل كلمة سلبية تطعمه هي إياها، حتى ظهر من أعلى السلالم "يحيى" الذي ظهر وهو يرتجف من ألم الخلاف وليس المرض، فلقد ذعر من صوت أمه التي لم تهتم أبدًا إلا بحقوقها وإظهار صحة موقفها، حتى وإن جرحت ابنها، الذي لا تحب هي تدليله كثيرًا. لم يكترث "شادي" لكلمات زوجته، وسارع ناحية ابنه، وسط نظرات "ياسمين" التي لم تكن إلا ضحية لجراح رسمت شخصيتها، الشخصية التي أحبها بالفعل الجميع، فلقد كانت بالفعل ضحية بريئة، تكسب الجميع وتخسر واحدًا.

***

في استمتاع أنساه الوقت، ظل "مصطفى" يطوي الصفحة تلو الأخرى، بينما يستقبل "متولي" الزائرين ويودع آخرين، بينما هو غارق في كلمات "ليلى" التي كانت قد بدأت في علاقتها مع "عمر". لم يكن "مصطفى" يعلم أن السطور التي كانت تمتعه، ستفقد بهجتها عندما تكمل "ليلى" سردها للأحداث:

تطورت الأحداث سريعًا بعد خِطبة صديقتي الوحيدة "نانسي". كانت علاقتي بـ"عمر" لا تزال مهددة بتلك المرأة التي تفتقر إلى أي مشاعر، أو هذا ما كنت أعتقده حينذاك، فلم تيأس أبدًا، بل ظلت تباغتنا موقفًا تلو الآخر، فلقد أنهت علاقتها مع صديق "عمر" بعدما صارحته أنها قامت بذلك فقط لكسب قلب "عمر"، ولذلك ومع كل هجوم لها على علاقتي بـ"عمر"، كنت أقوم أنا بالدفاع وإغراق "عمر" بمشاعر الاحتواء والحب، حتى أن أمي كانت تتعجب من تصرفاتي ومواقفي في أول يوم من عام

2009.

***

من منزل والدي في "سموحة"، كانت أمي غاضبة لأبعد الحدود، بينما كنا في غرفة المعيشة المطلة على المطبخ المفتوح.

-يا "ليلى" هو لعب عيال؟!

قالتها أمي بغضب.

-ليه بس يا أمي يا حبيبتي؟

-إيه اللي ليه، ده جواز مش لعب عيال!.

-وهو مين اللي جاب سيرة لعب العيال بس؟

-يا "ليلى" أنا أقنعت أبوكي بإنك تاخدي فرصه تتعرفي بـ"عمر" بالعافيه، إنتي عارفه كويس هو رأيه فيه كان إيه.

كانت أمي بالفعل قد بذلت الكثير من الجهد من أجل إتمام هذا التعارف.

-وهو "عمر" ماله؟

-يا بنتي اللي مالوش خير في أهله مالوش خير في حد، وإنتي مش هاتكوني أهم عنده من أمه، وزي ما هجر أمه، بكره يهجرك.

-يا أمي هو إحنا هانعيده تاني؟

-أيوه يا "ليلى" هانعيده ونزيده كمان.

فكرت في الضغط عليها، باستغلال نقطة ضعف الأمهات.

-يا أمي ما "نانسي" اتخطبت بسرعه، وكمان هاتتجوز بسرعه، دي سافرت تجيب فستان فرحها من أسبانيا.

-"ليلى"، صاحبتك مختلفه عنك، وطريقة تربيتها كمان، وهي أوعى وأكبر منك، إنتي عارفه كويس إن "نانسي" مش سهله، دي "قرشانه".

ضحكت كثيرًا لتوصيف أمي، وإن كانت صائبة بعض الشيء.

-"قرشانه"! طيب يا سيتي عرفت إنها أزكى مني، وإنها "قرشانه"، أنا كل اللي عاوزاه خطوبه.

-وأهله يا "ليلى"؟

-"عمر" مواعدني إنه هايستغل الخطوبه إنه يصالح أهله، إنتي عارفه إنهم بيحبوني.

ضمتني أمي إليها، وقالت بحنان أفتقده اليوم بعد رحيلها:

-يا حبيبتي إنتي كل الناس بتحبك، إنتي نور عنيا، وأنا وأبوكي تعبنا أوي في تربيتك، وعايزه أطمن إن البني آدم اللي هاسيبك معاه هايحطك في عنيه وأنا مش موجوده.

لا أعرف كيف لم أفهم كلماتها حينذاك! لقد كنت صماء، بينما كانت كلماتها واضحة. أتمنى أن يعود الوقت لأركع لها حبًّا وعشقًا، فلم يبدلني الله خير منها ما حييت.

دمعت عينا "مصطفى" بعدما تأثر بما قرأه في الرواية، وظل

يتذكر والده هو الآخر، حتى انزعج النادل واقترب إليه قائلاً:

-في حاجه يا "مصطفى" بيه؟

ابتسم "مصطفى" باكيًا، وربت على كتف النادل.

-عطشان.

لم يفهم النادل المعنى وقال جاهلاً:

-أجيب لحضرتك ميه؟

ابتسم "مصطفى" وهو يشير بوجهه موافقًا، ليذهب النادل ويحدث "مصطفى" نفسه:

"عطشان رحمه ليك يا والدي".

تنهد "مصطفى" ومسح دمعه وأكمل في حزن قبل أن تتابع "ليلى" ضرباتها له.

كانت أمي خائفة من ارتباطي بـ"عمر". كانت تعتقده طامعًا في كسب مودة أهله، أو في الارتباط بفتاة تستطيع أن تساعده في الحياة دون مشقة، فلقد ابتاع لي أبي شقة في نفس العقار منذ فترة. لا أستطيع اختراق النفوس، لعلهم كانوا صائبين أو خاطئين، أو لعل "عمر" أحبني بالفعل، أو لعلي استطعت إقناعه بالفعل، ولعل الخطأ، كل الخطأ، خطأي، فلقد حاربت من أجل الحب، ليس لأجل "عمر" أو لعلي كنت غيورة من "نانسي" التي فضلها "أنس" عني، أو لعلي كنت أتمنى أن أرتدي فستان الزفاف ككل بنات سني حينذاك! بعد موافقة أمي، أسرعت بطلب "نانسي"

التي كانت ستصل في هذا اليوم، الأول من يناير 2009 على ما أتذكر، لتجيبني هي من إسبانيا:

-"لولي" وحشتيني يا كلبه.

-أنا اللي كلبه برضه، وإنتي سايباني وبتتفسحي في أسبانيا؟

-بتفسح إيه إنتي رخرى؟.... ما تحاسب يا بني آدم.. إنت أعمى؟

قالتها "نانسي" لي لأتعجب مما يحدث!

-في إيه يا "نانسي"؟

-معلش هاكلمك تاني يا "ليلى" أنا في المطار خلاص.

قالتها وأنهت المكالمة، وكنت أظنني لن أتطرق لما حدث، ولكني سأدونه، فلقد عرفت منها أهمية ما حدث لاحقًا.

فمن داخل مطار "مدريد" الدولي اصطدمت "نانسي" بشاب وسيم، عريض الجسم، ناعم الشعر كالأمراء -حسب وصفها-اصطدم بها بقوة دون قصد لتسقط حقيبة يدها التي كانت مخصصة لأدوات التجميل التي كانت قد ابتاعتها من هناك، لتسقط أرضًا وتنكسر، فلقد كانت معدنية الهيكل كالصندوق.

-ما تحاسب يا بني آدم... إنت أعمى؟!

انزعج الشاب، محاولاً الاعتذار:

-أنا آسف يا فندم والله.

-معلش هاكلمك تاني يا "ليلى" أنا في المطار خلاص.

قالتها وأنهت اتصالها بي، ولعلها تكون هي المخطئة، فأنا أعلم كيف تتصرف بغوغائية أحيانًا.

-والله يا فندم حضرتك... حضرتك كان معاكي تليفون و..

-كمان هاطلعني غلطانه؟

قالتها وانحنت، لتحاول تجميع كل ما وقع منها، لينحني هو الآخر في تأسف:

-والله مقصدش يا فندم.

لاحظت "نانسي" أن الشاب قد وقع منه هاتفه الخلوي هو الآخر وأنه قد تحطم، فشعرت بالذنب، ولكنها تابعت هجومها حتى لا يدعي أنها المخطئة:

-خلاص خلاص حصل خير.

نظـر الشـاب إلـى الـهاتف المحطـم وانزعـج، ولكنـه توجـه إلـى مساعدتها فيما سقط منها وهو ينظـر إليـها بـارتباك، لتشعر هي بحسـن خلقـه وثرائـه نـوعًا مـا، ولكنـه ظـل يرمقـها كمن يعرفـها بالفعل.

-والله بجد مقصدتش، أنا بس بتوتر من الطيران شويه.

ابتسمت "نانسي" ولم تسترسل في الحديث، واهتمت بحقيبتها المتكسرة، ولكنها كانت تعلم أن هذه الحقيبة الصغيرة ستكون تحت أنظارها على متن الطائرة فهدأت. وعندما انتهت من تجميع المحتويات وقفت واستأذنت منه، واتجهت إلى الصف بحقائبها

الثلاث، بخلاف المتكسرة، ومن خلفها كان ذلك الشاب بحقيبة واحدة كبيرة وأخرى صغيرة الحجم.

دقائق حتى وصلت "نانسي" إلى الشباك، لتزن الحقائب، لتنفعل مرة أخرى:

-يعني أدفع 100 يورو زياده عشان شنطه؟!

ابتسم الموظف وبدأ في هجومه في برود:

-حضرتك هاتدفعي هاتدفعي، مفيش استثناءات.

-لأ مش هادفع، دي سرقه.

توجه موظف آخر ليقف في صف زميله، ليزداد إحراج "نانسي" أكثر.

-يا فندم دي القوانين الجديده، وبتطبق بقالها كتير.

-عمرها ما كانت بتطبق علينا كمصريين.

-لأ يا فندم، مش معنى إن في موظف جامل حضرتك قبل كده إن ده يكون تعميم، متأسف جدًّا، حضرتك ده وصل تدفعي بيه، وياريت تفضي مكان لباقي الركاب.

كانت "نانسي" في منتهى الإحراج، وكان جميع الركاب ينظرون إليها، لتوجه حديثها إليهم بالإسبانية، أن يصرفوا عيونهم البغيضة عنها. وبينما هي ثائرة، كان موظف ثالث يستعجل هذا الشاب الذي اصطدم بها، ليتحرك إلى شباك خالٍ، ولكنه رفض، ثم توجه إلى المشرف بالحديث:

-في إيه؟ أنا مش فاهم.

تعجب الموظف، وتوجه إليه سائلاً:

-تحت أمرك يا فندم.

-أنا اللي بسأل حضرتك في إيه؟

-الآنسه عايزه تعدي بشنطه زياده، وده ضد القوانين.

-وهو حضرتك شايف إن دي طريقه كويسه تكلم بيها الآنسه؟

-والله أنا ماتعديتش حدودي، وحضرتك مش طرف أصلاً.

قاطعه الشاب بحسم:

-لأ طرف، حضرتك موظف بتأدي خدمه مشكورًا، تأديها بمنتهى الاحترام، وإحنا هنا الركاب، يعني الزباين اللي بتشغل الشركه، والمفروض تتكلم بطريقه أحسن من كده.

-لا يا فندم.

قالها الرجل مقاطعًا ليتابع الشاب هجومه باحترافية عالية:

-ماتقاطعنيش، أنا ممكن أعلي صوتي.

سكت الرجل وتابع الشاب، مع نظرات "نانسي" بالإعجاب:

-حضرتك المفروض تساعدنا وتخدمنا، وأنا شايف إن الطياره فاضيه، والركاب مش كتير عشان تتمسك بقانون ممكن تتجاوزه.

ابتسم الموظف ابتسامة نصر وقال ببرود:

-أنا آسف جدًّا، أنا ماليش صلاحيه أدي استثناءات، ولو سمحت سيبني أشوف شغلي عشان مدخلش الأمن.

ابتسم الشاب هو الآخر، وقال بقوة:

-لأ يا ريت تندههم، والأول يا ريت تنده المشرف بتاعك.

في تعجب اتجه الموظف بالتحدث هاتفيًّا، بينما انسحب زميله ليتركه وحيدًا، حتى جاءت موظفة مرموقة، وهي المشرفة العامة على الرحلة، وكان جميع الركاب ورجال الأمن قد اجتمعوا حول المسرح للمشاهدة.

-تحت أمرك يا فندم، أنا المشرفه العامه على الرحله.

-أنا "شادي هشام"، مدير شركة "ريني" للترجمة.

ارتجف "مصطفى" عندما قرأ اسم صديقه، ليتصبب عرقًا، ويتجه إلى زجاجة المياه، ليسكب كوبًا ويشرب وهو يغرق ملابسه، وسط اندهاش الحضور!

-يا "مصطفى" بيه، حضرتك تعبان؟

انفعل "مصطفى" على غير عادته وهاجم النادل:

-وإنت مالك يا أخي؟ إمشي غور من قدامي.

علا صوت "مصطفى"، لتهتز أركان "سانتا لوتشيا"، قبل أن يكمل قراءة ما حدث في الأندلس في الأول من كانون الثاني.

- أنا "شادي هشام"، مدير شركة "ريني" للترجمة.

-تشرفنا يا فندم.. خير؟

-دلوقتي أنا والآنسه مسافرين مع بعض ومعانا أربع شنط، في مشكله؟

نظرت الموظفة إلى كليهما، وكانت "نانسي" فهمت ما يرمي إليه الشاب الذي اكتشفت للتو أن اسمه "شادي"، لتقترب منه مؤيدة فعله، ليس هروبًا من المائة يورو، ولكن لحفظ ماء وجهها.

-لأ مفيش مشكله، لو حضراتكم اتنين وكل واحد معاه شنطتين، خلاص.

سكتت، ثم أكدت مرة أخرى:

-بس حضرتك دي مسؤوليه، لو كنت ماتعرفش الآنسه..

قاطعتها "نانسي" بحسم:

-لأ، يعرفني وأنا كمان أعرفه كفايه.

ابتسمت المشرفة، فهي امرأة، ويا جمال كل امرأة تستطيع فهم النفوس، تستطيع معرفة الخطر والحب!

-أنا بعتذر بالنيابه عن أي موظف أساء لحضراتكم، وأتمنى إنكم تستمتعوا برحلتكم على طيرانا.

-أكيد يا فندم، هو فعلاً طيرانا.

قالها "شادي" وتوجه بنظراته إلى "نانسي" التي كانت ترمق

الموظف بنظرة انتصار، ليشعر بمدى ضآلته. وبعدما قتلته بنظراتها ابتعدت هي و"شادي" لتقترب عائلة مصرية أخرى، من نفس الموظف، وكان رب الأسرة يحمل هم حقائبه الزائدة، فتودد إلى الرجل:

-معلش أنا آسف، أنا شايف إن حضرتك متعصب، بس هو أنا خايف يكون معايا وزن زياده.

نظر الموظف إلى "شادي" و"نانسي" من بعيد وابتسم، فلم يكونا هما السبب لتعكر مزاجه، وبالتأكيد لم يكن لرب هذه الأسرة هو الآخر يد في ذلك، فابتسم له وقال:

-حتى لو زياده، الطياره مش مليانه، لو مشلتكش الأرض نشيلك احنا، ده طيران بلدك.

دمعت عينا الرجل حبًّا لوطنه، كما فعلت أنا وأنا أكتب هذا المشهد الأخير الذي أظنه من وحي خيالي، أو خيال "نانسي" أو لعله ما حدث. وبصرف النظر عن هذه التفاصيل، فلقد جهلت أن "شادي" سيكون وسيظل حب عمرها الوحيد الذي تفتقده كل يوم عامة، وفي الأول من يناير خاصة، وبالرغم من الجنون الذي تصرف به هذا الـ "شادي"، فلا يجوز أبدًا لمسافر أن يخاطر أبدًا بمثل هذه المسؤولية، إلا أنها كانت في هذا اليوم "حلوة في ساعتها".

أنهى "مصطفى" قراءته لهذا المشهد ثم أغلق الرواية الجلدية وتوجه إلى المرحاض، وأغرق وجهه بالمياه، وظل ينظر إلى المرآة، ثم أخذ يبحث عن هاتفه، حتى أخرجه من جيبه. وبعد لحظات من التوتر اتصل بـ"شادي" الذي كان نائمًا يرتجف بجوار

ابنه المريض.

-"شادي".

-فيك الخير يا درش.

-مال صوتك؟

-بموت.

-خير في إيه؟

-ماتتخضش، بس عيان أوي.

-هو مش "يحيى" اللي كان عيان؟

-أيوه هو كمان عيان.

قالها "شادي" وهو ينظر إلى ابنه والكمادات موضوعة على رأسه.

-طيب بقولك إيه، أنا جايلك.

-جايلي؟

قالها "شادي" وهو ينظر إلى ساعته التي تعدت منتصف الليل في اندهاش، ولكنه كان بالفعل في حاجة إلى صديقه.

-تنور يا حبيبي، بس أنا مش عايز أتعبك.

-لا لا خالص، بقولك إيه، إنت ماتعرفش مين اللي كتب الروايه؟

-رواية إيه؟

قالها وهو لا يزال ينظر إلى المرآة، ثم تابع:

-إيه اللي رواية إيه؟ الروايه الجلد اللي لقيتها عندك يا بني آدم، عمومًا أنا جايلك علطول.

أنهى "مصطفى" الاتصال واتجه إلى مائدته في صمت، ثم طلب الحساب، ليجهزه النادل الذي كان قد وبخه "مصطفى" منذ قليل، ليتجه إليه في تأسف ويربت على كتفه قائلاً:

-سامحني يا صاحبي، أنا آسف.

ليخرج "مصطفى" ويتجه إلى "شادي" في منزله بـ "كفر عبده".

*** ***

-أنا كلمت المكتبة ووافقوا، والحفلة اتحددت، يوم واحد يناير 2018، بس أنا عندي سؤال أخير.

-خير؟

-هو أنا بالنسبالك زيهم؟

*** ***

الفصل الرابع

اتبعت وأبي التعليمات وتركنا أمي وأختي ليواجها الجنود و دخلنا ومعنا الجميع إلى تلك الكنيسة التي بنيت فوق أنقاض شرفة مسجد "غرناطة"، والمدفون فيها الملكان الكاثوليكيان "إيزابيلا" و"فرناندو". كان أبي صامدًا، ولكني لاحظت توتره، حال الجميع، فلقد كان المكان موحشًا ويخلو من الكهنة أو القساوسة. كانت رائحة الخوف تنبعث من الجميع، الكبار والصغار. ألف فكرة وفكرة اقتحمت عقولنا، فهل سنحرق، أم سنعدم جميعًا؟! أُغلقت أبواب الكنيسة من الخارج بالمتاريس. وكنا نسمع خطوات جنود قشتاله وهم يتجولون في الخارج، حتى أننا سمعنا صوت طلقات الذخيرة، لعلهم من تخلفوا عنا، أو تمردوا، فكلنا نعرف الغضب الذي ملأ صدر "فيليب الثاني" منذ اندلاع ثورة البشرات الثانية، فلقد اعترض بعض أهلنا على منع اللغة العربية، وحرق كتبنا، وهدم الحمامات العامة؛ لتفوح منا رائحة العفن لنشبههم جميعًا. ثاروا من ظلم محاكم التحقيق الباطشة، ثاروا وحملوا السلاح، وألحقوا الهزائم بالكثير من جنود "الملك فيليب" وقد اتخذوا من جبل البشرات مأوى لهم، ليرسل لهم السلطان العثماني السلاح والمؤن، فلقد ظنناه قادمًا لا محالة، قادمًا ليخلصنا من العذاب، ولكنه تأخر!

كان المكان ضيقًا، حتى إننا لم نستطع الجلوس، فلقد كنا كالمحشورين، لا نجد متسعًا. كنا نعطي المساحة لبعض الكبار ليجلسوا ويحملونا ثم يتبادلوا بآخرين، رغم كل هذه الظروف، إلا أنها كانت المرة الأولى لي لأسمع الجميع يرددون آيات قرآنية

كنت أجهل بوجودها! آيات مريحة، يحبها العربي والأعجمي، فيها سحر وشوق، اشترك الجميع في الترتيل، لم أكن حافظًا، حال الكثير، ولكن كبارنا ظلوا يرددون آيات الخالق متوسلين، أو لعلهم شعروا بالموت المحتوم، فجاهروا جميعًا بما كانوا يخفون!

وفي وسط هذا الوقت المشحون، وجدت هذا الرجل المظلوم، في أوائل الصف يشير للصليب، مستنجدًا به من هذا الذل الرهيب، يرتل آيات العهد الجديد، فلقد كان فينا منهم الكثير، فلقد كنا واحدًا قبل أن يفرقوا بيننا! ساعات من الترتيل امتزج فيها الألم بالأمل والذكر، مع تلك الآيات التي كانت تخرج من قلوب سيطر عليها الخوف الذي بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا استسلامًا لقضاء الرحمن، حتى اقترب مني والدي والعرق يتصبب من جبينه:

-لقد كبرت وصرت رجلاً.

-نعم يا أبتِ.

-تعلمت من أمك سر الفلاحة، وصرت مزارعًا باهرًا.

-نعم أبتاه.

-اليوم سوف تعرف سر أبيك، فهل أنت قادر على حمل الرسالة؟

-الرسالة؟!

أخرج أبي من طي ملابسه رسائل ورقية، يبدو أنه كان صانعها بنفسه. أمسكت بالرسائل لأفهم من كان الذي يرسل إلى الخليفة العثماني. لقد كنت من النسل الصالح، ساعات تعلمت فيها الكثير، وكنت أظن أن هذا كل شيء قبل أن يكتب بعض السطور

الأخيرة، ليبتسم ويشرد ذهنه فيما كتب من حروف على ما صنعه من ورق، ليتغير حاله ويبتسم، بل كان يضحك ساخرًا، فابتسمت وضحكت، ونسيت همنا، حتى لاحظ الجميع ضحكاتنا، فسكت ونظر إلى داخلي وقال:

-حان الوقت لتعلم السر.

ليقص عليَّ والدي حقيقة السر، السر الذي به أعيش الآن، وقصصته على ابني في مرضه، ليته يكون قدأدركه!

***

(٩)

سمعت "ياسمين" صوت نباح كلبهم "فلامنجو"، فأمسكت بهاتفها الخلوي لتتفقد التوقيت الذي كان تعدى الثانية صباحًا، فتوترت وتركت سريرها، فسمعت صوت فتح باب الغرفة المجاورة، فارتدت "روبها" وخرجت من الغرفة في توتر، حتى وجدت "شادي" الذي خرج قبلها من غرفة ابنهما ونزل ليستقبل القادم بعد منتصف الليل، فنزلت بضعة سلالم، حتى وجدت "شادي" يستقبل "مصطفى" استقبالاً حارًا، فقتلته بنظراتها الغاضبة، فاستقبل "شادي" هجومها بإشارة بريئة لاحظها "مصطفى" الذي أحرج وقال:

-معلش أنا آسف، أصلي بس كنت...كنت...كنت جاي أطمن عليك.

لاحظ "شادي" كذب صديقه، فرفع عنه الحرج وطلب منه الدخول، بينما كان "مصطفى" لم يزل محرجًا من "ياسمين".

-يا "مصطفى" ماتدخل يا بابا في إيه؟

-حاضر حاضر.

دخلا سويًّا وجلسا في الصالون الفرنسي الذي لم يكن "شادي" يحبه، بعكس "مصطفى" الذي كان ينبهر بالديكور كلما زار صديقه، خاصة تلك المدفأة العالية المصنوعة من الخشب المدهون "بالدوكو الأبيض"، يعتليه رخام أحمر فرنسي، يحمل تمثالاً نحاسيًّا غنيًّا، توقف عنده "مصطفى" قائلاً:

-تصدق يا "شادي"، إنت مراتك دي خساره فيك.

ضحك "شادي" وعلق ساخرًا:

-إنت لسه سكران ولَّا إيه؟ عمومًا اتفضلها ماتغلاش عليك، تحب ألفهالك؟

ابتسم "مصطفى" وتابع:

-أصل ماينفعش حد يبقى عايش في الديكور ده وعاوز يغيره.

-بقولك إيه ماتغيرش الموضوع، في إيه قلقتني؟

-مش إنت اللي عيان؟

-هانستهبل ولَّا نستعبط؟

أحرج "مصطفى" وجلس على الكرسي المجاور للمدفأة، فجلس أمامه "شادي"، فأخرج "مصطفى" من جيب كنزته الرواية الجلدية، فنظر إليه "شادي" في اندهاش:

-لحقت تخلصها؟!

-لأ لسه.

حاول "مصطفى" أن يلاحظ تعابير وجه صديقه، لعله يكتشف خدعة ما.

-طيب خليني أرجعها لصاحبها بقى.

-طيب لما أخلصها، أصلها شيقه جدًّا.

وقف "شادي" بعدم اكتراث، واتجه للمطبخ.

-تشرب إيه طيب؟

أمسك "مصطفى" يد صديقه بحزم وأشار له ليجلس، فانزعج "شادي".

-في إيه يا "مصطفى"؟

-إحكيلي.

-أحكيلك إيه يابني؟ أجيبلك حاجه تفوقك الأول.

-أنا فايق.

قالها "مصطفى" بعنف.

-"مصطفى" ماتقلقنيش عليك.

-طيب احكيلي.

-أحكيلك إيه؟

-بقيت القصه.

لم يتوقع "شادي" السؤال.

-تقصد قصة إيه؟

-قصتك إنت والبنت اللي حبيتها في أسبانيا.

توتر "شادي" ووقف، وجر الكرسي ليقترب من "مصطفى".

-يا بني إنت عايزني أتطلق ولّا إيه؟

في صبيانية معهودة تغير وجه "مصطفى" إلى طفل صغير وقال:

-خلاص خلاص، إحكيلي بصوت واطي.

ابتسم "شادي" واقترب من "مصطفى" باستمتاع.

-حاضر هحكيلك، بس بصوت واطي"

***

وقف القطار في محطته الأخيرة في "غرناطة"، ليخرج المتحابان سويًّا، لتلامس قدماهما آخر مدن العرب في الأندلس. كانت غرناطة مزدانة، فظنت "نانسي" أن هذه هي احتفالات أعياد الميلاد المجيد، فلقد كانا هناك في اليوم الأول من يناير، ولكن "شادي" كان يعلم جيدًا أن الاحتفال يخص شيئًا آخر.

-هاتوديني فين؟

-قصر الحمراء.

-والله حاجه تكسف، أنا المفروض ماما أسبانيه، يعني أنا اللي أوريك معالم أسبانيا، مش إنت.

-بالعكس، مامتك مش هاتعرف تحكيلك اللي أنا هاحكيهولك، أصل الأسبان ما درسوش حوالي تمنميت سنه من تاريخهم.

-مش فاهمه!

-مش مهم، تعالي.

كان الظلام قد بدأ يحل ببلاد الأندلس، بينما ظلت "نانسي" تستمتع بشرح فارسها للتاريخ الإسباني، حتى وصلا قصر الحمراء، ولكن حشدًا ضخمًا من الإسبان اعترضهما. كان كالمهرجان، ولكنه احتوى على طقوس غريبة، فلقد كانوا يرتدون زيًّا مخيفًا، عباءات بيضاء، وطواقي على رؤوسهم على شكل مخروط طويل، وما يزيدهم بشاعة هو قناع الوجه الذي يخفي وجوههم، كما حمل بعضهم السيوف، وظلوا يرتلون تراتيل غريبة، والبعض الآخر يدق على الطبول، كما كان منهم من يطرق على أبواب المنازل، محدثين رهبة للجميع! بينما كان الجمهور يصفق. خافت "نانسي" فضمها "شادي" رغمًا عنه، ليشعرا بدفء عناقهما، فهدأت، وقال:

-ماتخافيش ده احتفال.

-احتفال ازاي؟

-ده تجسيد لمحاكم التحقيق، أو التفتيش عني.

-مش فاهمه!

-زمان كانوا الكهنه بينزلوا في موكب زي ده عشان يفتشوا البيوت ويا خدوا المسلمين للمحاكم تحت الأرض.

-وبعدين؟

-ولا قبلين.. بقولك إيه، تعالي نكمل مشي.

-طيب فهمني الأول إيه علاقة الكلام ده براس السنه؟

-مالوش علاقه يا "نانسي"، والزينه دي مش عشان راس السنه أصلاً.

قالها "شادي" بتوتر، فابتعدت عنه، ثم ابتسمت عندما رأت بازارًا سياحيًّا، فدخلت ومن بعدها "شادي" الذي نسي أنه قد تعرف عليها للتو.

كان البازار مليئًا بكل ما يتعلق بإسبانيا، كل شيء يتخيله الإنسان. كان السقف مرتفعًا، وكان هناك سلم قديم يشير لدور علوي علقت منه الزينة. تركت "نانسي" كل شيء حتى وجدت مجموعة من الأقلام، اختارت أحدها، وكان يحمل اللون الأحمر، كما وجدت كراسًا مطرزًا بمعالم إسبانيا، ثم ابتسمت لـ"شادي" وقالت:

-أنا بوفي بوعودي، ياريت إنت كمان توفي بوعودك.

-وعود إيه؟

-تكتبلي حكايه.

-ولو كتبت، تستني معايا؟

اقتربت منه في انجذاب كانت تجهل سببه!

-أستنى ازاي؟

-نستنى هنا علطول.

-أنا لسه معرفكش.

-هاتعرفيني.

-إنتَ لسه ماتعرفنيش.

-هاعرفك.

-بس إنت لسه محبتنيش.

-لأ، حبيتك.

سكتا عن الكلام، حبسا الأنفاس، فلقد كانا يتنفسان عشقًا من خلال شفتيهما المتلامستين، ليصل كل منهما إلى نفس الآخر. لحظات ودقائق وزوار الأندلس يلتفون حول العاشقين، ليمسك كل من له حبيب بيد حبيبه. لحظات عشق صادقة، لا يعيشها الكثيرون، فهما كانا من الأوفر حظًّا على وجه هذا العالم الذي يجهل عما يبحث، ولكن الإجابة كانت بين شفتيهما، حتى أن صاحب البازار ظل يبحث عن زوجته في الدور العلوي وضمها ويدها ملطخة بألوان كانت تزين بها بعض التماثيل، فضمها وقبلها

وهي تضحك، لتلامس نظراتها نظرات العاشقة بالأسفل، مشيرة إليها أن حساب ما ابتاعته قد وصل سلفًا، فلقد كانت "نانسي" اختارت تمثال راقصة "الفلامنجو" ذات الفستان الأحمر تذكارًا لها، كما فعل "شادي" خلافًا عن القلم، إلا أن صاحبي البازار لم يرغبا في محاسبتهما، فلقد دفع عشقهما المزيد، وأن لهما بالفعل رصيدًا، منذ أن تحاب أجدادهما هنا، فلقد تحابوا منذ عصر مديد في بلادالأندلس.

-موافقه.

-موافقه؟

-أيوه إكتبلي حكايه، رواية لو صدقتها هاستنى معاك.

قالتها لتتركه يكتب عشقًا، ليختار "شادي" بقعة سحرية ليكتب فيها، وكانت هذه البقعة من أمام مسجد "غرناطة" الجديد الذي تم بناؤه في الألفية الثالثة، وبعد أكثر من خمسة قرون من منع الإسبان للإسلام في الأندلس، لينادي المؤذن للصلاة في قلب غرناطة، وسط اندهاش بعض السياح واحترام آخرين، بينما كان "شادي" يحاول أن يتابع كتابة ما وعد به "نانسي". ظل يكتب وسحر صوت الأذان يتناغم مع جرس الكنيسة، وتحت تأثير هذا السحر كتب عن بلاد الأندلس وسحرها، كتب عن غرناطة وقهرها.

***

-يعني هي كانت سبب الروايه؟

قالها "مصطفى" لصديقه "شادي" بعدما قص عليه الأخير حكايته

في "الأول من كانون الثاني".

-أيوه هي كانت سر الحكايه، ولولاها مكنتش كتبت أصلاً الروايه.

-بس الأديب لا ينضب.

-ومين قالك إني أديب؟

-روايتك.

-"الأول من كانون الثاني"؟

-أيوه يا "شادي".

اعترض "شادي" الذي خسر ثقته في نفسه، بعدما فقد قلبه، فلم يكن يكتب أبدًا بعقله.

-دي مكنتش أكتر من شحنات فرغتها في حكايه، ولما رجعت من أسبانيا نقحتها وكملتها.

-مستحيل دي تكون صدفه.

-بالعكس، دي كانت أجمل صدفه.

-ما تيأسش يا "شادي"، أنا جنبك.

ضحك "شادي" ساخرًا وسط اندهاش "مصطفى".

-بتضحك ليه يا بني آدم؟!

-عشان إنت شبهي أوي يا درش.

صمت برهة ثم تابع:

-عايزني أكتب؟ طيب ما إنت كمان بتكتب، مستني إيه، عايز موافقة دار نشر؟ ماتخافش هاكلمهملك.

-إنت بتتمسخر عليا يا "شادي"؟

-العفو يا صاحبي، أنا وإنت واحد، ماتزعلش مني.

-وأزعل ليه ما أنا وإنت واحد فعلاً.

-طيب اضحك يا أخي.

ابتسم "مصطفى" رغمًا عنه وهو يتذكر الرواية الجلدية التي في يده فتابع:

-طيب إنت عمرك ما شفت "نانسي" دي تاني؟

-لأ!.

-واللي يلاقيهالك؟

قالها "مصطفى" بابتسامة أمل، ليركع "شادي" أمامه مقتربًا إليه:

-إنت بتقول إيه؟!

-باباااا.

قاطع حديثهما "يحيى" الذي نزل السلم وهو يرتعش، ليهرع إليه "شادي".

-إيه اللي نزلك يا "يحيى"؟

-خفت يا بابا.

-طيب تعالى يا حبيبي، أنا هاطلع معاك، عن إذنك يا درش، هانيمه وأنزلك.

-إتفضل يا حبيبي، بس مش قبل ما آخد بوسه كبيرره جدًّا.

قالها "مصطفى" واقترب من "يحيى" وانحنى على ركبته اليمنى، ثم أخرج من جيبه مجموعة من الحلوى ووضع يده أمام "يحيى" الذي اقترب بسعادة، ليغلق "مصطفى" يديه قائلاً:

-فين بوستي الأول؟

اقترب "يحيى" من "مصطفى" في خجل وقبل خد "مصطفى"، ليفتح الأخير يده ويأخذ الحلوى ويصعد قبل أبيه.

-ميرسي، ميرسي بابا.

ابتسم "شادي" وشكر صديقه قائلاً بصوت منخفض:

-هانيمه وأنزلك.

صعد "شادي"، بينما ظل "مصطفى" على حاله يبتسم لـ"يحيى" وهو يتذكر حديث طبيبه الذي أكد له عجزه، فشعر أن ما كان سيقوله لـ"شادي" هو ظلم لـ"يحيى"، فوقف وأمسك الرواية الجلدية، واتجه إلى الباب وخرج في صمت.

*** ***

كان الصندوق الخشبي، هو الشيء الوحيد الذي أخذته معها إلى

المعرض مرة أخرى؛ ليظل ساكنًا أمام تلك المرآة، ليُحاصرها هناك، و(هي) جليسة تلك المرآة التي اكتشفتها في تلك الغرفة الخشبية القديمة، لتستسلم أخيرًا وتبدأ في تدوين كل ما حدث، لتستدرج لها الرواية المزيد والمزيد من الأحداث؛ من داخل أعماق المرآة، لتظل (هي) أسيرة تدوّن في اندهاش.

*** ***

(١٠)

لم أستطع مواجهة "شادي" بما قرأت، فمن أنا لأهدم أسرة، من أنا لأظلم طفلاً جميلاً كـ"يحيى"؟! أنا مجرد رجل بلا سلالة، لا مستقبل لي ولا ماضي، أما "شادي" فله الكثير والكثير. هل جننت، هل أصدق سطور رواية جلدية قديمة؟! هل هي بالفعل قصة مستوحاة من أحداث حقيقية، أم أني واهم؟ هل "نانسي" المذكورة في الرواية هي حبيبة "شادي" الضائعة؟ هل هي موجودة بالفعل، أم مجرد "حبر على ورق"، وخيال مؤلف صادف في روايته أحداثًا عاشها صديقي الوحيد؟ هل كان حبًّا من طرف واحد، أم كان حب عمر "نانسي" كما ادعت "ليلى" في كتابها، وإن كانت صادقة، فهل هذا يعني وجود "ليلى" بالفعل؟ وأنها كاتبة تلك الرواية، وإن كان، فهل ما أشعر به صدق، أم أني مسحور بسطور الرواية الجلدية؟! غدًا سأبحث عنها، غدًا سأتأكد، أما اليوم فسوف أكمل قراءتي لهذه القصة الغريبة التي بين طياتها صفحات مكتوبة بطلاسم غريبة بحروف عربية وكأنها شفرة ما!

-شاااادي... شاااادي.

قالها ببغائي الزنجباري، لأتوجه بحديثي إليه كالمجنون:

-عايز "شادي" ليه، أنا وحشه ولّا إيه؟

-"ليلاا".

-هو أنا كنت بقرا بصوت عالي معلش، حقك عليا.

أخرج "مصطفى" من درج مكتبه فستقًا ووضعه في كفه، ليطير الببغاء ويقف على يد "مصطفى" ويبدأ في أكل الفستق في استمتاع، ليبتسم "مصطفى" وهو ينظر إلى الباب ليتأكد من عدم وجود زوجته، ثم يهمس في أذن ببغائه بصوت منخفض:

-فكرك "ليلى" موجوده؟

-"ليلاا"

-اسكت الله يفضحك الحيزبون تصحى.

-"حيزبوووووون".

***

كان "الأول من كانون الثاني" هو اليوم الأخير، فلقد كان السقوط المرير، لم يكن هنالك من ينظر لآخر، كانت العيون تهرب من بعضها، فلقد كان المفقود عزيزًا، كانت شوارع غرناطة لا تعكس ألوانها البهية، كانت الألسن صامتة، كانت البطون صائمة، فلقد كان اليوم الأخير، مئات الألوف من الأنفس باتت عاجزة عن التنفس، أكثر شعوب الخالق تحضرًا ورحمة، باتوا في بيوتهم في" الأول من كانون الثاني" يسبحون، باتوا يتحسرون على كل

من حكمهم ويحتسبون، فويل لمن ترك بلادهم تهون، فإنهم لعرشهم بائعون

ليذهب "الأول من كانون الثاني"، ويأتي اليوم الذي يليه، ليخرج الملك الصغير ومن معه من باب طلب أن يغلق بعدها أبدًا، لينفذ طلبه ويبنى محله حائط كبير ليكون الملك الصغير آخر الخارجين، ولا يجوزه من بعده إنسان، خرج ومعه حاشيته وأمه "الحرة" صامتين، حتى وصل ومن معه إلى ممر جبلي ضيق، ومن "منفذ زفرة العربي الأخيرة" ألقى الملك الصغير نظرته الأخيرة على آخر ملك العرب في بلاد الأندلس، ليندم على ضعفه وعلى صفقة فانية، ومعاهدة بالية، ليجهش الملك بالبكاء، لتصيح فيه أمه "عائشة الحرة":

-أجل، فلتبكِ كالنساء مُلكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال.

ليُعلق صليب "فرديناندو" الفضي فوق برج قصر الحمراء، وينادي المنادي من فوق البرج بصوت قوي ثلاث مرات، أن غرناطة أصبحت تابعة للملكين الكاثوليكيين، في الثاني من كانون الثاني، فيا ليتنا نظل في اليوم الأخير!

يا ليتنا بتنا في "الأول من كانون الثاني" متمسكين!

من "غرناطة" وفي يوم حبهما الأول والأخير أنهت "نانسي" قراءتها لكلمات "شادي" وهي مصدومة، فلم تكن تتوقع مثل هذا الكم من المعلومات المطروحة في إطار روائي بسيط. في بعض صفحات كتبت في دقائق قليلة، شعرت أنها اكتشفت موهبة حقيقية لتوها، اعتلت وجهها تعبيرات متناقضة من الألم

والاستمتاع والدهشة، ظلت تتأمل وجه "شادي" الذي أمسك بيدها وقبلها لتقول:

- يعني الزينة دي مكنتش علشان راس السنة؟!

- لا! دي كانت عشان احتفالهم بسقوط العرب في الأندلس... عجبتك الحدوتة؟

سكتت "نانسي" ووضعت يدها الأخرى أعلى يد "شادي" وضمت عليها بكلتا يديها، ثم نظرت إلى القطار الواقف في المحطة، وهي تضع الأجندة المكُتوب عليها بخط اليد "الأول من كانون الثاني" بجانب فنجانين حمراوين من القهوة الساخنة، التي يتطاير دخانها كاشفًا وجه "نانسي" التي كانت تنظر إلى "شادي"، متناسيين واقعهما، فلقد فُرض عليهما أول يوم في العام الجديد الكثير من المعطيات التي شوهت فكرهما، وسط هياج مشاعرهما العاصفة.

-هاتفرق إيه؟

-هاتفرق إنك هاتستني معايا.

-أنا كده كده هاستنى معاك.

قالتها وقبلت يد "شادي" ليقبل هو رأسها.

-كنت متأكد إن النهارده يوم هايغير حياتي.

-عشان كده سميت الرواية "الأول من كانون الثاني"؟

-أيوه طبعًا، بس دي مش روايه، دي مجرد حدوته.

-طب إوعدني وعد.

علق "شادي" ساخرًا:

-إنتي داخله على طمع بقى.

-في مانع؟

-لا بتأكد بس.

-إوعدني إنك تكملها وتنشرها.

ضحك "شادي" وقال:

-بس أنا مش روائي.

-لأ، روائي، إوعدني.

-حاضر أوعدك، بس بشرط.

-إيه؟

-كل سنه نيجي مع بعض هنا.

ضحكت "نانسي" حبًا، وأجابت متناسية عقلها الذي كان توقف عن العمل منذ لمست "شادي":

-أوعدك، وماتخافش أنا بوفي بوعودي.

ظلت ترمقه بنظرات أبعد ما تكون عن البراءة، وإن كانت فطرية، فلقد كان "شادي" وسيمًا، كالأمراء، أما هو، فقد ظل يرمقها بذات

النظرات، فلقد كانت "نانسي" جميلة ومثيرة، من خلال قميصها الغربي، منبهرًا بكل ما فيها من أنوثة وجرأة. استسلم "شادي" لها، ولقوة امتلاكها له، فلقد كان يبحث دائمًا عمن يأسره ويسلمه مفاتيح قلعته، وإن كانت هي الأخرى قد أدهشها استسلامه ولكنها قد تقبلته، معلنة موافقتها لاستلام مقاليد الحكم في حياته، وقبل أن تبدأ هي حكمها، تذكرت أن عليها إنهاء فترة حكم آخر في وطن بعيد، فوقفت وهي تبتسم له، ثم أمسكت فنجانه الأحمر وارتشفت رشفة من مر قهوته لتخفي نيتها.

-هارجعلك تاني.

قالتها ثم أمسكت القلم الذي كانت قد ابتاعته له في الساعات القليلة الماضية ووضعته في يد "شادي".

-وأنا هاستناكي.

قالها "شادي" وهو ينظر إلى القلم في رهبة، فلم يكن يهوى البُعد، كان يهابه ولقد كان الحق معه.

ظلت خطوات "نانسي" تأخذها بعيدًا، ليبدأ عقلها في السيطرة، بعدما ترك الحكم في الساعات الماضية لقلبها الطائش، وكلما طالت خطواتها كان عقلها يُحكم من قبضته، فلقد كانت تمتلك عقلاً قويًا، لا يمتلكه أعتى الرجال. ضعف قلبها أخيرًا ليطلب منها نظرة أخيرة، لتلتفت هي من بعيد، لتجده كالطفل التائه الذي تركته أمه وسط الكثير من الصخب. دمعت عيناها وهي تنظر إلى نظرات عينيه المكسورة للقلم، وللفنجان الأحمر الذي ظل يقربه إلى شفتيه ليتحسس أحمر شفاهها المنسي. ظلت ترمقه ومن

خلفه الزينة، لتضعف وتخرج هاتفها المحمول لإنهاء آلامها، قبل أن ينطق صوت عقلها مرة أخرى، إلا أن صوت المذياع كان قد أنهى الصراع.

"النداء الأخير للقطار 903 المتجه إلى "سانتا آنا"، برجاء سرعة التوجه إلى رصيف 2".

كان هذا هو النداء الأخير لعقلها، فأخرجت هاتفها واتصلت بي، لتخبرني بما قررت أن تفعل، لعلها تأخذ من صديقتها الرومانسية دعمًا لإنهاء علاقتها مع "أنس".

-آلو.

-أيوه يا "نانسي"، إنتي وصلتي ولّا إيه؟

-لأ، أنا مش هارجع يا "ليلى".

وقفت منفعلة من غرفتي، فلم أفهم ما يحدث، وكان من المفترض أن تصل "نانسي" إلى القاهرة منذ ساعات.

-يعني مش راجعه؟ إنتي فين أصلاً؟

-أنا في "غرناطة".

ضحكت وظننتها تسخر مني، فعاودت باستهتار:

-"غرناطة" ولّا "القسطنطينية"، بطلي التهريج بتاعك ده، إنتي وصلتي ولّا إيه؟

كانت تبكي، فلقد سمعت أنفاسها المتصارعة، لم تكن تهذي،

ليسقط قلبي خوفًا عليها. دقائق من الحديث مرت وأنا أتفهم منها بصعوبة ما حدث. كانت تظنني سأدعمها، بل سأصفق لها بكلتا يديَّ، ولكني أضعف من هذا، فلن أستطيع أن أكسر بقلب "أنس" قبل زفافه بأيام، وإن كنت كثيرًا أعاتبها لخطف "أنس" من أحلامي. الآن قد علمت كم القلوب التي كسرتها "نانسي" باختيارها، فكلنا قد وُجعنا، حتى أن هناك من لا أعرفه يتذوق مر ظلمها! فلو تركتني لأحلامي لما حاربت لأحصل على قلب "عمر". حقًّا إنها دنيا ساخرة، ولكني حينها كنت لا أزال ساذجة، ولم أكن أنانية مثلها، فلم أشترك بقهر المزيد من القلوب، لم أرضَ أن أكون من يصدق على هذا المصير لأجسد معها على الهاتف شخصًا لم أعرفه. ظللت أهاجم وأشرح وأمنطق الأشياء، الأشياء التي خلقت بلا منطق، منذ خلق "حواء" من ضلع "آدم"، وأخيرًا نجحت وفشلت، فلقد أزالت مكالمتي سحر هذا الشاب المسكين، لتنظر "نانسي" إليه نظرة أخيرة من بعيد، نظرة ألم، نظرة وداع، لم يكن هو يلاحظها، فلقد اتخذت القرار الذي ظننت أنه صحيح، بل ظننا أنه صحيح، بل يظن الجميع أنه الصحيح، قرارًا ممنطقًا بعقلية ممنهجة، مدروسة كل أبعاده إلى حد الكمال، فخطت "نانسي" خطوتها الأخيرة في "غرناطة" داخل القطار المفارق، لتترك قلبها هناك في بلاد الأندلس، تتركه في "الأول من كانون الثاني"، لتعاود في طريقها، تاركة قلبها مصحوبًا بتلك الدمعة التي كانت في عينيها لتتساقط على أرض الأندلس.

تركت قلمي وندمت، لم أكتب أني فشلت. تركت مكتبي وتجولت، في معرض زوجي وتبسمت، كيف كنت جاهلة إلى هذا الحد! حاولت أن أعفي نفسي من العتاب وما استطعت، فنظرت إلى

"النتيجة" المعلقة على الحائط والتي تشير إلى نوفمبر 2016 لأتساءل إذا كانت تلك السنين استطاعت محو هذا الحب من قلبيهما، أم لا؟ حتى ظهر هذا الرجل الوسيم في قاعة المعرض، فنظرت إليه في فضول لا أعرف سببه، فتوجهت إلى مكتبي مرة أخر، وظللت أراقبه. تحدث لحظة إلى البائع الذي أشار له بالانتظار ثم اتجه إليَّ، لتقع عيني في عينه. ابتعدت عن الباب، ليدخل مساعدي في هدوء:

-مدام "ليلى"، في حد بيسأل على حضرتك.

-عليا أنا؟!

قلتها باندهاش.

-لأ، هو سأل على صاحب المعرض.

توجهت إلى مكتبي ووضعت روايتي الجلدية في درجي السحري كالعادة، وقلت له بهدوء مصطنع:

-طب خليه يتفضل.

ثوانٍ ودخل الرجل الذي كنت أظنني أعرفه، فلقد كان وسيمًا يشبه الأمراء.

-مساء الخير.

-مساء النور يا فندم، أنا "ليلى" مديرة الجاليري، أقدر أساعد حضرتك ازاي؟

-أهلاً يا فندم، أنا "شادي هشام" روائي ومترجم.

وقع اسمه عليّ كالصاعقة، هل هذا هو الرجل الذي كنت أكتب عنه للتو، هل هو من كسرت بقلبه وخطفت حب عمره، أم لعلي ساعدته على الهروب من علاقة كان يود أن ينهيها، أو لعله نسي ببساطة فلم يكن إلا يومًا؟!

-روائي؟

انحنى "شادي" وأخرج من حقيبة يد كان يحملها بيسراه رواية وأخرج قلمًا وكتب لي إهداء.

-"الأول من كانون الثاني" أتمنى تعجبك.

كاد يقتلني بكلماته، كيف يُعقل أن يقابل المرء مثل هذه الأحداث!

-بس هو أنا يا فندم كنت محتاج أقابل صاحب الجاليري نفسه، إذا أمكن يعني.

قالها محرجًا، لأوضح أنا:

-ما هو الجاليري بتاع "عمر" جوزي، تقدر تعتبره بتاعي. خير يا فندم.

-آه معلش، أنا آسف يا فندم، اللي ما يعرفك يجهلك.

-ولا حاجه اتفضل، أقدر أساعدك ازاي؟

نسيت كم كنت وقحة! فأكملت:

-معلش أنا آسفه، تشرب إيه الأول يا فندم؟

-يعني لو مفيهاش تعب قهوه ساده.... بن فاتح، لو في.

هل بدأ عقلي في التشتت، أم أنه طلب للتو قهوة "نانسي" المفضلة؟!

-طبعًا طبعًا.

تحركت من مكاني، وفتحت الباب الجرار وتوجهت بكلامي للبائع:

-معلش هاتلي قهوه ساده بن فاتح في مكتبي.

-ولو في مصر يا فندم، هي مدام "نانسي" جايه لحضرتك؟

خفت أن يسمع "شادي"، فأشرت له بأن يسرع وأنا أغلق الباب.

-معلش آسفه، قولي بقى يا فندم أقدر أساعدك ازاي؟

-والله أنا كنت بسأل لو تحبوا تعرضوا الجاليري للبيع.

-هو حضرتك سمسار؟

-لا أبدًا أبدًا، أنا كنت عايز أشتريه لنفسي.

في تعجب استفهمت:

-طيب اشمعنى المعرض ده؟! ما "محطة الرمل" مليانه معارض.

-أنا فاهم والله، بس هو الجاليري ده ليه سمعه طيبه، وأنا كنت حابب...

قاطعته أنا متفهمة:

-تبدأ من حيث انتهى الآخرون.

-بالظبط كده.

قالها في سعادة وكأني أزلت همًّا من على صدره.

-والله أنا كنت أتمنى أساعد حضرتك، بس هي الصراحه فكرة البيع مش مطروحه عند جوزي.

-طيب يا فندم ما البركه فيكي يعني.

-ما هي المشكله كلها فيا أنا، المعرض ده كل حياتي، وهو اللي بيسلي وقتي، أنا مش بفارقه، حتى إني وسعت فيه كتير عن زمان، وزودت الجزء الخاص بالفرش.

قاطع البائع حديثنا وهو ممسك بالقهوة، سائلاً بغباء أين يضعها، فأشرت له إلى المنضدة التي أمام "شادي"، ليضعها وينصرف.

-كنت بقول لحضرتك إيه، آه، ده أنا حتى بكتب هنا.

-حضرتك كاتبه برضه؟

-مش بالظبط، بس بجرب أكتب في روايه.

-طيب والله لو حضرتك احتجتي أي مساعده، ده كارتي، أقدر أوصل حضرتك بالناشر بتاعي، أو يمكن حضرتك تغيري رأيك.

-في إيه؟

-في البيع.

-لا مستحيل.

-أنا اتعلمت زمان إن مفيش مستحيل، وعمومًا برا البيع والشرا، لو حضرتك احتجتي أي حاجه في روايتك يسعدني إني أساعد حضرتك.

-يعني ممكن تقراها؟

-طبعًا يا فندم يشرفني.

-طيب أوعدك إني هاحاول أوصلهالك بطريقة ما.

لم يفهم "شادي" قصدي حينها، فتابعت بينما كان هو يرتشف مر قهوته:

-قصدي أكيد هابعتهالك بطريقة ما. بالمناسبه، هو إنت اخترت ليه الاسم ده للروايه؟

-والله هي روايه تاريخيه، بتتكلم عن الأندلس، و"الأول من كانون الثاني" هو كان آخر يوم لحكم العرب في الأندلس، أتمنى إنك تقريها يا فندم.

-أكيد، أكيد هاقراها.

وقف "شادي" بعدما احتسى قهوته وقال:

-أتمنى برضه تفكري في موضوع البيع، ماخبيش عليكي برضه، مراتي كمان نفسها فيه، وأنا مبحبش أزعلها.

صدمني الأمير مرة أخرى، وأكد لي أنه قد نسي "نانسي" بالفعل،

فابتسمت وحييته وهو يخرج من الباب، ولقد أراح قلبي من العذاب، فها هو الرجل يحب زوجته ويحترمها، ولكنه بعدما انصرف، جلست وارتحت، لتناديني كلمات إهدائه من الصفحة الأولى المطوية من روايته، فتوجهت إليها أسيرة، حتى صعقتني كلماته.

"أتمنى أن تنال كلماتي القبول، وأن تعيشي حياتك كلها كما عشتها أنا، في الأول من كانون الثاني".

*** ***

قصت عليها الرواية، شيء عجيب، فلم تأتِ إليها عبثًا، فلقد اختارتها دون الجميع لتكتب (هي) فيها قصة الحفيد، ليسترجعها (هو) ويستفيد، ظلت تنظر إلى عملها الأدبي، و(هي) مترددة، قبل أن تستسلم مرة أخرى إلى روايتها، وتضعها في ذلك الدرج السحري الذي يشير إليه "غبريال" بشئ من الغموض، قبل أن تعيد الصندوق إلى ذلك المكان المميز في مكتبة الغرفة، لتقف (هي) أمام تلك المرآة تنظر إلى نفسها في اندهاش، فلقد كانوا (هم) جميعًا هناك.

*** ***

الفصل الخامس

فُتحت أبواب الكنائس في الصباح، وخرج الجميع يتنفسون الصعداء، شاعرين بأن هناك قدرًا غير الهلاك. كان الجنود منظمين، يعرفون جيدًا ما يفعلون، فلقد صفونا كالعبيد، وخرج قائد منهم على جواده، يسير من بيننا. ظل يرمق الجميع من أعلى حصانه كالفارس المنتصر، الذي يشمت في الأسرى، ولكن أين كانت المعركة، فنحن أهل سلم؟! أخرج القائد مجموعة من الأوراق، وبدأ ينادي بعض الأسماء التي تفهمت بعدها أنهم من أصحاب الحرف، الذين سيمكثون ليعلموا سكان "غرناطة" الجدد حرفهم، فلقد عزموا على نفينا في مختلف بقاع الأندلس، حتى لا تقوى شوكة أهل "غرناطة" مرة أخرى، بقرار اتخذه شيطان "فيليب الثاني"، ولكني لم أكن أعلم حينها. كنت فقط خائفًا متمسكًا بأبي، حتى ضربني أحد الجند وأبعدني عنه، حتى يكون كل منا ضعيفًا وحده. ظل القائد ينادي الأسماء، حتى سمعته ينادي على أبي، الذي ظن أنه الفرج، ففرح وقال:

-نعم أنا.

فاقترب منه الرجل قائلاً:

-أنت صانع الورق؟

-نعم، صدقت.

-فاخرج من الصف واتبع هؤلاء الجند.

فخرج أبي وأمسك بي وهو في غاية السعادة، حتى سمعت

صوت السوط يمزق ظهره، فصرخت ألمًا:

-أبيبي.

-هل أذنت لك أن ترافق أحدًا؟

كان أبي راكعًا أرضًا من الألم.

-ولكنه ولدي.

-وليكن، ما دام اسمه ليس مذكورًا فسيبقى.

التف أبي للرجل الذي كان خلفه، لأجد دماء ظهره تواجهني، فحاولت يدي لمس جرحه، ولكني عجزت.

-إنه مجرد فتى صغير.

-بل قل عبدًا صغيرًا.

وقف أبي رافضًا والجرح يقتله.

-لسنا عبيدًا ولن نكوو..

كان صوت الذخيرة الحية مدويًا. لم أستوعب ما حدث، حتى وجدت أبي بين يدي وصدره غارق في الدماء، حاولت أن أمنع صراخي وأنا أنظر للقائد حامل البندقية، صاحب هذه الابتسامة التي وُشمت في ذاكرتي، ولكني أيضًا فشلت.

-أبتاااااه.

تابع القائد نظرته الحارقة قائلاً:

-الآن وقد صرتم عبيدًا، هل من معترض آخر؟

سكت الجميع خوفًا وسكت أنا ألمًا.

-حسنًا، حان وقت ترحيلكم إلى شمال قشتاله، من يريد منكم العيش، فسوف يأمن حياته، وسوف يلحق به أفراد أسرته.

كان يكذب وكنت أعلم، لأتابع السفر سيرًا لأيام طويلة، بأقل القليل من الماء والزاد. حقًّا لقد كان هذا هو النفي الأصغر، ولكنه هو من قواني على تحمل صعوبة ما ذقته في حياتي.

-ماذا تفعل أيها الحثالة؟

قالها الجندي الفرنسي عندما لاحظ وجودي مستيقظًا.

-لا شيء لا شيء.

قلتها وأنا أخفي الأوراق أسفل مني، فبصق الجندي عليَّ ساخرًا، ليذكرني بما أنا فيه الآن، فلقد نسيت أسري وأنا أدون تاريخي. هدم الجنود علينا الخيام، ثم بدأوا في رمينا بالمياه المثلجة، فأمسكت أوراقي، وحاولت ستر جسمي بجزء جلدي مقطع من جلد الخيام، والذي استخدمته لاحقًا في كسوة أوراق روايتي. ظل شتاء فرنسا يقسو عليَّ، حتى شِخت أكثر.

كان معي في الأسر، هذا الرجل الكهل، الذي لم يتحرك من مكانه، رغم برودة المياه. اقترب منه أحد الجنود، فوجده ميتًا، ولكنه خاف أن يكون مخطئًا، فاقترب من قائده الذي ضحك، واقترب من الرجل بسلاحه، وأطلق عليه النيران، ثم ابتسم وقال للجندي:

-الآن قد تأكدنا من موته.

كان الغضب يملؤني، ولكن ضعفي حال بيني وبين دفن صديقي العجوز، لأظل أنظر إليه مودعًا من داخل عربة الأسر التي ظلت تبتعد شيئًا فشيئًا، حتى اختفت ذكرى الأسير لتتابع العربة طريقها إلى محطتها الأخيرة في الشمال.

***

(١١)

-"حيزبووووووون".

-"حيزبون" في عينك بغبغان غبي، عايز ضرب النار.

قالتها الحيزبون "جيجي" بينما كنت أحاول الاستيقاظ، من غرفة مكتبي.

-خير يا "جيجي" في إيه؟

-هايجي منين الخير طول ما البغبغان الفقر ده هنا؟

-يا سيتي عملك إيه بس؟

-مش شايف طولة لسانه؟

-يعني هو يقصدك يا "جيجي"؟ ده بغبغان.

-"حيزبووووووون".

خلعت "الحيزبون" نعلها ورمته به، ليطير الببغاء خوفًا متفاديًا

إياه في أنحاء الغرفة، لتخاف "جيجي" وتخرج خارج المكتب، فانتظرت حتى هدأ الببغاء، وأشرت إليه ليقف على يدي، ثم أدخلته قفصه، ووضعت له بعض الفستق تعويضًا عما فعلته "الحيزبون"، ثم خرجت إليها، في صالون منزلنا القديم، الذي كان يتوسطه عمود رخامي أحمر بتاج ذهبي عالٍ، فوقفت إلى جواره وناديتها:

-في إيه يا "جيجي"، ليه العصبيه دي على الصبح؟

-لا يا شيخ!

قالتها وهي تضع يديها على خصرها، في استعداد لـ"الردح".

-ما هو حضرتك بقالك يومين نايم في مكتبك، والمفروض إني أنا اللي مش مظبوطه.

-معلش يا "جيجى" عندي شغل.

لا أعرف كيف أصف ردها ولكني سأكتبه كما قالها "سعيد صالح".

-شغل؟! "شهقة" قال شغل قال! طيب ما تيجي أوضة النوم تشوف الشغل المتأخر عليك بقاله شهرين.

حاولت التهرب مما ترمي إليه.

-شغل إيه يا "جيجي"؟

-شغل الزوجيه يا حبيبي، "شهقة" ولَّا هو أنا مش عاجباك؟

-لا يا حبيبتي، ما هو إنتي عارفه الضغط اللي أنا فيه.

-ضغط، "شهقة" ضغط إيه يا حبيبي، ده أنا اللي هايجيلي الضغط من اللي بتعمله فيا، بقولك إيه يا "مصطفى"، أنا حاسه إن شبابي بيضيع.

-خلاص يا سيتي أوعدك إني أخلص كل حاجه النهارده.

قلتها واقتربت منها، محايلاً إياها بطريقة الثمانينيات.

-وبالليل هاعمل الشغل زي ما الكتاب بيقول.

-يا ريت يا خويا تكون بتعرف تقرا ولّا حتى بتفك... بتفك الخط.

قالتها وانصرفت للداخل، تاركة إياي أحاول أن أقوم بـ"الشهقة" بعد كم الإهانة الذي سمعته. توجهت لغرفتي مرة أخرى، وأخرجت الببغاء من قفصه ووضعته أعلاه، ثم أكملت القراءة.

***

بعدما ذهب الأمير، قررت متابعة الكتابة لسرد ما حدث لي ولصديقتي الوحيدة "نانسي" التي كانت قد تزوجت "أنس" في بداية عام 2009، ليسكنا في شقة كبيرة بـ"لوران" في عقار ملك لوالدي "أنس".

كان والدي قد ابتاعني سيارة "سيات" ولكني لم أكن أحب القيادة، أو هذا ما أقنعني به "عمر" الذي كان يفضل أن يقود سيارتي بدلاً عني، وفي هذا اليوم كنا ذاهبين أنا و"عمر" بسيارتي لنبارك لـ"نانسي" و"أنس" زيجتهما. كان "عمر" قد أحضر هدية من معرضه، بينما أصررت أنا أن أبتاع بعض الورود الحمراء، لينفعل "عمر" لتأخرنا، ولكني لم أكترث لعصبيته، وبالفعل اشتريت

الورود، وذهبنا إلى هناك، وكان "عمر" غيران من مكان سكن صديقه، أو هذا ما شعرت به. صف "عمر" السيارة ودخلنا العقار الفاخر الذي كان مدخله مكونًا من ثلاثة أبواب حديدية، كل منها دائري من أعلاه، معطيًا انطباعًا أوروبيًا فاخرًا. استقللنا المصعد، وصعدنا الطابق الثامن، حتى وصلنا أخيرًا إلى باب الشقة، ففتح لنا "أنس" في ترحاب مبالغ:

-يا أهلاً يا أهلاً.

-إزيك يا عريييس.

-حبيبي يا "عموور".

عانق الشابان بعضهما البعض، لأسمع ما همسا به:

-كسفتنا ولّا استرجلت؟

-عيب عليك، كسفتكم طبعًا.

ضحكا ثم توجه إليّ "أنس" أخيرًا:

-إزيك يا "ليلى" منوره الدنيا اتفضلوا اتفضلوا.

قالها وأشار لنا للدخول، لندخل هذه الشقة حديثة الديكور، الذي طغى عليه ذوق "نانسي". كان مدخل الشقة من الرخام البني الإسباني، ومنه إلى يميننا الصالون بعد درجتين رخاميتين. توجهنا إليه، وكانت الحوائط مزينة بألوان مختلفة داخل بانوهات كثيرة، مدهونة باللون الأبيض. كانت الأرائك جلدية حديثة الطراز، وكان يعلوها وسائد ملونة بألوان زاهية، كالزهري

والبنفسجي والأزرق والأحمر.

-ذوقك حلو أوي ياد يا "أنس".

-لا أبدًا، كل حاجه هنا على ذوق "نانسي".

قالها "أنس" بشيء من الانكسار الذي لاحظته، فحاولت أن أنسيه همه.

-هي فين "نانسي" صحيح؟

-حالاً هاجيبهالك، إتفضلوا استريحوا.

دخل "أنس" ليستعجل زوجته، بينما اتجه "عمر" إلى نوافذ الشقة التي تكشف البحر من بعيد. كان المشهد حالمًا.

-"ليلاااا".

-يا عرووووسه، ألف ألف مبروك.

كانت "نانسي" ترتدي ملابس مريحة كعادتها دون أدنى تكلف، عكس "أنس" الذي كان مهندمًا للغاية.

-إزيك يا "عمر" عامل إيه؟

-تمام يا عروستنا.

-واخد بالك من عروستي؟

قالتها وهي تشير إليّ.

-طبعًا يا "نانسي" دي خطيبتي وحبيبتي، وفي عيوني.

-أيوه كده، شفتهم يا "أنس" يشربوا إيه؟

قالتها لـ"أنس" بعفوية، ليتفاعل دون حساسية.

-آه معلش نسيت، تشربوا إيه؟

-لا ماتتعبش نفسك يا صديقي.

-إسمع بس، أنا بطبخ عصير بطيخ حكايه.

ضحكنا جميعًا وقال "عمر":

-طيب هاتلنا اتنين عصير من طبيخك.

-حالاً.

قالها "أنس" ودخل إلى المطبخ وتركنا قليلاً، بينما ظهر على "عمر" الاندهاش بعض الشيء.

-إحكيلي بقى إتبسطي في "جزر الكناري"؟

-الحمد لله أوي يا "لولي".

تعجب "عمر" وعلق:

-هو مش انتوا كنتوا مسافرين "تايلاند"؟ ده أنا اللي حاجز لـ"أنس" التذاكر.

-لا ما أنا خليت "أنس" يغير الحجز.

-إشمعنى؟

قالها "عمر"، فلكزت قدمه ألا يتدخل في خصوصياتهما، ولكنها جاوبت وهي تضع رجلاً على الأخرى:

-ولا حاجه، بس هو خد القرار لوحده، مكنش خد رأيي.

كان "أنس" قد وصل وهو يحمل صينية كمهرجي السيرك يحاول الصمود.

-الحمد لله، جت سليمه.

قالها ضاحكًا، ثم أضاف معلقًا:

-خلاص بقى مايبقاش قلبك إسود كده، ما أنا رميت التذاكر وعملت اللي إنتي عايزاه.

-رميت التذاكر؟!

لفظ بها "عمر" رغمًا عنه، فارتبك "أنس".

-معلش بقى، أنا كنت تعبتك معايا يا "عمور"، بس العروسه لازم تدلع، مش كده ولّا إيه؟ ما تقولي حاجه يا "ليلى".

كنت بالفعل مندهشة بعض الشيء، ولكن ليس بمقدار "عمر".

-دول كانوا بعشرين ألف جنيه.

-بس أنا مكنتش عايزه أروح يا "عمر".

سكت "عمر"، فحاول "أنس" تصحيح الموقف.

-أنا رجعت التذاكر ماتخافش، وهي الصراحه عندها حق، كان لازم

آخد رأيها.

-المهم مش اتبسطي يا عروسه؟

قلتها وأنا أبتسم في وجه صديقتي التي وافقتني.

-الحمد لله.

-بس كانت حر أوي، صاحبتك لففتني أسبانيا كلها قبل ما نروح "الكناري".

-هي "الكناري" في أسبانيا؟!

قالها "عمر" مندهشًا.

-هي المفروض في المغرب، بس هي لسه تحت حكم أسبانيا.

-بقولك لففتني أسبانيا كلها، تصدقي وديتني "غرناطة"؟

-"غرنااطة"!

علق "عمر" ضاحكًا، بينما نظرت أنا في عين "نانسي" التي أُحرجت ووبخت "أنس" وهي تقف في انفعال:

-إيه يا "أنس" في إيه؟ لو زوقي مش عاجبك، أنا ماضربتكش على إيدك عشان تتجوزني.

سكتنا جميعًا، بينما غمز "أنس" لصديقه معاتبًا، ثم توجه إلى "نانسي" وقبّل يديها قائلاً:

-بالعكس يا حبيبتي، أنا كل حاجه فيكي بحبها، إنتي عارفه إني

بعمل كل حاجه عشان أرضيكي، حقك عليا.

قالها وقبل يديها مرة أخرى، لنظل أنا و"عمر" ننظر لبعضنا البعض في دهشة صامتين، وظللنا على هذه الحال حتى وصلنا للسيارة مرة أخرى، وكان "عمر" منفعلاً بعض الشيء.

-دي إيه المره دي؟!

في انزعاج رددت:

-إيه الألفاظ دي يا "عمر" في إيه؟

-يا سيتي هو الواحد بيتجوز عشان واحده تخدمه ولّا يخدمها؟

-يا سلاام، وهو إنت واخدني خدامه يا "عمر"؟

لاحظ "عمر" انفعاله وخطأه، فحاول تصحيح الأمور:

-يا حبيبتي إنتي حاجه تانيه خالص، مش مقياس أساسًا.

-يا سلام، بعد إيه؟

-والله يا حبيبتي ماقصدش، بس الراجل راجل والست ست، دي حاجه ماتضايقيش، ولّا هو إنتي عاجبك طريقة صاحبتك دي؟

لم أستطع التعليق، فلقد كنت أعلم جيدًا أن الحق معه، وإن كنت سألوم أحدًا، سألوم نفسي، فأنا من اخترت هذا المصير لـ"أنس"، فلم تستطع "نانسي" أبدًا الاقتناع به بعدما قابلت "شادي". كانت المعادلة خاسرة، فلقد كان "شادي" ببساطة الرجل بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لذا لم يستطع "أنس" الحصول على هذا اللقب

أو المنافسة عليه، ليصبح ويظل رجلاً درجة ثانية في حياتها.

-بقولك إيه، خلاص بلاش كلام في الموضوع ده وتعالى نطلع على "شيراتون المنتزه" طالما قريبين منه.

-مابلاش "شيراتون" يا "ليلى" ونحجز الفرح في حاجه أقل شويه، إنتي عارفه إني مش مقتنع إن باباكي أو أهلي يساعدوا في الموضوع.

ببراءة شديدة أجبته مبتسمة:

-يا حبيبي كل العرايس دلوقتي أهلهم بيشاركوا في الفرح، أما بالنسبه لأهلك، فإحنا ما صدقنا إن علاقتك بيهم اتحسنت.

سكت لبرهة وتابعت:

-وبعدين إحنا معملناش خطوبه، كانت فاتحه بس على الضيق عشان نعمل الفرح في حته حلوه.

أمسك "عمر" يدي وأجاب بشاعرية افتقدها اليوم:

-حاضر يا حبيبتي، اللي تشوفيه.

-ماتحرمش منك يا حبيبي.

ظللت ممسكة بيديه، ولكنه ظل متلهيًا في اتصالاته طوال الطريق، حتى وصلنا إلى الفندق، ولكنه تعدى المدخل، وحاول البحث عن مكان بعيد لصف السيارة.

-فوت الباركينج ليه يا حبيبي؟

-هايبقى غالي أوي على الفاضي، دول حراميه.

-أيوه بس أمان.

-إيه يا "ليلى"، هي عشان عربيتك؟ يا سيتي لو حصلها حاجه هاجيبلك غيرها، أنا بس اللي فلوسي مرميه في شغل.

-إيه يا "عمر" كل ده؟ أنا مقصدتش على فكره.

ظل "عمر" غاضبًا في السيارة بعدما صفها.

-خلاص بقى إضحك...إضحك بقى... طب والله أفتح الباب وأقف في نص الطريق.

أمسك "عمر" يدي مبتسمًا وقال:

-خلاص خلاص مش زعلان، بس بقولك إيه، لو هاتكتبي العربيه بإسمي ممكن ترمي نفسك في نص الطريق عادي.

ضربته على كتفه، وخرجنا متشابكي الأيدي، حتى وصلنا إلى الفندق.

بالفعل كانت قاعة الفندق هي القاعة التي اخترناها لزفافنا، الذي تم بعد عدة شهور في يونيو 2009، قاعة "الطابية" على ما أتذكر، والتي تستطيع الوصول إليها بعد خطوات قليلة من مدخل الفندق، وهي قاعة قديمة قدم المكان، يزين حوائطها عمدان رومانية كلاسيكية، وكانت الأرضية من الموكيت الأحمر، الممزوج بخيوط ذهبية، كما كانت الثريات الكريستالية تتدلى من الأسقف المقسمة بطريقة هندسية بديعة. كانت القاعة مناسبة، حتى أننا

لم نصرف المزيد في الديكورات، فلقد كان زفافنا تقليديًّا، ورغم وجود الأهل والأصدقاء، إلا أني كنت أفتقد شيئًا أهم، جعلني أشعر بخوف رهيب، فلقد خفت عندما شعرت بوحدة غريبة، افتقاد للأمان و"عمر" يأخذني من يد أبي. فهمت ما حاولت أمي شرحه مسبقًا، فلم أشعر بالدفء الذي كنت أتوقعه في يوم كهذا، وقبل أن يتملكني هذا الشعور، وجدت أمامي هذه المرأة التي أبغضها "هدير" والتي لا أعلم لمَ دعاها "عمر" في يوم زفافنا! ولكنها جعلتني أضم "عمر" أكثر إلى صدري ونحن نتراقص.

-هي إيه اللي جاب دي هنا؟

-لأ بقولك إيه، أنا مبحبش الست الغيوره ماتفقناش على كده، إنتي مش واثقه فيا ولّا إيه؟

نعم، كنت أعلم بغضه للمرأة الغيورة، ولعل هذا كان سبب انفصاله الأول من الأساس، ولكني ندمت على ما وافقته عليه لاحقًا، فإنني حتى لم أستطع أن أجهر بما رأيت، فلقد رأيتها حينذاك ترمقني من بعيد، نظرة الغيرة والكراهية، نظرة السارق هي، ولكني خفت أن أجهر بما رأيت، والغريب أني رأيت معها شخصًا ما، لم أكن أدرك حينها من هو، ولكني علمت الآن من يكون، فكيف لم أتعرف حينها على الأمير!

***

في أغسطس 2009، ومن قاعة "الطابية" بفندق "شيراتون المنتزه" كان الزفاف صاخبًا. كانت القاعة ممتلئة عن آخرها. كانت السعادة تغمر الجميع، عداهما. كانت العائلتان منبهرتين بالنسب

المشرف. كان أصدقاء العريس منهمكين في الشراب، فلقد أضاف والد العروس الكحوليات على قائمة العشاء، كنوع من المجاملة بعدما تحمل أهل العريس باقي التكاليف، وتقديرًا من الشباب لجهود والد العروس، كان الإقبال على تلك المشروبات كبيرًا، حتى أن والد العريس تعجب من انهماك الشباب على المشروبات دون الطعام، ولكنه انشغل بصديقه العزيز والذي هو أحد مشايخ الأزهر، والذي قد حضر بعدما أكد له والد العريس أن العرس تقليدي، لا بذخ فيه ولا فجور. قدم والد العريس واجب الضيافة إلى شيخه، وأشار إلى النادل الذي كان يسير حاملاً بعض الزجاجات الكحولية.

-متر، هنا يا باشا والنبي!.

فوقف النادل أحدب الظهر وانحنى لوالد العريس.

-تحت أمرك يا فندم.

-شوف يابني شيخنا يشرب إيه.

فتجهم النادل وحاول شرح الأمر، ولكن والد العريس باغته:

-يابني إنت هاتصاحبني؟ مش دي المشاريب اللي أنا منقيها في البوفيه؟ تنزلها كلها، هو أنا عندي أعز من الشيخ؟

-لا ما هو أصل حضرتك، والد العرو..

-إنت بتقاوحني ليه؟

قالها والد العريس، ووقف وأخذ الزجاجتين ووضعهما على

المائدة، لتبدأ السهرة.

-يالّا بقى يا شيخنا، إشرب عشان شويه وناخد جنب ونصلي عشان ربنا يبارك للعرسان.

-آمين يا رب العالمين.

-بص ابني منور ازاي، والله أمير.

أشار الأب إلى ابنه "شادي" الذي كان يراقص زوجته "ياسمين"، ورغم قربهما، كان بينهما آلاف الأميال، فلقد خطف قلب كل منهما حبيب، ولقد جهلا ما لو علماه لكان يفيد. ساعات من الفرح والحزن، ساعات من الرقص بلا روح، حتى انتهى الزفاف وخلت القاعة من الجميع، عداهما الاثنين، فلقد كانا مختلفين إلى أين القبلة ليصليا!

-يا حاج القبله من هنا.

-لا يا شيخنا أنا متعود أدي ضهري للبحر.

-لا يا حاج القبله ناحية المنتزه.

-يا شيخ إنت شكلك سكرت.

-أستغفر الله يا حاج، هو أنا بس تقلت في الكركديه.

-بس ده مكنش كركديه.

-طب استهدى بالله وصلي ورايا وماتبصش الناحيه التانيه، كده صلاتك ماتنفعش.

-لا يا شيخنا أنا صليت كده امبارح ونفع.

ليصلي كل منهما في اتجاه، ويتخذ المصور تلك الصورة التي ينظر إليها الآن "شادي" ضاحكًا من بيته قبل أن يغلق ألبوم زفافه، ويتـأهب ليـذهب إلـى معرضـه الجـديد "جاسـتيك" لـيتقي شـر زوجته.

-إنت ماسك ألبوم فرحنا ليه؟ ده فات عليه سبع سنين دلوقتي!

-لا ولا حاجـه يـا حبـيبتي بفتكـر... "وذكـر فـإن الـذكرى تنفع المؤمنين".

-اللهم قوي إيمانك يا شيخنا، ما إنت كنت سكران امبارح.

-خلاص يا سيتي، غلطه وبعدين أنا لسه بفتكر، مش أبوكي كان منزل خمره في فرحنا؟

-أيوه عشان فرح، وعشان البريستيج، مش عشان نسيب شغلنا ونشرب.

-خلاص خلاص يا سيتي، أنا نازل خلاص والله ماتزعليش، بس ابقي طمنيني على "يحيى" كل شويه والنبي.

-أطمنك إيه؟ هو في حد هيخاف على الواد أكتر مني؟

-يا حبيبتي ماقصدتش، بس أنا كمان خايف عليه.

-لا يا حبيبي، روح خاف على نفسك الأول، وخد أدويتك.

قالتها وذكرته بمرضه، ليسكت "شادي" ويتجه إلى الخارج في

صمت، لتناديه:

-"شادي".

قالتها بتأنيب ضمير الذي كانت تملكه رغم كل شيء.

-نعم.

-ماتنساش تاخد أدويتك معاك.

كان طيب القلب يرضى بالقليل، فتوجه إليها وقبلها وقال:

-حاضر، بس ابقي طمنيني على "يحيى".

قالت ضاحكة:

-برضه؟...حاضر.

نزل "شادي" ليتذكر تحطم سيارته، فنادى زوجته من أسفل:

-"يااااسمين"، هاخد عربيتك.

لم ترد "ياسمين" ليعتبرها "شادي" موافقة، ليأخذ مفاتيح سيارتها السيات من جانب الباب ويخرج، ليسمع صوت "فلامنجو" الذي ظل يتراقص من أمامه وهو في بيته المعدني، فاتجه إليه مبتسمًا:

-"فلامنجو" حبيبي.

قالها وهو يداعب رأسه.

-عارف يا "فلامنجو".. إنت صاحبي الوحيد، لولاك كان زماني

اتجننت.

أعاد عليه "فلامنجو" بعض كلماته بصوته.

-أيوه "الحيزبون" هاتجنني، بس أنا هافضل عاقل.

قالها وابتسم، عله يدرك الحقيقة!

*** ***

نظر إلى داخل المرآة:

-نفسك في إيه؟

-نفسي ألاقي حد أكلمه.

-اشتري بغبغان.

*** ***

(١٢)

"وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُون"

رغم ما كانت تعكسه شقة "لوران" من فخامة وذوق راقٍ، إلا أن قواعد الأساس لهذا البيت كانت واهنة، فلقد افتقد "أنس" المودة والرحمة التي كان يبتغيها، فلقد حرمته زوجته حتى من نعمة الإنجاب، التي يتمناها كل رجل، ليعبر إلى مرحلة عمرية جديدة يستطيع فيها تحمل صعوبات الحياة، من أجل ضحكات الصغار.

-أنا تعبت يا "نانسي" ومحتاج أعرف في إيه؟

بعدم اكتراث تابعت "نانسي" وضع أغراضها في الحقيبة الموضوعة على سريرهما.

-ولا حاجه يا "أنس"، الخلفه هاتقتل طموحي.

في اندهاشٍ، استفسر "أنس".

-طموح إيه يا "نانسي"؟ هو أنا حارمك من حاجه؟

تركت "نانسي" ما كانت تفعله ونظرت لـ"أنس" بقوة:

-شفت يا "أنس"؟ هو ده اللي إنت مش قادر تفهمه، أنا محتاجه أحقق نفسي، مش إني آخد منك المصروف.

-يا سيتي إنتي مراتي.

-ولو يا "أنس" ولو، أنا محتاجه أحقق نفسي الأول.

-وإيه اللي يمنع؟ ما "ليلى" صاحبتك ماسكه الجاليري بتاع "عمر"، وخلفت "رغدة" وقادره توازن بين الاتنين.

-لا معلش، أنا مش طموحي إني أشتغل عندك سكرتيره، ولا إني أنزل الصبح أفتح الدكان وأمشي بالليل.

-دكان إيه بس يا "نانسي"؟

-أيوه دكان يا "أنس"، وأنا مش زي "ليلى" ويا سيدي لو مستعجل على الخلفه أوي كده، طلقني.

قتلته ببرودها، ليخضع ذليلاً لها مفتقدًا ما يحاول التمسك به من

كبرياء، متخليًا عن رجولته، في محاولة منه إرضاءها، ولكن خضوعه لم يزده في نظرها إلا احتقارًا، والمحيِّر أنها لم تكن ظالمة كما تصورت، بل كانت ضحية كبرياء ومفاهيم خاطئة وقلب جريح.

-طلاق!!! طلاق إيه بس يا حبيبتي؟

اقترب "أنس" إليها وضمها إليه قائلاً:

-يا حبيبتي أنا مقدرش أعيش من غيرك، إنتي كل عمري اللي فات واللي جاي، أنا عشانك ممكن أهد جبال.

دمعت عينا "نانسي" صدقًا، فلقد ظل "أنس" يحمِّلها أكثر من طاقتها، فلقد تمنت أن لو طلقها، أو حتى لو صفعها على وجهها، عله كان أنساها ما عجزت عن نسيانه!

-لا، أرجوكي ماتعيطيش، أنا مش زعلان، أنا آسف، أنا بجد آسف يا نور عيوني.

ظلت كلماته تقتلها وتزيد من آلامها.

-والله خلاص، بصي أنا هامسكك الشركه الجديده معايا، ومش سكرتيره إنتي هاتبقي شريكتي، زيك زيي بالظبط، والله العظيم أول ما ترجعي من السفر هاكون خلصت الورق كله.

سكت لحظة بينما كانت هي غارقة في النحيب.

-"نانسي" إنتي شريكتي في عمري كله، مش شركتي بس، وده بجد مش مجرد "حبر على ورق".

حاولت "نانسي" التوقف عن البكاء بصعوبة.

-أيوه بقى، إهدي عشان خاطري.

ابتسم "أنس" عندما توقفت عن البكاء، وحاول تقبيل شفتيها، لتصارع "نانسي" أنفاسه قبل أن تبتعد بانسيابية حتى لا تجرحه أكثر، وتتوجه إلى الحقيبة المفتوحة على مصراعيها.

-خلاص يا حبيبي مفيش حاجه، وموضوع الشغل ده نتكلم فيه لما نرجع.

-نرجع؟! إنتي هاتخليني آجي معاكي.

حزنت "نانسي" على ذلتها وحاولت تصحيح الخطأ.

-لا يا حبيبي ماقصدش، إنت فعلاً هاتكون معايا، أنا عمري ما رحت حته من غيرك، إنت دايمًا في عيوني.

إنه القتل الرحيم، رصاصة الرحمة التي نطلقها على الحيوان، مقتنعين أننا أدرى بآلامه من خالقه.

-طيب يا حبيبتي ما آجي معاكي بجد، دي تاني راس سنة بعد جوازنا وبرضه ما قضيناهاش سوا،

كان يجهل السبب، بل كان يجهل الكثير، وإن لم تخنه "نانسي" مطلقًا -على ما تعتقد-إلا أنها لم تكن تراه أيضًا.

-معلش يا حبيبي، إنت عارف إن ده الوقت اللي بحب أطلع فيه أسبانيا كل سنه.

-هو أنا قلت حاجه؟ أنا عايز آجي معاكي، السنه اللي فاتت كنتي عايزه ترجعي مع أمك لوحدك، بس السنه دي أمك في "مصر"، مش عايزه تاخديني معاكي ليه؟

في حزم أجابت "نانسي":

-إنت بتشك فيا يا "أنس"؟

-إنتي بتقولي إيه يا "نانسي"؟ مش أنا اللي أفكر كده، ولا إنتي اللي ممكن يتقلك كده.

سكت برهة وقال في استسلام لجمالها:

-أنا بس نفسي أعرف إيه السر في سفرك كل سنه جديده في نفس الوقت!

ظل يسأل وظلت "هي" تتذكر العهد الذي اتخذته في الأول من كانون الثاني، عندما قبلت يد "شادي" ليقبل هو رأسها قائلاً:

-كنت متأكد إن النهارده يوم هايغير حياتي.

-عشان كده سميت الرواية "الأول من كانون الثاني"؟

-أيوه طبعًا، بس دي مش روايه، دي مجرد حدوته.

-طب إوعدني وعد.

-إنتي داخله على طمع بقى.

-في مانع؟

-لا بتأكد بس.

-إوعدني إنك تكملها وتنشرها.

ضحك "شادي" وقال:

-بس أنا مش روائي.

-لأ، روائي، إوعدني.

-حاضر أوعدك، بس بشرط.

-إيه؟

-كل سنه نيجي مع بعض هنا.

ضحكت "نانسي" حبًّا، وأجابت متناسية عقلها الذي كان توقف عن العمل منذ لمست "شادي":

-أوعدك، وماتخافش أنا بوفي بوعودي.

ظلت "نانسي" تتذكر الوعد الذي اتخذته حتى وطأت قدماها الأندلس مرة أخرى في "الأول من كانون الثاني" 2011، ظلت الصورة في ذهنها وهي تخطو أولى خطواتها من قطار "غرناطة" ليسترجع قلبها الأحداث، بينما تخطفها قدماها إلى تلك الكافيتيريا التي انتهى فيها المشوار، بخطى ضعيفة تابعت حتى وصلت، لاحظت تغييرًا في الديكور أزعج ذاكرتها، فلقد كانت تخشى أن يزيل عقلها الصورة التي حاولت حفظها رغمًا عن ذاكرتها الضعيفة.

جلست "نانسي" ووضعت الرواية التي كانت بين يديها على المنضدة، رواية "الأول من كانون الثاني" للكاتب "شادي هشام" ثم ظلت تستنشق رائحة السنوات الثلاث التي مرت كالطيف، حتى قاطع أحلامها هذا النادل الذي سألها بإنجليزية ركيكة عما ترغب في احتسائه، لتجيبه "نانسي" بإسبانية واضحة أدهشت النادل، لينصرف ويتركها تتابع نظراتها لتلك الرواية التي أوفى صاحبها وعده، حتى بعدما تخلت عنه، ظلت خائفة من فتح الرواية، خافت من أن يذكرها الكاتب ولو بتلميح بسيط، وقبل أن تدركها الجرأة، جاءها النادل بقهوتها، ولكن في فنجان أبيض مختلف، لتتعجب "نانسي" وتتساءل عما حدث لفناجينهم الحمراء حمرة لهيب الأندلس، ليعتذر النادل عن التغيير، موضحًا السبب في التجديدات التي استحدثها المالك، ولكن الإجابة لم تقلل من وطأة الألم، ليتساءل في تعجب عما إذا كان مذاق القهوة قد تغير، لتجيبه "نانسي" عن سحر المكان الذي كان متعلقًا دائمًا بالفنجان وليس بمر قهوته. كان لصدق شعورها مردود في قلب النادل الذي ذهب ليبحث عن شيء ما داخل مطبخه القديم، حتى عاود إليها مبتسمًا وهو يحمل فنجانًا أحمر قديمًا ليهديها إياه، في لمسة شاعرية لا يزال يمتلكها أهل الأندلس، لتبتهج صاحبة الفنجان وتتشجع لتفتح أولى صفحات الرواية التي صاحبتها من الإسكندرية، دون أن تستطيع اكتشافها، لتقع عيناها على الإهداء:

إليكِ

يا من أسرتِني في الأول من كانون الثاني

***

وصل "شادي" إلى معرضه الجديد "جاستيك"، والذي كان ممتلئًا بالزبائن، رغم عدم مرور يومين على افتتاحه، ليظل يساعد البائعين في عرض المعروضات عليهم بصورة صحيحة، فلقد وهبه الله ملكة الإقناع، ولو استطاع تسخير هذه الملكة في حبكات رواياته لاستمر نجاحه. ساعات من العمل استمتع فيها "شادي" بنجاحه متناسيًا قلمه، حتى جاءت ساعة الغداء، ليغلق المعرض أبوابه ويتجه البائعون إلى المطبخ الذي خصصه "شادي" للطعام، ليظل هو وحيدًا في وسط المعرض يتأمل المفروشات، ومن ثم تلك المرآة التي كانت تخفي الكثيرين، لينطلق كل من كان حبيسًا في انعكاساتها، ليلاحظ "شادي" مجموعة من الأشخاص جالسين في صمت على مائدة طعام موضوعة في آخر المعرض، فتوجه إليهم في اندهاش وانزعاج، حتى اقترب منهم ونظر إليهم ليشعر بسابق معرفته إياهم، ولكنه كان مشوشًا. اقترب أكثر ونظر إلى اللافتة المكتوب عليها "ممنوع الجلوس على المعروضات"، ثم نظر إلى برودهم في شيء من الرهبة، أشار إليه الرجل الذي كان يدخن الغليون بالجلوس أمامه على رأس المائدة من الجهة الأخرى، ليطيعه "شادي" رغمًا عنه، ومن ثم أشار الرجل إلى السيدة التي كانت على يمينه لتبدأ الكلام:

-قريت الروايه؟

-رواية إيه؟

قالها "شادي" في تحفظ، ليجيبه رجل مسن:

-الروايه الجلدية .... الصندوق.

-أنا ملقتش الرواية في الصندوق.

قالها "شادي" قبل ان توضح هي:

-أنا سيبتهالك في درج مكتبك.

تذكر "شادي" ونظر إلى الرجل الذي أمامه وأجاب:

-مع "مصطفى"، أخويا وصاحبي.

سكت لحظة ثم تابع:

-هي فيها إيه؟

وقفوا جميعًا، بينما اقتربت إحداهم منه وهمست وهي تمسك بيديه، ليشعر "شادي" بدفء قلبها.

-لازم تقراها، ولازم يا "شادي" تكمل كتابه، كلنا مستنينك.

قالتها وانصرفوا جميعًا، ليظل "شادي" حائرًا وأخرج هاتفه وحاول الاتصال بـ"مصطفى" ولكن الأخير كان هاتفه مغلقًا.

-"شادي" بيه.

قالها موظف البوفيه والذي كان من المقربين لـ"شادي" حيث كان نادلاً في السابق في المقهى الذي كان يكتب فيه روايته الأولى، قبل أن يطلب العمل مع "شادي" الذي كان يثق به كثيرًا.

-في حاجه يا "شادي" بيه؟ أجيب لحضرتك حاجه تشربها؟

-آه يا "عاطف".

قالها "شادي" ثم لاحظ أن قهوته لم تزل موضوعة أمامه، فابتسم وقال:

-هاتلي ميه، ميه بس يا "عاطف".

-حاضر يا "فنان".

قالها "عاطف" وقبل أن ينصرف أضاف "شادي":

-بقولك إيه، هاتهالي في مكتبي.

-ولو عايزها في مصر حضرتك.

ابتسمت وتابعت:

-ومتدخلش عليا حد.

ابتسم "عاطف" واقترب من "شادي" قائلاً:

-إنت ناوي تبدع وتكمل كتابه ولّا إيه؟

-شكلي كده، طالما كلكم عايزين كده، بس بقولك إيه، مش عايز مخلوق ياخد باله.

ابتسم "عاطف" وقال:

-مخلوق يعني المدام.. صح كده؟

ضحك "شادي" وأجاب بالإيجاب، ثم توجه إلى غرفة المكتب الذي سُطرت منه كلمات الحكاية، جلس وحاول البحث عن قلم كعادته دون فائدة، حتى تذكر الدرج السحري الذي فتحه

"مصطفى" ليجد قلمًا حبريًّا، فابتسم ووضعه أمامه، وظل يرمق الأوراق وهو خالي الفكر، حتى قاطعه "عاطف" بكوب الماء، وبعض "الكيك" الذي صنعه بنفسه.

-عمايل إديا وحياة عنيا.

-تسلم يا "عاطف"، بقولك إيه اقعد ثواني.

جلس "عاطف" وقال ساخرًا:

-محتاج أفكار ولّا إيه؟ مش معقوله تسرق مني كل حاجه كده.

-طب تصدق بقى أنا فعلاً محتاج أفكار.

-طب قولي عايز تكتب عن إيه؟

-ما هو ده اللي أنا بفكر فيه يا حيوان.

-ماشي يا عم الله يسامحك، بكره أهاجر من البلد ومحتاجلكمش.

-تهاجر؟

-آه يا باشا، حلم عمري، اللهم هجره من البلد دي.

حزن "شادي" وأضاف معلقًا:

-عارف يا "عاطف"، إنت بلدك خساره فيك، عشان في ناس بتطرد من بلادها وبيقعد ولادها وأحفادها ملهمش هدف في الدنيا غير إنهم يرجعوا الوطن، ده يا "عاطف" أهم حاجه في الدنيا.

علق "عاطف" ساخرًا:

-زي الست؟

اندهش "شادي" وأجاب موافقًا:

-أول مـره تقـول حاجـه عـدله مـن الصـبح، السـت هـي الحاجـه الوحيده اللي ممكن تعوض الوطن.

-خلاص يا سيدي، اللهم هجره مع واحده ست.

-تصدق إني غلطان إني بضيع معاك وقتي، إطلع برا يا حيوان.

-ألله! مش حضرتك اللي ندهتني؟

-أيوه ندهتك عشان عايز أكتب ومش لاقي حاجه أكتبها، مش إنتوا اللي بتقولوا عليا كاتب وعايزني أكتب؟ أكتب إيه بقى؟

ضحك "عاطف" وقال:

-إكتب أي حاجة، أهو كله "حبر على ورق"

- لا يا عاطف! لازم أحترم الناس اللي عايزني أكتب.

- طيب ما هي محلوله، إكتب عن كل واحد عايزك تكتب، إكتب عليهم واحد واحد.

ابتسم "شادي" وشعر بالدماء تجري في عروقه.

-تصدق إنت أحيانًا بتقول كلام كويس.

-عجبتك؟

قالها "عاطف" مبتسمًا.

-حقيقي جميله يا "عاطف"...إطلع برا يا حيوان.

قالها وهو يضرب على المكتب آمرًا، ليختفي "عاطف" بعدما اطمأن أن "الوحي" قد زار صديقه، الذي أمسك القلم وكتب.

رواية "واحد واحد" نظرًا لأنها ستتعلق بكل "واحد فينا"، ومن هنا ستبدأ الأحداث، التي ستكون مأخوذة عن أحداث حقيقية.

كتبها "شادي"، ثم ابتسم شيطانه ليعدل الجملة بخبث واضح ويكتب: "مستوحاة من أحداث حقيقية"، قبل أن يعدلها شيطانه مرة أخيرة لاغيًا كلمة "حقيقية" ليكتب الشيطان في صفحة جديدة:

"الرواية مستوحاة من أحداث واقعية"

فلعلها تكون غير ذلك!..... ليكتب:

"سنة جديدة ستمر على عمري الفارغ، وقد قررت أن أدون فيها أحداثها إن وجدت، لعلي أستفز أيامها بسؤالي."

***

-آلووو!.

-أيوه يا "ليلى".

-إنتي فين يا "نانسي"، الدنيا مقلوبة هنا في مصر...

- فيه إيه خير؟!

- بيقولوا هيعملوا في مصر ثورة زي بتاعت "تونس" يوم 25..

-يا شيخة اتلهي! عمومًا أنا في "غرناطة" لو كدة ممكن أتلكك و ما ارجعش

-أيوه عارفه إنك هناك، وعارفه إن النهارده واحد يناير، بس عارفه كمان إنك عارفه إنك ست متجوزه، وعارفه كويس اللي بتعمليه ده إسمه إيه، إسمه خيانه، خيانه يا "نانسي".

-لا، لا يا "ليلى" حرام عليكي!

قلتها وأنهيت الاتصال، فلم أستطع مواجهة تلك الاتهامات. أمسكت قلمًا وفي رواية "شادي" كتبت:

"لست خائنة وإن صدقت...فسأظل خاطية ولو في صمت"

دمعت عيناي وأنا أحاول أن أكتب ما أشعر به بصعوبة، فلست شاعرة وإن عشقت. أمسكت الهاتف وتابعت اتصالي بـ"ليلى" مرة أخرى:

-أنا آسفه يا "ليلى".

-أنا اللي آسفه يا "نانسي" أنا بجد خايفه عليكي مش أكتر.

-عارفه يا "ليلى" بس أنا مش خاينه، أنا أسيره.

لم تستطع "ليلى" أن تدرك الحدث، حتى أضافت بصوت منخفض:

-لغاية دلوقتي يا "نانسي"؟

-أيوه يا "ليلى" كلمات روايته خلتني أحس إني لسه سايباه من

ساعه، وهو لسه فاكرني يا "ليلى". كلام روايته هو اللي بيقول كده.

-فاكرك ازاي يا "نانسي" دي روايه؟ "شادي" اتجوز وإنتي متجوزه، كان الموضوع أسهل كتير زمان، لازم تنسي يا "نانسي" لازم تنسي.

-أنا بنسى السنه كلها يا "ليلى" وبفتكر اليوم ده بس.

-يعني هاتفضلي كل سنه تروحي نفس المكان كده؟!

-أيوه يا "ليلى"، هافضل كده طول عمري، ماتستكتريش عليا اليوم ده.

-يا حبيبتي إنتي اللي صعبانه عليا.

سكت وأنا ألمح البيت الذي كتبته، قبل أن أطلب من "ليلى" طلبًا هي الأخرى.

-"ليلى" ممكن أطلب منك طلب؟

-طبعًا يا حبيبتي.

-عايزاكي تكتبي حدوتي، نفسي أقراها منك، إنتي زي "شادي" موهوبه أوي وعندك إحساس.

ضاحكة أجابتني "ليلى":

-وهو إنتي كل يوم هاتكتشفي حد فينا؟ إفتحي دار نشر أحسن.

-واللي يرجع؟

-إنتي مجنونه.

-وإنتي أطيب واحده في الدنيا.

أغلقت الهاتف وأنا أنظر إلى الورقة الأخيرة في رواية "شادي" والتي كتبت فيها أبياتي:

لســـت خائنة وإن صـــــدقت فسأظل خاطية ولو في صمت

أقــف حائـــرة وإن نطـــقت فبكفر جاهرة بأبغض صوت

ففي لحظة عابرة قد أســـرت يا ربي نادمة عما اقترفت

تـوقف "مصطفى" عن القراءة مشتت الذهن، فلقد قرأ لتوه ما كتبت "نانسي" متسائلاً: من هو كاتب تلك الرواية، أهي "نانسي" أم هذا ما كانت ترغب هي به وكتبته صديقتها "ليلى"؟ وفي كلتا الحالتين استوقف "مصطفى" التاريخ المدون على مكتبه، فلقد كـان السـابع والعشرين من ديسمبر، مما يعني أن "نانسي" -وإن صدقت-ستكون في انتظار "شادي" قريبًا في الأندلس. حقًّا كان الحمل على كاهل "مصطفى" عظيمًا.

*** ***

أنا الراوي وأنا الكاتب وإن كنت لا أعلم من أين أبدأ، هل أقص جنونـي، أم أقـص واقعـي، فلـم أعـد أتحملـهم، لـم أعـد أستطيع الهروب منهم أو حتى مواجهتهم، وإن كانوا (هم) يُحاصرونني، فإنـه ورق جـدي، الـذي يُلقنني الكـلام، لأستخرج من كانوا في أعمـاقي مـن داخـل تلـك المـرآة السـاحرة التي تُظهر ما يُخفي

الأحدب.

*** ***

الفصل السادس

وصلت العربة إلى محطتها الأخيرة، في مكان ما أظنه على حدود "باريس"، لينزلنا القائد من العربة ويقيدني ومن تبقى خلف العربة بسلاسل حديدية، ثم تابع السير بخطوات هادئة، حيث بدأت تظهر الساحة العامة والبيوت، ولقد كانت الجماهير في انتظاري، لا أعرف لمَ يكرهونني إلى هذا الحد، أم لعلهم يشبعون فيَّ الكبت! فلقد بدأوا يلقون عليَّ الفاكهة الفاسدة والزجاج الذي كان يؤذيني وينكسر أمام قدميَّ ليمزقها. مئات الأمتار أو أكثر والعربة تمشي بفخر وعزة، وأنا وباقي الأسرى نسير في هوان وذلة، في شوارع ضيقة، زادها ضيقًا الأنفاس الفاسدة التي تحيط الموكب في سعادة بالغة، منهم من يعتلي البيوت، ومنهم من وقف ليبارك بنظراته ذلك الجرم الذي يعارض الإنسانية، بكل ما يمتلكون من سادية، إلا من رحم ربي من قساوسة ومتدينين، يخشون ربهم ويطلبون المغفرة، فنظرت لأحدهم ولصليبه متوسلاً، ليصلي لربه ليخلصني من هنا.

وقع منا من وقع، والسياط تلهب ظهورنا، لنتابع جميعًا سيرنا كالأنعام، حتى انتهت رحلتنا أمام هذا المبنى الضخم الذي لم أُغادر سجنه أبدًا، فلقد دُفنتُ فيه أمدًا تحت الأرض، لم أعرف فيه ليلاً من نهار، ولكني أكملت كتابة روايتي على أوراق جدي السحرية والتي كسوتها بتلك الرقعة الجلدية التي صحبتني من الجنوب ولم أعد أمتلك سواها.

***

كان المكان دافئًا عكس طبيعة الطقس في الخارج، فلقد كانت روح العذراء تصل لقلوب المزارعين، الذين أتوا من كافة البقاع ليصلوا طالبين بركاتها لحماية المحاصيل، فلقد قتل الطقس الكثير من محاصيل "قشتاله". كان مُلاك الأراضي والفلاحون يضيئون الشموع وهم يرتلون آيات الإنجيل في خشوع وهم مصطفون على الأرائك الخشبية، متوسلين للمسيح الذي كان قريبًا من قلوبهم.

من بينهم كان هذا الرجل، الذي خسر أغلب محاصيله وقارب على الإفلاس. كان يرتدي زيًّا غنيًّا ولكنه متهالك بعض الشيء، كان يمسك بصليب على صدره وهو دامع العين، وزوجته تمسك بيده وهي تضم ابنتهما الوحيدة "مريم" ذات الثمانية أعوام بيدها الأخرى.

ساعات من الصلاة والدعاء، صلى الرجل فيها لربه ليرسل إليه من يعينه، حتى يطمئن على ابنته الوحيدة التي سيطمع الجميع فيها بعد موته، ولعل أعداءه سيحاولون قتلها أو استعبادها. ظل يدعو ويصلي، حتى اطمأن لرسالة ربه التي بعثت الطمأنينة في قلبه أن السند قريب، وأن العون في طريقه، طالما حافظ الرجل على تعاليم ربه. اطمأن الرجل وابتسم، قبل أن يخرج مع زوجته و"مريم" إلى خارج الكنيسة والهم يتملكهم. خطوات ثقيلة حتى مروا بالسوق، ولقد كان هناك هذا التاجر الذي يتاجر بالعبيد، كان يضرب ولدًا في سن العاشرة بالسوط دون أن يصرخ الغلام في تحدٍّ لكبريائه، لم تستطع "مريم" الوقوف عاجزة، فلقد ترعرعت على مبادئ الكنيسة، تركت يد أمها وهرعت للتاجر الظالم وحالت بينه وبين الغلام في تحدٍّ، ولقد كان يعلم الجميع "مريم" ويعمل

الجميع حسابًا لوالدها.

في تحدٍّ ظلت "مريم" تنظر في عين التاجر صاحب السوط، بينما الغلام يحتمي بعدلها وهو ينظر إلى أبيها. لحظات حتى شعر الأب برسالة المسيح تهمس في أذنه، ليرفع الرجل يديه، ويقول بإسبانية:

-كف يدك عن الفتى.

-وما شأنك أنت بعبدي؟

-خسئت يا رجل! إلا تعلم أننا خُلقنا أحرارًا؟

-ما علمت وما تبعت كنائسكم، إن كنت تريده حرًّا، فاشتره إن شئت.

نظر الغلام إلى الرجل باستعطاف، رغم كبريائه، فلقد شعر بمودة ورحمة استنفدها صراع هذا الزمان. ليرد الرجل النظرة للغلام ثم ابتسم قائلاً:

-إني فاعلها، وإني للمسيح قد وهبته حريته.

أنزل الرجل سوطه، ووقف الغلام وأمسك بيد "مريم" مخلصته قبل أن يضمه الأب إلى ذراعيه، ولقد كانت رسالة المسيح صادقة، فلقد كان الفتى -رغم صغر سنه-داهية في الفلاحة، ولقد أنقذ الفتى أراضي الرجل الصالح من الهلاك، حتى أنه عاد ليصبح أغنى أغنياء "قشتاله" وظل الفتى مخلصًا لعدل "مريم" مخلصته، عاشقًا لرحمتها، عابدًا لنظراتها التي بادلته العشق، وإن ظل كل منهما على دين.

كانت هي "مريم" وكان الفتى أنا "الهيثم". كان هذا الحب الذي جاب قشتاله، وكان الأب هو حامي هذا الفتى الموريسكي، كان هو من حماني من محاكم التحقيق التي لم تجرؤ على اقتحام منزله، كان الرجل يعرف من أكون، فلقد كنت مختلفًا، حال كل أهلي من "غرناطة"، فلم نكن نذهب إلى الكنائس بانتظام كالجميع. تفوقنا في الزراعة كان يجعل منا محبين للفاكهة عن اللحوم، فكنا أكثر رشاقة وصحة، كما كنا نعشق الرقص، ونتراقص يوميًّا، حتى ابتدعنا رقصة "كل فلاح منكم" والتي اشتهرنا بها في ربوع قشتاله، وإسبانيا ككل، وأنا كنت من أبرع هؤلاء الراقصين. كنت غرناطيًّا، كنت موريسكيًّا، بل كنت مسلمًا، فلقد كان مسلمو الأندلس هم من صدروا الفنون والغناء من "بغداد" إلى كل أوروبا، وقد كان الرجل يعلم ما في قلبي ولم يمانعه، فلقد كان عادلاً رحيمًا، كما كانت زوجته، التي عوضتني أمي التي لم أسمع عنها منذ تركت "غرناطة". كانا مثالاً للقلوب النابضة بالحياة، كانا أوفى الناس، كانا والدي "مريم".

بينما أكتب دخل الحارس إلى سجني الذي لم يكن يستوعب أكثر من مكان نومي، والذي كان هو مكان قضاء حاجتي، دخل كارهًا لرائحتي التي لم أعد أميزها، ثم ترك لي بعض بواقي الطعام أرضًا ليهرع صديقي الوحيد بالزنزانة ليبدأ في تناول الطعام، فانتظرت حتى انتهى الفأر من وجبته، لأبدأ في وجبتي، بينما سمعت هذا الحارس الفرنسي من الخارج يقول:

-ستُحاكم أيها الحثالة..... ستُحاكم في "الأول من كانون الثاني".

***

(١٣)

من داخل غرفة مكتبي، ومن جانب المرآة التي تعكس حقيقتي، كنت لاأزالُ أتابع سرد قصتي و"نانسي" التي شجعتني على الكتابة، كما فعلت مع "شادي"، ولكن هل سأفلح أنا كما فعل هو؟

-ماماا.

قالتها "رغدة" ابنتي الوحيدة قاطعةً حبل أفكاري.

-نعم نعم يا "رغدة"؟

-عايزه أروح.

-هو إحنا لحقنا نعد في المعرض يا "رغدة"؟

-مليش دعوه بقى عايزه أروح.

-طيب ليه يا "رغدة" شبطي تيجي معايا؟

-أنا عايزه أروح لـ"تيته".

-عايزه تروَّحي ولّا عايزه تروحي لـ"تيته"؟

سكتت ابنتي لحظة قبل أن تجيب إجابتها النهائية:

-عايزه أروح عند "جدو".

-حاضر يا حبيبتي، سيبي ماما تخلص اللي بتكتبه، عشر دقايق بس وهوديكي لـ"جدو".

-طيب عايزه بيتزا.

-بيتزا إيه دلوقتي بس يا "رغدة"، إنتي لسه متغديه.

-مليش دعوه أنا عايزه أروح.

قبل أن أفقد أعصابي جاءني اتصال من "عمر":

-آلو.

-أيوه يا حبيبي.

-بقولك هو في حد جه يسأل عليا وإنتي مشيتيه؟

فهمت من طريقة حديثه، أن هذا البائع قد وشى بي كما يفعل دائمًا، فلم أرغب في الظهور كاذبة.

-تقصد "شادي"؟

-أيوه "شادي هشام".

-لا أنا نسيت أقولك هو عمومًا كان فاكرنا عارضين المعرض للبيع، وأنا فهمته إنه محصلش.

-ومين قالك تقوليله كده، وليه مارجعتليش؟

-قولتلك نسيت يا "عمر".

-ماما عايزه بيتزا.

-طيب ليه ماسمعتيش منه عايز يشتريه بكام؟

-وأسمع منه ليه يا "عمر"؟ أنا مش عايزه أبيع المكان، إنت عارف أنا متعلقه بيه ازاي.

-عايزه أروح لـ"جدو".

-سيبك بقى من الأسلوب ده، ده بيزنس مش قراية فاتحه عشان تقوليلي بحبه يا بابا.

-عايزه أروح لـ"تيته".

-إخرسي بقاا، بكلم أبوكي في التليفون.

قلتها منفعلة، لتبكي "رغدة" وتطلب والدها.

-أنا عايزه أروح لـ"بابا".

-"عمر" أنا ليا في المكان زي ما ليك بالظبط.

-يا سلام، هو إنتي عشان بتقفي فيه ساعتين بقى بتاعك؟ لأ فوقي بقى.

-لا يا "عمر" أنا دفعت كتير في المعرض ده، وياما بعت من سيغتي عشان مايقفلش.

-طيب ما إنتي عارفه أهو إنه واقف علينا بخساره.

-"عمر"..

-"ليلى" هاكلمك بعدين أنا عندي شغل تاني.

-ماما عايزه أروح.

دمعت عيناي، وضممت "رغدة" فلقد كانت الشيء النقي الوحيد في حياتي.

-حاضر يا حبيبتي هانرجع سوا.

***

-حاجه تقرف.

-مالك بس يا "عمر"؟

-ما إنتي سامعه يا "هدير" المكالمه، ست غبيه بتفكر بتخلف، مُصِرَّة ترجعني ورا، لأ وكمان هاتطلع نفسها شريكه في المعرض.

-إنت اللي اخترت غلط من الأول يا "عمر"، مش دي الشريكه اللي إنت كنت بتحلم بيها؟

نظر "عمر" إلى "هدير" التي كانت في كامل زينتها. فقد كانت ترتدي تنورة حمراء قصيرة لتظهر بياضها، وقميصًا أبيض، فُتح ليظهر شق صدرها الذي غرقت فيه تلك القلادة الذهبية إسبانية الصنع، بينما تطاير شعرها "المموَّج" حول نظارة الشمس التي أخفت بها سوء نظراتها. كانت "هدير" تثيره كثيرًا، خاصة بعدما تزوج، فلقد بات يعرف الكثير عما كان يجهله، أما هي فلقد باتت أكثر إثارة منذ انفصالها عن زوجها، وكأنها ترسل للعالم رسالة بحسن اختيارها للطلاق، لتعيش في حرية وانفتاح، ولعلها لو كانت بنفس العقلية منذ شهور لما انفصلت.

كانا يتبادلان النظرات الساخنة، حتى كادا ينسيان أنهما في مكان مفتوح، فلقد كانا في إحدى الكافتيريات الواقعة على شاطئ

البحر في "جليم". والتي لم يفصلها عن المياه سوى هذا السور الخشبي الأبيض القصير، كانا ينتظرانه ليعقدا الصفقة التي كانت ستهلك "ليلى" لا محالة.

-أستاذ "عمر"؟

-أهلاً أهلاً، أستاذ "شادي" صح؟

-أيوه يا فندم "شادي هشام".

قالها "شادي" وهو لا يزال واقفًا في أدب، ليقف "عمر" ويحييه باحترام. كان في كامل هندامه وهو يرتدي بذلته ورابطة العنق السوداء، بعكس "شادي" الذي كان قد ترك رابطة عنقه في سيارته.

-تشرفنا يا فندم "عمر ثابت"، ودي مدام "هدير" شريكتي.

-أهلاً يا فندم.

قالتها "هدير" وهي جالسة، مشيرة له بالجلوس.

-أهلاً بحضرتك.

سكت "شادي"، فلقد كان متعجبًا من الدعوة، حتى بدأ "عمر" في فك طلاسم الدعوة.

-أنا كان المساعد بتاعي قاللي إنك جيتلي المعرض، مظبوط؟

-حقيقي فعلاً يا فندم، وكنت قابلت مدام حضرتك.

قالها "شادي" وهو يشعر بحرج من تقارب "هدير" لـ"عمر".

-"ليلى"!!

قالها "عمر" ساخرًا.

-"ليلى" دي ست بيت، بس أنا بخليها تتسلى شويه، بس في البيزنس الكلام معايا أنا.

أحرج "شادي" رغم أن الحوار كان يصب في مصلحته.

-طيب مفيش مشكله، أنا فعلاً مراتي حابه تاخد المكان ده بالذات، واضح إن سمعته كويسه.

-طبعًا طبعًا يا فندم، المكان ده أنا أجرته وأنا عيل، ومن كتر المكاسب اللي حققتها اشتريته بعد كده.

-طيب يعني حضرتك بتفكر في البيع؟

-أيوه إحنا حقيقي مستعدين نبيعه.

قالتها "هدير"، ليضيف "عمر":

-أنا ومدام "هدير" عندنا مشاريع مستقبليه، وحقيقي ممكن نبيع لو العرض مغري بجد، واضح إنك سألت وعرفت إسم "جاستيك" بقى إيه في السوق.

-والله أنا ماسألتش، أنا مراتي هي اللي سألت، وعمومًا صدقني مش هانختلف.

قالها "شادي" وهو ينظر إلى "عمر" نظرة معرفة كان يجهلها حينها.

***

عدت أنا و"رغدة" أخيرًا للمنزل، عدت مكسورة وكلمات "عمر" تجرح في قلبي. كان الحق معكِ يا أمي، فلقد استهلكني "عمر" كما كان يستهلك الجميع، اتخذ مني مرحلة شارفت على الانتهاء، حاله حال الدنيا، فكثيرًا ما تتخذ منا الدنيا مراحل تستهلكنا فيها، والقليل فقط منا هو من يتخذ من الدنيا مرحلة، يسخرها فيها حسب تقلب أحواله.

عبرت من خلال صالونات المنزل ودخلنا غرفة المعيشة والتي كانت الفراغ الوحيد العصري بشقتنا، والتي كانت مفتوحة على مطبخ صغير وطرقة تضم غرفتينا والحمام، كانت هذه المعيشة هي المكان الذي لا نتركه أبدًا، وكانت صغيرة بالنسبة للأريكة الجلدية الضخمة ذات اللون الأحمر المحشورة فيها، كما كان "عمر" قد طور تلك المعيشة واهتم بها منذ البداية دون غيرها، بدءًا من التلفاز الذي يتعدى الخمسين بوصة، وكمية الإلكترونيات السلكية واللاسلكية التي أمقتها، والتي كانت ملاذه الأهم في المنزل. فتحت التلفاز واخترت قناة كرتونية من التي تذهب عقل الأولاد، خاصة مع الدبلجة المزعجة، حتى أن "رغدة" بدلت لسانها وبدأت في التكلم بلغة فصحى كعادتها.

-أمي إني أريد بيتزا.

-والله يا حبيبتي ومين سمعك.

ابتسمت وضممت "رغدة"، ولقد كان هذا وقت البيتزا، لنطلبها وننتظرها كالصائم الذي ينتظر مدفع رمضان، حتى وصلت، وبدأنا

في التهامها ونحن نشاهد الكرتون في سعادة قطعها "عمر" وهو يفتح باب الشقة، لأسمع خطواته وهو يقترب، حتى ظهر وقد بدا غريبًا مع هذا الورد الذي كان يحمله.

-أبي، أبي أريد الذهاب إلى جدي.

تعجب "عمر" من طريقة "رغدة" وبدأ في عتابي كعادته.

-إيه يا حبيبتي، مش قلنا نبطل الكرتون الغريب ده؟ البت هاتتهبل كده.

-وهو أنا اللي بدبلج الكرتون؟ ما هو مبقاش في حاجه مصري.

قبل أن يعلق، هرعت إليه "رغدة" ويداها وفمها ملطخة بالبيتزا، لينهرها "عمر":

-يا حبيبتي إيه القرف ده إمسحي إيديك وبقك الأول.

قالها كاشفًا عن قسوته أو عمليته المعهودة، لتحزن "رغدة" فهي حساسة إلى أبعد الحدود، لتدخل وتتركنا وحدنا. لم أهتم كثيرًا بما سيحدث، فلقد كنت مشغولة البال بحال "رغدة" فلقد كنت أتخيلها غاضبة أسفل السرير، تحاول مصالحة كبريائها المجروح كعادتها، بينما جلس هو خلفي معانقًا إياي.

-وحشاني يا حبيبتي!

لم أستطع كبت غضبي أكثر.

-حبيبتك؟!

-أيوه طبعًا حبيبتي.

قالها وهو يعطيني الورد الأحمر الذي أحبه، فأمسكته وعلقت:

-من إمتى بتجيب ورد؟ إنت مش كنت مابطقش ريحته؟!

-آه، ما هو ده مالوش ريحه.

كان خفيف الظل كعادته، واستطاع أن يمتص الكثير من غضبي وإن كنت أجهل ما يخفي.

-مش مهم الورد يا "عمر"، المهم هو المعرض، إنت لازم تقدَّر تعبي فيه.

-مقدر، مقدر والله يا روحي، بكره نعمل حاجه أحسن منه.

هنا قد فهمت ما حدث، وعلمت لمَ كان الورد، فتوقفت متيبسة في محاولة مني لفهم ما يرمي إليه، بينما تساقط الورد أرضًا بعدما ذبل خجلاً.

-لأ، لأ يا "عمر".

في كبرياء توقف "عمر" هو الآخر ليقف فوق الورد المذبوح.

-هو إيه اللي لأ؟

-مش هانبيع المعرض.

في استهزاء تحرك "عمر" ليقف أمامي.

-هو إيه ده اللي مابيعهوش؟ المحل اتباع يا هانم، أنا محدش

يقولي إيه اللي أعمله وإيه اللي معملوش.

لم أتحمل الصدمة، وظللت أضرب صدره بكلتا يديَّ بكل ما أوتيت من قوة، حتى أمسك يديَّ من المعصم وهو يسقطني، لأجلس على الأريكة، بينما كنت أحاول التخلص منه بقدمي، إلا أنه كان أقوى من أنوثتي.

-إنتي اتجننتي يا هانم، بتمدي إيدك على جوزك؟

-إنت مش جوزي، أنا عايزه اتطل.....

لم أستطع التلفظ بها وعينا "رغدة" تستعطفني ألا أفعل، فلقد كانت واقفة في الطرقة على بعد أمتار قليلة بعدما أزعجتها الضجة. كانت دموعها الحبيسة كافية، كانت كافية لأتلقى سهام الغدر عنها. ابتسمت لها بينما "عمر" ينهرني بكلتا يديَّ، حتى لاحظ استسلامي كالجثة الهامدة وقد كنت، فلم أكن أشعر بقلبي ينبض كما كان. كان الحزن قد تملكني، فلقد استعمرني وامتص خيراتي كلها!

لاحظ "عمر" وجود "رغدة" فتوقف هو الآخر وتركني، وحاول الاقتراب من "رغدة"، ولكنها عادت أدراجها إلى غرفتها أسفل السرير بعدما أغلقت الغرفة. أسرع "عمر" إلى الباب المغلق محاولاً فتحه، ولكنها كانت قد أوصدته بدهاء رغم صغر سنها، فلقد كانت خائفة وهاربة، ليزداد غضب "عمر" وهو يحاول طرق الباب بعنف.

-"رغدة" إفتحي لبابي يا حبيبتي، أنا كنت بهرج مع مامي.

توقف "عمر" عن الطرق، ليتوقف أمامي وهو قد تحرر من هندامه

ورابطة عنقه التي تخفي عدم تحضره وغوغائيته، نظر إليَّ ثم إلى روايتي الجلدية التي وقعت من حقيبتي أرضًا إثر العراك.

-لسه قدامك شهر في "الجاليري"، وممكن تبدئي تركزي في روايتك، أنا مبقاش عندي مانع تنشريها لو عاوزه.

كانت جملته الإيجابية الوحيدة، لعله حاول التقليل من ظلمه، قالها وذهب من حيث أتى ليتركني أتحسر على المعرض الذي كُتب عليَّ تركه قبل العام الجديد 2017، استفقت أنا من حزني وذهبت إلى الباب وفتحته بالمفتاح الذي كان خارج القفل، والذي كنت أضعه دائمًا للطوارئ، ولعل "عمر" لم يكن يعيش معنا الوقت الكافي ليعلم ذلك، أو حتى يلاحظه.

***

خرج "عمر" وهو يعلق همه على شماعة زوجته، ليجعل من الموقف سببًا ودافعًا لما يدفعه إليه ضعفه، ليخرج الهاتف ويتصل بـ"هدير":

-هي ليه واقفه دايمًا في طريق نجاحي؟ هي مش عارفه إني موتي وسمي اللي مايفهمش مصلحتي وشغلي؟

-قولتلك يا "عمر" إنك اخترت غلط، إنت محتاج حد قوي يقف جنبك ويحقق طموحك.

ظل "عمر" يفكر في كلماتها وهو يشعر بالندم، فلقد تمسك بأضعف الخيارات حينذاك. ترك حبيبته الأولى التي كانت تغار من عمله ومن "هدير"، ثم ترك "هدير" هي الأخرى من أجل "ليلى"

التي أصبحت الآن مرحلة وانتهت.

***

ذهبت "نانسي" إلى مدرسة الرقص بـ "لوران" والتي كانت تهرب دائمًا إليها من همها، لم تُراقص أحدًا كعادتها، فهي لا تجد من يستطيعا مُجاراتها، لتظل ترقص وحيدة داخل تلك القاعة طارقة الأرض بغضبٍ مع تمايل فستانها الأحمر لتُدهش الجميع حتى لاحظت هذا الأحدب الماهر الذي يتجنبه الجميع، لاحظته وبالفعل كانت قد رأته

*** ***

-يا "هدير" الرواية فيها كل حاجة وحتى بأسمائنا.

-بس (هي) يا "عمر" كانت هاتعرف ازاي كل الكلام ده، أنا عمري ما اتكلمت مع حد.

- ما يمكن (هي) تبقى (هو)؟

*** ***

(١٤)

لم أكن أدري ماذا أفعل! خرجت من شقتي وأنا أحمل "رغدة"، ثم صعدت إلى شقة أبي، الذي كان يتوقع تلك الأحداث منذ الخِطبة. طرقت الباب ففتح والدي وهو يدخن غليونه القديم الذي كنت أعشق رائحته منذ صغري، لاحظ أبي هروبي من نظراته، دخلت وأنزلت "رغدة" التي تراقصت فرحًا ليحملها جدها في لهفة.

-عروستي الصغيره.

-بحبك يا جدو.

-طيب بصي بقى خشي أوضتي هاتلاقي لعبه كبيره جدو جايبهالك، إفتحيها لغاية لما اجيلك؟

فرحت "رغدة" ودخلت، بينما حدق فيَّ أبي، وأمسكني من معصم يدي واتجه بي إلى غرفة نومي القديمة.

دخلت الغرفة، وشعرت بالأعوام التي هربت مني وكأنها ساعات قليلة. جلس أبي على سريري القديم، لأتجه أنا إلى كرسي التسريحة المفضل لديَّ.

-لأ تعالي هنا.

علقت متعجبة:

-آجي فين؟!

-تعالي هنا.

توجهت إلى أبي الجالس على السرير، ليمسك بيدي مرة أخرى، ثم ضمني لأجلس على رجليه كالطفلة الصغيرة.

-هاتتكسفي مني ولّا إيه؟

ضحكت وقلت في خجل:

-لأ بس أنا كبرت خلاص يا بابا.

-لأ يا حبيبتي تكبري على الناس كلها، إلا أبوكي، ده أنا مسكتك بكف واحد وإنتي عيله هبله صغيره.

-ربنا يخليك يا بابا ويطولي في عمرك.

-أهي دي الدعوه الوحيده اللي ملهاش لزمه، العمر مكتوب يا "ليلى"، وأنا لو كنت عايش فأنا عايش عشانك إنتي وبنتك.

-يا حبيبي، والله بموت فيك.

-عارف، وعشان كده عايز أفهمك حاجه أمك مكنتش هاتقولهالك.

في تعجب تساءلت:

-إيه يا بابا؟!

-كل الأمهات بيحبوا يشوفوا بناتهم في بيوتهم، لكن الأبهات حاجه تانيه، الأبهات يا "ليلى" بيحبوا يشوفوا بناتهم راسهم مرفوعه.

ضممته وأنا أشعر بالسند الحقيقي في الدنيا، وعلمت لمَ كنتُ أصدِّر تلك المشاعر للناس، فحنان أبي كان فائضًا لأصدره لغيري.

-أنا راسي مرفوعه طول ما إنت معايا.

-مش كفايه يا "ليلى"، لازم توعديني إن راسك تفضل مرفوعه علطول.

-حاضر يا بابا.

-إوعديني.

مسحت دمعتي ووعدته.

مسح "مصطفى" هو الآخر دمعه الذي بلل صفحات الرواية الجلدية، عندما تذكر والده، قبل أن يتابع القراءة.

-حاضر، حاضر يا بابا.

-وعايزك تعرفي حاجه مهمه جدًّا، أي قرار هاتحتاجي تاخديه، أبوكي هايبقى في ضهرك فيه.

-عارفه، عارفه يا بابا.

وقفت وقبَّلت رأسه، وقلت له:

-طيب يا بابا، أنا هاسيب "رغدة" عندك وهاروح لـ"نانسي"، محتاجه أغير جو.

-براحتك يا حبيبتي، ماتخافيش، وخدي وقتك، أنا فاضي النهارده، ماتخافيش.

استوقفني أبي عندما اقتربت من الباب، قائلاً:

-ليلى، إفتكري، أنا في ضهرك علطول طول ما أنا عايش، وفي أي قرار صح لازم يتاخد، وده بجد مش مجرد "حبر على ورق".

كم هو عظيم أبي!

-"ليلاаа".

ناداني أبي مرة أخيرة:

-نعم.

-بقولك إيه، خلي الكلام ده بيني وبينك.

ابتسمت من مداعبته قبل أن يضيف:

-إن الله حليم ستار.

حقًّا هو رجل بكل ما تعنيه الكلمة من معاني، والله ليكفيني هو عن رجال الدنيا. تركته وخرجت. لم تكن سيارتي موجودة، فعرفت أن "عمر" قد أخذها كالعادة. لم أكن بارعة في القيادة على أية حال، أشرت لتاكسي أصفر قديم:

-تاااكس.

توقف تاكسي قائده أربعيني أحدب الظهر وابتسم لي قائلاً:

-على فين يا آنسه؟

ابتسمت لمجاملته وأجبت:

-جليم.

-إتفضلي يا سيتي، ولو عايزه تروحي مصر، إتفضلي.

-شكرًا.

كانت شركة "أنس" و"نانسي" تقع في جليم، وكان قد مر على آخر زيارة لهما أكثر من ثلاث سنوات، فلقد انشغل كل منا في حياته، حيث اهتمت "نانسي" بشركة "أنس" بعدما شاركته، وقد أصبحت الشركة تضم أكثر من خمسين موظفًا، بعدما اقتصرت على بضعة

أشخاص في عهد إدارة "أنس". دقائق ووصلت إلى هناك، كان الليل قد حل، ولكني كنت أعرف سياسة "نانسي" حيث العمل يمتد لمنتصف الليل، وكان الموظفون يتقاضون مرتبات عالية وكافة حقوقهم ليصمدوا مع طموح "نانسي" التي لا تكل ولا تمل من العمل، فلم تنجب بعد، رغم ضغوط "أنس" الكبيرة.

-شكرًا يا فندم.

-تحبي أستنى حضرتك؟

-لأ شكرًا.

كان لشركة "نانسي" مدخل خاص بجرس بلاستيكي صغير، ضغطت عليه، لينفتح الباب أوتوماتيكيًا، بضع خطوات وكنت في صالة استقبال العملاء. وهي صالة حديثة الديكورات، تتسم بالألوان الداكنة، وأرضيات الجرانيت الباردة، كان لـ"أنس" مكتب زجاجي صغير في الطابق الأرضي، بعدما ترك لـ"نانسي" مكتبه في الطابق العلوي، انتبه "أنس" لوجودي فخرج ليحييني:

-إيه الأنوار دي، "ليلى" بنفسها عندنا؟!

-إزيك يا "أنس"؟ عاش من شافك.

كان شعر "أنس" قد بدأ في الانحسار ومعه الكثير من بريقه، وكأنه شاخ فجأة، أشار إلى سكرتيرة شقراء مثيرة وجميلة، لدرجة أشعرتني بالغيرة.

-والنبي بلغي "نانسي" إن مدام "ليلى" جت وإن إحنا طالعينلها.

-حاضر يا فندم.

توجهت السكرتيرة للهاتف، بيديها ذات الساعة الحمراء المميزة، بينما اصطحبني "أنس" لأعلى.

-فين الواد "عمر" أمال؟ مش بيظهر خالص.

توقفت لحظة، وسألته في جدية لاحظها:

-هو مش كان معاك أول الأسبوع؟!

تلعثم "أنس" وأجاب كاذبًا بوضوح:

-آه، آه طبعًا عشان المشاريع الجديده، هو بس بيوحشني علطول، إتفضلي إتفضلي وقفتي ليه؟

وصلنا إلى الطابق الأعلى وكان فخمًا جدًّا، حيث كانت الأرضية من الجرانيت اللامع، بينما كانت أغلب الأبواب زجاجية، وغطي جزءًا منها لستر الموظفين.

فتح "أنس" الباب دون أن يطرق، لأسمع غضب "نانسي" من الداخل:

-في إيه يا "أنس" مش تخبط؟ خضتني يا أخي.

أحرج "أنس" حتى ظهرتُ، لتتغير ملامح "نانسي" وتقف.

-أنا مش مصدقه إنك جيتي.

ذهبت لأقبلها قائلة:

-ما أنا كلمتك يا بنتي.

-طيب ما إنتي ياما كلمتيني، يالّا يا جماعه براءة النهارده.

قالتها للموظفيْن اللذين كانا جالسين أمامها، ليقفا وينصرفا، ثم أشارت لي "نانسي " إلى ركن صغير يحتوي على أريكة وكرسيين من الجلد وقالت:

-تعالي بقى نقعد هنا.

قالتها ثم توجهت لـ"أنس" قائلة:

-"أنس" معلش كمل مع بتوع "الماركتنج" إنت والنبي عشان أقعد مع "ليلى".

-طيب يا سيتي حاضر، عشان خاطر "ليلى" بس، أنا كنت مروح.

-يا شيخ اتلهي، يعني إنت وراك إيه؟

شعرت بضعف "أنس" فتدخلت:

-معلش يا "أنس" عشان خاطري أنا، أنا عارفه أشغالك.

-ماشي يا "ليلى" يالّا أنا تحت لو احتجتوني.

جلسنا وخلعت "نانسي" حذاءها ذا الكعب العالي، فلقد كانت أرضية مكتبها من الموكيت الأحمر الدافئ.

-وحشتيني يا كلبه.

-ليه قلة الأدب دي يا "نانسي"؟ إنتي بقيتي سيدة أعمال.

-يا شيخه بلا قرف.

قالتها وفتحت التلفاز، بينما طرق الباب، فصرخت "نانسي":

-أيوه مييين؟

في صوت منخفض أجابت السكرتيرة:

-أنا يا فندم.

-آه، تعالي تعالي.

دخلت السكرتيرة المثيرة، واقتربت من "نانسي" قائلة:

-معلش يا مدام "نانسي" كان في حاجه صغيره عايزه أقولهالك قبل ما أمشي.

قالتها وسكتت وهي تنظر لي نظرة ذات معنى واضح، لتتدخل "نانسي " قائلة:

-إتكلمي دي مدام "ليلى" أختي.

في "سهوكة" أجابت السكرتيرة بدهاء وخبث:

-أصل محامي الشركه كان طلب أجازه.

-إمتى؟

-الأسبوع اللي جاي.

-طيب وإيه المشكله؟

-المشكله إن "أنس" بيه وافقله عليها، وحضرتك كنت نبهتي إن الأجازات لازم تتمضي من حضرتك.

سكتت "القرشانة"، بينما ظلت "نانسي" شاردة قبل أن تجيب:

-إلغي الأجازه.

في منتهى "السهوكة" قاطعت "القرشانة" "نانسي" مهدئة إياها بتملق ملحوظ:

-بس يا فندم.

-مابسش ولا حاجه، إسمعي الكلام.

-تحت أمرك يا فندم، حضرتك تؤمريني بأي حاجه تانيه؟

-لأ يا حبيبتي، إمشي إنتي، وأي حاجه تانيه تحصل، تقوليلي علطول.

-خدامتك يا فندم.

قالتها "القرشانة" وذهبت، بينما ظللت أنا أرمقها في اندهاش.

-إنتي ازاي معينه سكرتيره زي دي؟

-مالها؟

-مش خايفه تخلي واحده زي دي قدام جوزك علطول؟!

-يا سيتي خليها تاخده وأنا ألفهولها.

ضحكنا سويًا قبل أن تضيف:

-"أنس" محترم ملوش في الكلام ده، وبعدين هو كبر على الكلام ده، كان عمله وهو صغير، المهم خلينا فيكي، صحيح اللي إنتي حكيتهولي ده عن "عمر"؟

سكت في حزن لاحظته "نانسي".

-يا بنتي مفيش راجل يستاهل دموع واحده ست.

-إيه يا بنتي، إنتي اتغيرتي أوي!

-إنتي اللي عبيطه، كان مفروض تكتبي الفلوس اللي دفعتيها في الجاليري.

-يعني كنت هاكتّب جوزي شيكات؟

-إيه يعني؟ ما أنا ممضيه "أنس" على هدومه.

-بس إنتي حاجه تانيه.

-ليه يعني؟ إنتي اللي زي القمر.

-لأ بس إنتي حاطه "أنس" في صباعك، أنا "عمر" خدته بطلوع الروح، وهو عارف كده كويس.

-طيب، عمومًا ماتبكيش على اللبن المسكوب زي ما بيقولوا، هو خلاص باع الجاليري؟

-آه، بس قدامه شهر قبل التسليم.

نظرت "ليلى" إلى نتيجة مكتوب فيها نوفمبر 2016.

-يعني قبل ما أسافر.

-تسافري فين؟

قلتها قبل أن أتذكر، فلقد كانت "نانسي" برغم قسوتها على الجميع، رحيمة بقلبها، قلب المرأة الهش فلقد كانت لا تزال على عهدها في السفر لـ"غرناطة" قبل الأول من يناير، لتقضي هذا اليوم هناك وبعد مرور كل تلك السنين.

-هانستهبل بقى؟ بقولك إيه، ماتبصيش وراكي.

سكتت لحظة وابتسمت لي وقالت:

-هاقولك حاجه، أنشري روايتنا، حتى ولو من ورا "عمر".

-لأ ما هو "عمر" مش معترض.

-بجد؟!

-بيحاول يخفف الصدمه.

-طيب خلاص، أنشري الرواية، ولو على حسابي أنا.

-لأ يا "نانسي"، أنا مش هاخدع نفسي، أنا هادور على ناشر كويس، بس...

-بس إيه؟

-خايفه "عمر" يعرف إني بتكلم عليه.

-يا سيتي غيّري الأسماء وشوية أحداث وخلاص.

-هو إنتي شايفه إني ممكن أكتب بجد، ولّا يا دوب بسرد اللي حصل؟

ضحكت "نانسي" قائلة:

-لأ بقى، أنا بقيت مكتشفة مواهب، إسمعي كلامي، إنتي كتبتي عني الكلام اللي أنا كنت عايزه أقوله ومعرفتش.

-يعني هاكون زي "شادي"؟

دارت "نانسي" دمعة وقالت:

-ياه، إنتي لسه فاكره؟!

-فاكره! هو مش إنتي مسافره عشان كده برضه؟

وقفت "نانسي" وتمايلت بجسمها على أغنية بالتلفاز وقالت:

-أنا فاكره الحلم، مش فاكره "شادي"، "شادي" اتجوز وخلف، أنا بالنسبه ليه مش أكتر من حدوته حلوه كتبها في روايه عشان يشتهر، بس الحدوته هي اللي هاتفضل عايشه ومش هاتموت، أنا مسافره أعيش حدوتي، الحدوته اللي عمرك ما هاتفهميها، عشان أنا واحده من المحظوظين أوي في الدنيا اللي عشت اللحظه دي.

قالتها وهي تمد لي يدها لأتراقص معها. ظلت تلف بي وكأني عروس، حتى أني سمعت صوت الأندلس مع طرق قدميها على الأرض.

-وهو مين قالك إنه نسيكي؟

توقفت "نانسي" عن الحركة، وتوجهت إلى تذكار إسباني لراقصة "الفلامنجو" ذات رداء أحمر كان بجوار التلفاز وسكتت، كما سكت أنا لحظة قبل أن أسأل سؤالاً أخيرًا:

-إنتي عارفه مين اللي اشترى المعرض؟

انتهى هذا المشهد، قبل أن تكتب "ليلى" إجابة السؤال ليقف "مصطفى" متوترًا، يريد أن يعلم إذا كانت "نانسي" قد علمت أن "شادي" هو من اشترى المعرض. ظل "مصطفى" يبحث عن باقي الرواية، ولكن الصفحات التالية لذلك المشهد كانت مكتوبة بتلك الحروف العربية التي ظنها "مصطفى" زينة للكتاب كما ظنت "ليلى"، فكلاهما كانا يجهل لغة "الألخيميادو" التي ابتدعها آخر عرب الأندلس.

*** ***

-اشمعنى أنا؟

-اشمعنى إيه؟

-ظهري!! ليه اتخلقت كده، ليه؟

-يعني هو أنا إللي اتولدت أمير؟!...

*** ***

الفصل السابع

في إحدى ليالي الشتاء الباردة، حاولوا الحصول على الدفء بإيقاد النيران، وإن فشلت حرارتها في الوصول إلى صقيع قلوبهم، التي كان ألم الوحدة يمزقها ببطء، وإن ظلت تنبض متمسكة بالحياة، حياة خسرها أصحابها، فلقد صار الأسياد أقلية، فدوام الحال من المحال. ظلت قلوبهم نابضة رغم يأسهم وغربتهم، فسبحان خالق تلك القلوب، التي ظلت بالحب عامرة، لتعزف بدقاتها أنغامًا متمردة، ليترجمها الجسد بطَرق أقدام نسائهم على الأرض، محدثة أنغامًا ثائرة، بغضب وحرقة متراقصين، وهم من واقعهم هاربون، ليبدأ عازف القيثارة في موسيقاه، بينما يبدأ الرجال في تغريدهم باسم المولى "الله... الله"، ومن ثم شاركوا سيداتهم في الرقص، في تناغم متحضر غريب، باحثين عن الوطن بين طَرقات أقدامهم، لعل آهات رسائلهم تصل إلى آذان من يستطيع نجدتهم، فلقد تركهم خليفتهم منذ أكثر من قرن من الزمان، تركهم بعهد انتهك، كل ما فيه من بنود، بنود طار حبرها من أوراق كتابها، ليتنفس سكان الأندلس رقصًا، فهويتهم دينهم، متمسكون بتراث ابتدعوه بإحساسهم، إحساس راقٍ يعكس نبل أخلاقهم، ليتابعوا رقصهم، رقصة "كل فلاح منكم"، أو "الفلامنجو" كما تسمى الآن.

وبينما يتمايلون من آلامهم راقصين، ظهرت "مريم" من بين تلك البساتين، لينتبه إليها "هيثم" من بين الراقصين، ورغم بغض أهل قشتاله لرقص المورسكيين، إلا أنها كانت عكس الكثيرين، فلقد شاركتهم "مريم" رقصتهم الجريحة، لتفاجئهم بطرق قدميها،

ليظل "هيثم" هائمًا بها، حتى لامسته بعينيها، مخترقة حصون ذاته، لتفتن قلبه الغجري، تطرق الأرض بكعب حذائها، طارقة أبواب روحه، ليظل هو ينشد اسم ربه، مسبحًا ببديع خلقه، فلم يدرك أبدًا أن يجد لفؤاده في غربته ساكنًا، بل مستعمرًا! فلقد استطاعت الاستيلاء على كل خيراته، ليضعف ويصير تابعًا، لتتابع طرقاتها، حتى صار الحُر عبدًا، وإن ظل للفظ الجلالة حافظًا، يستغفر ربه عما صار لعقله من مرض، فلقد اتبع عقله الهوى، فكم كان ينتظر تلك اللحظة الممتعة، التي يستسلم فيها كل منا لسيده، وهو في العشق مغرد، قبل أن يستفيق المرء ويدرك، أنه في شباك الأسر مقيد، وأنه رغم أسره محلق، ليركع المأسور لسيده، طالبًا الحبس بمفرده، حبسًا أبديًّا يخلصه!

ظل راكعًا أمامها، بتلك الوردة الحمراء في يده، متناسيًا نظرات الجميع، غير مبالٍ بالحضور، فلقد كان مسحورًا في عالم أحفادهم القادم، ليخفق قلبها القوي برهبة، فلقد طلبها الراكع لنفسه، لتكون زوجته وأميرة لقلعته، فلقد امتلكت "مريم" القشتالية قلب "هيثم" الموريسكي منذ اللحظة الأولى، ورغم اختلافهما، إلا أن شيئًا طاهرًا جمعهما، فحب طاهر هو، لا يحتمل الجدال، حب نقي كالثوب الأبيض، هو فقط في بلاد الأندلس.

أيام قبل محاكمتي، ولا أزال أكتب قصتي أنا و"مريم"، قصة كل عاشق، فللعشق دائمًا ثمن باهظ، فهو أغلى السلع وأندرها، فقليل هم من يستطيعون إيجاده، وإن وجدته فهل ستتحمل عذابه؟ فها أنا ذا أعترف أني قد فشلت، وأتساءل: لمَ خلقت؟ فلقد صرت جسدًا خاويًا بلا روح، فلا تزال روحي في الأندلس، في ذلك البيت الصغير الذي عشت فيه أيامي مع "مريم"، وعلى عكس

أحوال الأزواج، كانت هي مخلصتي وحاميتي، فلقد كانت محاكم التحقيق تبحث دائمًا عن هاجري الكنائس، أو تاركي الخمور، حتى من كان يغتسل، كان يُلاحق بالحرق والتعذيب، ولكني كنت متزوجًا من "مريم" التي لم يستطع القادة التعدي على أراضي أبيها الذي صار من أغنى أغنياء قشتاله، وإن لم يتكبر عليَّ أو ينهرني، بل استأمني على ابنته كما استأمني على أراضيه، لم يعاملني أبدًا كعبد، بل كان أبًا صالحًا، ومعلمًا فاضلاً، ولكن عند موته، صار بيتنا مشاعًا، فلم يحق لنا حتى إغلاق بابنا، بل كان حق القادة أهم في التفتيش، ولكن ظلت "مريم" تخدع الجميع، فلقد كانت تدخل الخمر ولحم الخنزير إلى الديار دون أن تطعمني إياهما، محاوِلةً خداع الجميع، ولكنها كانت تعلم أن نهايتي ستكون قريبة لا محالة، ولكنها صمدت حتى رزقنا الله بـ"علي" أو "ماركوس" كما سميناه، والذي أكملت معه رحلة أبي معي، وبمساعدة زوجتي "مريم"، التي لم تتفهم يومًا صراع هذه الأديان، فعندما قمت قهرًا بتعميد "علي" في الكنيسة، ساعدتني "مريم" في تغسيله بالماء الساخن، لإزالة آثار التعميد، حتى أني شعرت أن كلانا قد جُرح.

وكلما كان "علي" يتعلم حرفًا أعجميًا في الكنيسة، كنت أعلمه حرفًا عربيًا خفية، لعله يرث كتابة رسائلنا إلى بلاد المسلمين والتي لم تتوقف منذ سقوط الأندلس.

***

(١٥)

أخيرًا وصل "مصطفى" إلى باقي كلمات "ليلى" بعد أربع صفحات من الحروف العربية التي جهل معناها، ليكمل ما بدأه، ولكن دون أن يعرف إجابةً لتساؤلاته.....................................

خرجت من عند "نانسي" وأنا تائهة، لا أعرف إلى أين عليَّ الذهاب! فلم أرغب في التواجد في المعرض، كما أني كنت بحاجة للتأكد من شيء ما، وبينما أنا ما زلت أفكر، لاحظت صاحب التاكسي لا يزال واقفًا ينظف سيارته، فأشرت له فهرع إليَّ.

-أنا قلت أطوق العربيه، يمكن حضرتك تحتاجيني.

-يا سلام!، ده أنا حظي حلو.

-إتفضلي، إتفضلي يا فندم.

أشار لي بالركوب، وترك كوبًا من الشاي كان يشربه على الرصيف، وأشار إلى صاحب مقهى قديم بأنه ذاهب.

-على فين يا فندم؟

سكت أفكر لحظة قبل أن أحسم قراري.

-"شارع فؤاد".

-ولو عايزه تروحي مصر حضرتك.

-الله يخليك، إنت إسمك إيه؟

-محسوبك "عاطف".

-أهلاً بيك يا "عاطف".

تحرك بي "عاطف" حتى وصلت إلى "شارع فؤاد"، كنت أبحث عن هذا المطعم الذي لطالما علمت طموح "عمر" في اقتنائه.

-قدام شويه يا "عاطف".

وصلت إلى مسرح "سيد درويش" ووجدت المطعم ومن ثم وجدت سيارتي بالفعل. هرعت خارج التاكسي، وصرخت في "عاطف":

-استناني هنااا.

دخلت إلى ذلك المطعم ذي الطابقين، مسحت الطابق الأول بنظري، فلم أجد إلا بعض المتحابين بين أركانه، اقترب مني النادل، فلم أعره انتباهًا، وتحركت ناحية السلالم وصعدت لأجد ضالتي، فلقد كان "عمر" يضحك، وكان هذا طبعه، كان يحتضن "هدير" وكان هذا خلقه، كان يسكر وكان هذا دينه.

لا أعلم ماذا كنت أتوقع غير ذلك، هل كنت أتوقع أن أراه يتعبد؟! لم أهمس بكلمة وانسحبت، وقد علمت بعدها أنه تملك هذا المطعم بمشاركتها، تلك الأفعى التي لطالما كرهتها منذ اليوم الأول. توجهت بخطواتي إلى الخارج، لأجد "عاطف" يبتسم.

-خير يا "مدمازيل"؟

ابتسمت رغم همي وأشرت إليه بأن ينصرف، فامتنع رغم أني حاسبته.

-أطمن على حضرتك الأول، شكلك تعبانه.

-طيب بص أنا هاتمشى خطوتين لغاية المكان اللي رايحاه.

-طيب أوصل حضرتك؟

-لأ شكرًا.

-طيب والله أوصل حضرتك ولو مشي.

أغلق "عاطف" سيارته وأوصلني إلى "سانتا لوتشيا" ولقد كانت تلك هي ثاني مرة يفعلها.

ومن داخل "سانتا لوتشيا" أكملت كتابتي وأنا أشعر بطعم الغدر في حلقي، وبسهم الخيانة في قلبي. صعدت السلالم التي كانت كالجبال فجأة، وصلت وقد استهلكت تمامًا، بحثت بعيني عن طاولتي، فوجدتها مشغولة، فأشار لي النادل لأجلس على طاولة في أول المكان، ولكني لا أعرف لمَ زحفت قدماي لذلك الرجل! هذا الرجل الذي لطالما جذبني، بتلك القبعة القديمة التي يرتديها، أو لعلي كنت معجبة بـ"بابيونه" المميز أو بذلاته القديمة، أو لعلي اشتقت لرائحة غليون أبي. اقتربت من الرجل وكأني أعرفه، في جرأة لا أمتلكها. كان الرجل يرمقني بنظرات الشك والحيرة، كان شارد الذهن، كمريض يائس من رحمة الله، جلست بالطاولة التي أمامه لأنظر إليه ومن خلفه الحائط، فلقد كان دائم الجلوس في هذا المكان وكأنه يخاف أن يُضرب من الخلف أو يُغدر به، ظل يـرمقني في دهشة وظللت أبحث عما في داخله، أظنه يتيمًا، أظنه وحيدًا، أظنه فريدًا!

منذ قدومي إلى عالم "سانتا لوتشيا" وأنا أجد هذا الرجل بسحر دخان غليونه الذي يملأ المكان، كنت أشعر دائمًا في وجوده بتلك

المشاعر التي لم أمتلكها يومًا، ولكني عرفتها من "نانسي" في الأول من كانون الثاني.

ولكن خلقي كان دائمًا يمنعني من الجهر بما أشعر، فدائمًا أضع لنفسي سورًا عاليًا أحتمي خلفه، ولكني سأكتب بما أشعر، فلن يقرأ روايتي الكثير. لاحظ الرجل نظراتي، ليقف ويقترب مني في تردد:

-أنا "مصطفى".

قالها الرجل بابتسامة تشبه ابتسامة "يحيى الفخراني" التي أعشقها، لأبتسم، ولكني شعرت برخص خلقي فجأة، ووجدتني ألتف وأجلس على الكرسي الآخر معطيةً إياه ظهري، لا أعلم لمَ جرحته، فأظنه جريحًا لحاله! لاحظت ضيق أنفاسه، فمِت في نفسي، ووددت لأعتذر وأعرِّفه بنفسي، ولكني انتظرت، انتظرت حتى صلب "مصطفى" طوله وذهب بوزنه الممتلئ في طريق السلم وهو ينظر أرضًا. ذهب "مصطفى" وذهب معه ضعفي.

-مدام "ليلى" مساء الخير.

قالها النادل.

-أهلاً.

-طبق حضرتك؟

-يا ريت.

-حالاً "الفيليه بوافر" هايكون جاهز.

-هاتلي لمون كمان.

-حاضر يا فندم.

طلبت العشاء ببرود، بعدما انتهت قصة الحب التي عشتها لثوانٍ، ولكني ظللت شاردة، يا ترى ماذا يحسبني هذا "المصطفى" في خياله؟!

***

توقفت عن القراءة فور أن وقعت عيناي على هذه السطور فكيف لي أن أتوقع أن يُذكر اسمي هكذا، كيف كنت أعمى البصيرة لهذه الدرجة، كيف لم ألاحظها تكتب طوال تلك السنين؟! بل رأيتها، ورأيت تلك الرواية الجلدية معها في كل يوم، وإن كنتِ تتساءلين عما كان في ذهني حينها، فهو كيف لملاك أن يراني! فلقد كنت أجلس هناك طوال أيام السنة دون أن يلاحظني إنسان. كنت كالسراب، فلم يحدثني إلا "شادي" والباقي كانت جملاً ضعيفة لا يكتمل نصابها، وإن كنت أظنكِ مثلهم، ولكنك رأيتني ولذلك أسرتني، لم أعد بحاجة لقراءة المزيد.

-"ليلاااا"

قالها الببغاء فضحكت وأجبته:

-أيوه "ليلى "، إنت ماعرفتش؟ مش "ليلى" طلعت "ليلى". إنت مادرتش؟ مش هو طلع أنا.

-مش "حيزبوووووووووون".

-أيوه مش "حيزبون"، وطي حسك يا "فلامنجو" مش عايزنها تسمعنا.

قلتها وأخرجت بعض الفستق من الدرج ووضعته في قفصه ليدخل، بينما ذهبت إلى غرفتنا لأرتدي أفخر ثيابي.

-بتعمل إيه؟

قالتها "الحيزبون" -حرقها الله-فأجبت:

-هاروح مشوار أخير.

-إيه خلاص هاتموت؟

-يا حول الله، يا سيتي الملافظ سعد.

-ماشي يا "عبعال"، رايح فين؟

-رايح في داهيه.

ما هذا! لقد رددتها، وما هذا! إنها مندهشة، لا تستطيع أن ترد الهدف، حتى اختفت من ناظري واختفيت أنا وظهرت في "سانتا لوتشيا". كنت جالسًا على طاولتها في انتظارها ولكني انتظرت كثيرًا، فلم تظهر "ليلى" وظننتني حالمًا أو مجنونًا. بعد ساعات من الانتظار أخذت قراري وخرجت، سأبحث عن المطعم الذي ذكرته "ليلى" في الرواية، فلو وجدته لتأكدت من عقلي وعدم جنوني، ثوانٍ وكنت قد وصلت كالطيف إلى مسرح "سيد درويش" وظللت أبحث بعينيَّ عن مطاعم من طابقين حتى وجدت واحدًا ظننته هو، فتوجهت إلى الداخل بلهفة.

-مساء الخير!

-مساء النور يا فندم!

-بعد إذنك أستاذ "عمر ثابت" موجود؟

في اندهاش علق النادل:

-أستاذ "عمر"؟! مين حضرتك؟

-صاحب المطعم.

-لأ يا فندم، صاحبة المطعم واحده ست وماسمهاش "عمر".

-ماسمهاش "عمر"!

خرجت من المكان والحيرة تقتلني والصداع يتسرب إلى مخي، فهل كانت بالفعل مجرد رواية.. مجرد "حبر على ورق"؟!

قبل أن أجن، وجدت مطعمًا آخر من طابقين أيضًا، في شارع متفرع، فوصلت إليه، كان ظاهرًا عليه بعض التجديدات السريعة التي طالته في أيام قليلة، دخلت واليأس متملك مني، وكان هذا النادل في استقبالي، ومن خلفه تلك النتيجة التي تشير إلى السابع والعشرين من ديسمبر ٢٠١٦، لأتذكر أنه إذا كانت تلك الرواية حقيقية، فستكون "نانسي" تستعد للذهاب إلى "غرناطة"، ولكني كنت لا أزال أجهل الحقيقة. نظر إليّ النادل وأنا أرمق النتيجة، ثم قطع حبل أفكاري قائلاً:

-تحت أمرك يا فندم.

-لو سمحت، في حد هنا إسمه "عمر"؟

-"عمر" مين؟

-"عمر ثابت".

***

في السابع والعشرين من ديسمبر ٢٠١٦، كانت "نانسي" تجلس عند بيت والد صديقتها "ليلى" تواسيها على فقدان معرضها، الذي استلمه المشتري منذ أسابيع قليلة، وقد قام بافتتاحه منذ أيام، ورغم ذلك لم تستطع أن تقوم بإلغاء سفرها، فلقد كان سفرها مقدسًا بالنسبة لها.

-بصي بقى يا "ليلى" أي حاجه تحتاجيها تكلميني علطول، أنا كلها أسبوع في أسبانيا وراجعه.

-ماتخافيش يا "نانسي"، سافري إنتي بس بالسلامه.

-طيب إضحكي الأول.

لم تستطع "ليلى" مجاراة "نانسي" في تلك الظروف، خاصة بعد ما آل إليه الأمر مع "عمر".

-"ليلى" إنتي لازم تعدي الأزمه دي، إنتي يعني كنتي متجوزه "عمر الشريف"؟

-ماتجيبيليش سيرته والنبي يا "نانسي".

-حاضر، حاضر خلاص، طيب يالّا تعالي أوديكي أي حته قبل ما

أسافر.

-إنتي يا دوب تسافري القاهرة أصلاً، عشان تلحقي طيارتك لـ"مدريد".

-طيب والله ما أنا سايباكي إلا لما أوديكي حته.

-أنا مش لابسه أصلاً، ولو إنتي عندك وقت روحي لـ"أنس" أحسنلك.

-يا سيتي الراجل ما صدق ارتاح مني، بقولك إيه هاندهلك أنكل.

-لا خلاص خلاص على إيه، هالبس أهو إنتي حره.

-هاوديكي فين؟

-هايكون فين؟ "سانتا لوتشيا".

***

-آه، حضرتك تقصد الأستاذ "عمر" صاحب المحل الجديد؟ هو في الدور اللي فوق.

تملكني الأمل فجأة بعدما كان اليأس قد سكن قلبي، فصعدت والسعادة تملأ صدري، برشاقة لا أعهدها على وزني، حتى صعدت وأشار لي نادل آخر لغرفة صغيرة، فطرقت الباب، لتفتح لي امرأة مثيرة ذكرتني بالذي مضى، وأنا أنظر إلى شق صدرها الذي يبتلع تلك القلادة الذهبية.

-أي خدمه؟

-أستاذ "عمر ثابت".

وقف من خلفها رجل يرتدي بذلة ورابطة عنق سوداوين، ذو شارب منمق.

-أهلاً يا فندم.

دخلت متجاهلاً المرأة، في سعادة مبالغة.

-أهلاً أهلاً يا "عمر" بيه.

-أهلاً يا فندم، تحت أمرك.

ظل "عمر" يرمقني، بينما أنا حاولت لمْسه لأتأكد من وجوده حيًّا، وليس مجرد "حبر على ورق".

-في إيه يا حضرت، مالك؟

-لأ، أرجوك ماتفهمنيش غلط.

قلتها ساخرًا، ولكنه لم يبتسم حتى وقفت إلى جواره المرأة قائلة:

-إنت مين؟

-أنا "مصطفى".

تعجبا من ابتسامتي فقلت:

-أصلي جاي أبارك لحضرتك على الإفتتاح.

-إفتتاح إيه؟

أحرجت قليلاً فتابعت:

-هو مش حضرتك لسه شاري المطعم جديد؟

-آه فعلاً.

-طيب أنا جاي أباركلك، إيه رأيك بقى؟

-يا حبيبي إنت مين؟

-طب هي مين الهانم؟

أمسك "عمر" وجهي وأداره إليه بعيدًا عن المرأة وقال:

-يا حبيبي خليك معايا أنا، في عرض دين النبي إنت مين؟

-يا حبيبي ما قولتلك.

-قلت إيه يا سيدي ماتعصبنيش.

-يا سيدي ماتتعصبش، أنا "مصطفى".

-لا حول ولا قوة إلا بالله!

قالها "عمر" ضاربًا كفًّا بكف.

-يا "عمر"بيه أنا هافهم حضرتك كل حاجه، بس سؤال واحد: مين الهانم؟

-يا سيدي الهانم تبقى الزفت مراتي.

*** ***

-إيه الأخبار يا فنان؟

-تمام يا "عاطف".

-بقولك إيه، أعمل إيه في كل الناس اللي برا دول، هو إنت عليك شيكات لحد؟

-لا لا ماتخافش يا "عاطف"، ماتدخلش حد عليا بس، وقولهم إني مش هنا.

نظر "عاطف" من زجاج الباب الذي لا يخفي وجودهم، ثم قال لـ"شادي" ساخرًا:

-طيب ماطلع أقولهم إني أنا كمان مش موجود أحسن.

قاطع الحديث دخول هذه الشخصية الثائرة حرم المكان، ليغضب "عاطف" ويحاول منعه إلا أن "شادي" لم يمانع وأشار إلى "عاطف" بالانصراف، ليظل وحيدًا، تحت أنظار الجميع من خارج الباب الزجاجي، ليعدل الثائر خصلات شعره الطويل الذي بدأ في الانحسار، و(هو) يقول:

-إنت عايز مني إيه؟

لم يُجب "شادي" ليضيف الرجل.

-إنت طول عمرك بتغيير منّي، عشان أنا عندي كل حاجة مش عندك، عشان خدت منك كل حاجة بتحبها.

ظل "شادي" صامتًا وإن جرحه الحوار، ليُضيف الرجل الذي بدأت نبره صوته في الانخفاض.

-مش هاطلّقها، أنا مش لعبة في إيدك.

تحولت نظرات "شادي" إلى التحدي، لتتغير لهجة الرجل الذي قال راجيًا.

-أرجوك، أتوسل إليك.. سيبني معاها، أنا من غيرها ممكن أموت.

لم يجب "شادي" وظل متحفظًا، ليركع الرجل باكيًا:

-طب موتني، اقتلني، خد مني كل حاجة، بس سيبني معاها.

*** ***

(١٦)

وصلت "نانسي" بسيارتها السيات ومعها "ليلى" إلى شارع "سانتا لوتشيا"، قبل أن تتجه إلى القاهرة كما أصرت.

-ميرسي أوي يا حبيبتي.

-على إيه يا هبله؟ أنا لولا الطياره كان زماني طلعت معاكي فوق.

-يا حبيبتي كفايه تعبك، روحي إنتي وتعالي بالسلامه بس.

تركت "ليلى" صديقتها ودخلت إلى عالم "سانتا لوتشيا"، كـ"أليس" وهي تدخل بلاد العجائب، تاركة خلفها "نانسي" التي انتبهت لسوء حظها إلى جواز سفرها الذي نسيته في منزلها، لتكتشف أن عليها العودة إلى "لوران" مرة أخرى لتحضره.

***

دودة الكتب حرامية

-مراتك ازاي يابني آدم؟! دي مش "ليلى".

قلتها بانفعال، لتجيب "هدير" منفعلة هي الأخرى:

-أنا مش "ليلى"، أنا "هدير".

في سعادة بالغة تيقنت من انفصاله عن "ليلى"، لأشعر فجأة براحة أثلجت صدري.

-هو إنت سيبت "ليلى"؟

-يا بني آدم إنت مين إنت عشان تتدخل في حياتي؟

-أنا هاندهله الأمن.

قالتها "هدير" وهي ترفع الهاتف، فتابعت سريعًا:

-مفيش لزوم، والله أنا جاي أبارك.

-يا بني آدم تبارك على إيه؟

-على الطلاق، والله ألف ألف مبروك، والله فرحتلك أوي، إنت حيوان وتستاهل كل خير.

قلتها بجرأة لا أمتلكها عادة، ولكني كنت كالسكير، سعيدًا بانفصال "ليلى" عن هذا الكائن الذي فضل عليها تلك "المُزة" التي بجواره، عن ذلك الملاك الحارس.

-أخرج برا يا جزمه يا إبن الجزمه، قبل ما أطلبلك البوليس.

-خارج خارج يا أعز الناس.

دوحة الكتب حراميه

قلتها بسخرية وأنا أهرول على السلالم قبل أن يغتصبني العاملون في المطعم، خرجت راقصًا أدندن:

" الدنيا ربيع والجو بديع، وليلى طلعتلي في كل المشاريع"

عدت مرة أخرى إلى عالم "سانتا لوتشيا" كـ"أليس" في بلاد العجائب. صعدت السلالم برشاقة، حتى وجدتها، "ليلى" المرأة التي "شحططتني" بين سطورها طوال الأيام الماضية. كانت تجلس تكتب كعادتها التي لم ألاحظها، اقتربت منها في خطوات هادئة، كانت تراقبني دون أن ترفع عينيها، اقتربت بثقة لا أمتلكها وجلست وكررت اسمي.

-"مصطفى".

-"ليلى".

***

صفت "نانسي" سيارتها أسفل عقارها في "لوران" وصعدت إلى أعلى بسرعة لتبحث عن جواز سفرها، وصلت "نانسي" أخيرًا إلى باب شقتها، أخرجت المفاتيح وفتحت، كانت الصالة مظلمة والنوافذ مفتوحة مدخلة ريح الشتاء. أضاءت الأنوار، وذهبت إلى النوافذ وأغلقتها، ثم ترقبت الطرقة والهمس القادم من هناك، ظلت تقترب والصوت يعلو، لحظات والرهبة تمتلكها، حتى اقتربت إلى ذلك الباب الذي يحبس الكثير، أمسكت المقبض وأدارته، وليتها ما فعلت!

***

-إتنين فيليه بوافر وإتنين لمون.

تعجبت "ليلى" وظلت ترمقني باندهاش.

-ده طلبي المفضل.

-أكيد.

-مش فاهمه!

-يعني أكيد هاعرف إنتي عايزه إيه.

ابتسمت "ليلى" خجلاً وقالت:

-إنت مين؟

-أنا قدرك، لأ إنتي قدري.

-مكنتش متخيله إنك جريء كده، كنت راسمالك صوره تانيه.

-أنا مش جريء، أنا بهيمه.

ضحكت خجلاً، وظلت ترمق أصحاب الضحكات من أسفل، فتابعت أنا:

-طول عمري قاعد على الترابيزه الغلط.

-مش فاهمه!

-أفهمك.

-كل واحد مننا بيبدأ في نقطه، بيبدأ وهو مش فاهم أي حاجه،

حدوتة الكتب حرامية

معندوش خبره ولا فلوس ولا رؤيه، وبيطلب منه يختار.

-يختار إيه؟

-كل حاجه، يختار مستقبله، دراسته، سفره، حبه، كل حاجه.

-وبعدين؟

-قلة خبرتنا في الوقت ده بتخلينا نختار كتير غلط.

-والحل؟

-والله في اللي بيخاف على كل مشوار قطعه، وبيكمل في مشواره وهو قاعد في مكانه، وفي اللي ممكن يغير الترابيزه.

كانت مستمتعة بالحوار فتساءلت:

-نحتاج إيه عشان نغير مكانا؟

-نحتاج اللي يستاهل إننا نتحرك، وإننا نغير مكاننا عشانه.

شردت "ليلى" بعيدًا لألاحظ جمالها الخلاب، تلك العينين اللتين أشعلتهما كلماتي، كانت عيناها كالفحمتين السوداوين، تنتظران من يخرج منهما الماس للحياة.

-"ليلى"، أنا طول عمري قاعد في المكان الغلط، النهارده بس لقيت المكان الصح.

-إشمعنى؟

-بصي هناك.

قلتها وأشرت لها إلى شاب يجلس وحيدًا منهمكًا في عمله على الحاسوب، فنظرت "ليلى" إليه.

-الولد ده بيجي كل أسبوع "سانتا لوتشيا" عشان يراقب بنت جميله بتيجي هنا ترسم.

-وإنت إيه عرفك؟

-توتره، اللي بيحب مش بيكون على بعضه، مابيعرفش يتحكم في جسمه، بصي حركة رجله.

كان الشاب متوترًا بالفعل، يحاول لف القلم بين أصابعه، ويحرك قدميه بعنف مبالغ.

-عارفه مشكلة الولد ده إيه؟

-إيه؟

-مشكلته إنه مش لاقي سبب مقنع يكلم بيه اللي بيحبها، ممكن تحرجه، ممكن تضربه، وفي نسبة واحد في الميه إنها توافقه، عارفه الولد ده حمار ليه؟

ضاحكة سألت في فضول.

-عشان واحد في الميه، واحد في الميه، هي نسبه كافيه جدًّا عشان نراهن بيها على حب حياتنا.

***

ليت "نانسي" ما فتحت هذا الباب، فلقد كان ما شاهدته قاتلاً،

فلقد كانا في سريرها، على وسادتها، كانا يتاحبان بلهفة فائقة، عرايا الجسد والعقل، لا يستطيعان التحكم في غرائزهما، كالحيوانات ولكن أقل شأنًا، ظلت كالصنم فاقدة للروح، عكسهما، فلقد ملأهما الشغف والنشوة، تلك اللحظة التي تستجيب فيها الروح للجسد سيد الموقف، الجسد الذي يشعل بكل حواسه شرايين الخيانة، ليستعبد العقل والقلب، اللذين يتقبلان سم النشوة في سعادة ورضا، عبدين لحرارة مشتعلة لا يستطيعان تحجيمها، فلقد امتد لهيب النيران إلى كل نقطة في جسديهما، مدمنين لتلك المتعة التي افتقدها كل منهما، لحظات وهما يتقاتلان جنسيًّا، حتى لاحظ "أنس" وجود زوجته، ولكنه لاحظ وجودها في تلك اللحظة التي لا يستطيع فيها العبد مخالفة سيده، ليكمل "أنس" ما قد بدأه دون إرادة منه أو حكم. أكمل "أنس" ما بدأه أمام زوجته، في عجز منه عن التوقف، ليتساءل كل منهما عن الظالم!

***

-واحد في الميه، لو ضاع هانفضل طول عمرنا ندمانين عليه، ناس كتير اتخلت عن أحلامها، عشان فاكرين إن العمر طويل وفي فرص أكتر، بس للأسف كلنا قبل الموت بنندم على الفرص اللي فوتناها وماتعوضتش.

-وبنندم على القرارات الغلط إللي أخدناها.

-لأ يا "ليلى"، قبل الموت بنندم على القرارات اللي مخدنهاش في حياتنا، مش العكس.

-ازاي؟

-محدش بيندم على حياته اللي عاشها، كله بيندم على حياته اللي كان نفسه يعيشها، الغلط بنتعلم منه وبيفدنا أحيانًا، لكن الحياه اللي معشنهاش بتفضل علامة استفهام كبيرة، ممكن تكون سبب أملنا أو سبب في هلاكنا.

-عندك حق، بس أنا ظروفي يا م...

لم أعطها حينها المجال لتقص عليَّ الحقيقة كاملة، فلقد كنت أسيرًا لها وللحظة.

-ولا كلمه، صدقيني أنا عارف عنك كل حاجه، صدقيني أكتر ما تتخيلي.

-بس أنا معرفكش!

قالتها بينما دخلت المطعم فتاة عشرينية، ليضطرب الفتى عن يساري ويزيد من عرقه وتوتره. جلست الفتاة، بينما ظل الفتى يختلس نظراته لها، لتراقبه "ليلى" في اندهاش.

-هاعرفك، هاعرفك كل حاجه، بس أنا دلوقتي عايز حاجه، حاجه واحده بس.

-عايز إيه؟

-عايز أقضي معاكي أكتر وقت ممكن في عمري.

ابتسمت "ليلى" خجلاً لأتابع مطمئنًا:

-عايز عيني تشوفك أطول وقت ممكن، عايز أسمعك أكتر وقت ممكن، عايز أطول ساعات في عمري تكون معاكي، مش عارف أقولها ازاي!

-هي إيه؟

-كلمة بحبك.

***

-علـى سـريري يـا "أنـس"؟! طـيب يـا أخـي كنـت كلـفّ واحـجز للسنيوره في أوتيل،.................... ما ترد.

لم يعلق "أنس" وظل ساكتًا محرجًا.

-مكسـوف يـا حبـيبي؟ مكسـوف مـن إيـه؟ إنـت كنـت تشرف في السرير، اسألني أنا مانا شوفت بعيني محدش قالي.

لم يستطع "أنس" تحريك جفن، لتتابع "نانسي":

-يا أخي ده إنت طلعت زباله وتستاهل اللي بعمله فيك.

-لأ.

قالها "أنس" فجأة، مقاطعًا كلماتها بتلك الصفعة التي صفعها لها "أنس"، وقبل أن تدرك ما حدث، تابع "أنس" صفعها بيسراه، صفعة تلو الأخرى وهو يصرخ قائلاً:

-لأ ماستهلش، ماستهلش يا هانم، ماستهلش أشوفك بتخونيني كل سنه، ماستهلش أشوفك وإنتي متابعه أخبار راجل غيري،

ماستهلش أسمع إسمه وإنتي نايمه، ماستهلش أبقى عقيم وأنا أقدر أخلف، ماستهلش تذليني.

صدت "نانسي" صفعاته ودفعته صارخة:

-واستحملتني ليه؟

سكت "أنس" ودمعت عيناه وهو ينظر إلى يديه الملتهبتين من ضرباته لها وقال:

-عشان بحبك يا "نانسي"، عشان بحبك.

وقعت "نانسي" أرضًا وهي تضرب على خديها.

-يا ريتك ما حبتني يا شيخ يا ريتك ما حبتني.

-عندك حق، عندك حق، يا ريتني ماحبيتك، بس دي الحاجه الوحيده اللي مخترتهاش في حياتي، حقيقي أكتر وجع في الدنيا هو وجع القلب، حقيقي الحاجة الوحيده اللي تقدر على الراجل هي الست، أنا حبيتك يا "نانسي" وهافضل أحبك لآخر يوم في عمري.

سكت "أنس" لحظة ليستعيد كبرياءه الذي اضطره إلى أمر أخير لحفظ ماء وجهه، ليضيف أخيرًا:

-أنا آسف يا حبيبتي، إنتي طالق.

قالها نادمًا؛ فلقد كان يُملَى عليه ما يقول، حيث كان مُسيَّرًا وليس مُخيَّرًا.

***

-محتاجه أعرفك.

-مش مهم تعرفيني، المهم تشوفيني.

-شايفاك، وحساك.

سكتت "ليلى" ثم انطلقت بحياء قائلة:

-أصلاً إنت واضح أوي، ظاهر أوي، كلك برا.

-عشان تخين؟

ضحكت "ليلى" وعلقت:

-بالعكس إنت زي القمر.

هل أشعر وحدي هذا الشعور، هذه السعادة التي تغمرك عند سماع إطراء، ولكنه إطراء من الشخص الوحيد الذي تنتظر إطراءه؟!

-أنا لازم أمشي، اتأخرت على "رغدة".

-طيب ثواني أحاسب.

أشرت للنادل بالحساب، بينما سألتني:

-مش هاتسأل "رغدة" مين؟

-وأسأل ليه؟

قلتها وأنا أخفي الرواية الجلدية في جيبي، ثم أضفت:

-قصدي أكيد بنتك الجميله.

-غريبه!

-ولا غريبه ولا حاجه، مش بقولك أنا عارف عنك كل حاجه؟

-زي إيه؟

-زي إن أكيد زمان بابا قلقان عليكي دلوقتي.

ابتسمت وابتسمت، وقد جاء النادل ولاحظ ابتساماتنا، فأغرقناه سعادة، ثم حاسبت، ولكن قبل أن نقف وعدتني غدًا باللقاء، مع روايتـها التـي سـأقرؤها للمـرة الأولـى فـي وجودهـا، تحـركت والسعادة تغمرني، حتى وقعت عيناي على هذا الفتى التعِس، فاقتربت منه وهمست:

-بتحبها؟

اندهش الفتى وتلعثم من المفاجأة، ولم يستطع النفي، فتأكدت من حدسي، فوقفت في وسط الصالة وأنا أتجه بحديثي إلى تلك الفتاة من بعيد وصِحت قائلاً:

-حراام.

التفت إليَّ الجميع وأحرجت "ليلى" وهي إلى جواري.

-حرام تلاقي حد بيحبك كل الحب ده وماتدلوش فرصه.

قلتها ونظرت إلى الفتى وأضفت:

-الفرصه بنت جميله راكبه عجله ببدال.

ضحك الفتى وابتسم، بينما أمسكت "ليلى" بيدي لنذهب، وكنت قد شعرت بالنيران الصديقة تغمر يديّ، لتخترق كل جسدي وعقلي، وبالطبع قلبي، لتستعبدني تلك المرأة، كما سبقتها كلماتها.

***

خرجت "نانسي" وهي تتخبط، لا تعرف إلى أين تحملها قدماها! فهل تمكث في "الأسكندرية" تلك السنة الكئيبة أم تتابع سفرها إلى "غرناطة" رغم ما حدث، لتتذكر قرارها الذي اتخذته في "غرناطة" منذ زمن بعيد، كانت تظن أنها قد أحسنت الاختيار بمعاندة قلبها الضعيف، ولكن هذا القلب الضعيف كان أقوى كثيرًا من إرادتها المسلوبة، شعرت بندم عما اقترفت بحق قلبها، فلم تمتلك اليوم إلا مرارة الخيانة، وشرخ الكرامة، فلم تكن تتخيل أبدًا أن يقوم رجل بخيانتها، فلم تكن تلك المرأة أبدًا، إلا أنها تذكرت أنها لم تلعب دور المرأة في حياة "أنس" أبدًا، فلقد امتلك أنوثتها قلب رجل آخر، رجل لا يزال يكتب، وإن كان يجهل الجميع ماذا يدون!

فلقد ظل "عاطف" يمنع كل المتطفلين من قطع حبل أفكار رئيسه ومبدعه "شادي"، ولكن التذمر كان قد اشتد بين صفوف المنتظرين، حتى ظهر بينهم "مصطفى" الذي جاء ليقص على صديقه مشاعره الجديدة، بالطبع لم يستطع "عاطف" منع "مصطفى" من مقابلة صديقه، فلقد كان "مصطفى" أقدم من في عقل "شادي"، لذلك عجز عن الاعتراض أو التذمر عندما دفعه "مصطفى" جانبًا ليفتح الباب الجرار، وسط تذمر الجميع الذين كانوا ينتظرون الدخول مسبقًا، ولكن "مصطفى" أغلق الباب

بحزم، ليخرس الجميع.

-إيه يا بني، إنت لحقت تداين؟

ارتبك "شادي" الذي كان يكتب شيئًا ما، لينتبه إلى صديقه.

-درش؟!

في ابتسامة أمل، أجاب "مصطفى":

-أيوه يا حبيبي، مالك هايم على نفسك كده؟

احمر "شادي" خجلاً، لينظر "مصطفى" إلى الكتيب الذي يكتب فيه "شادي"، فيسارع قائلاً:

-ماتقولش.

ابتسم "شادي"، وحرك رأسه موافقًا.

-هاترجع تكتب؟

-بحاول والله يا "مصطفى".

وقف "مصطفى" وتوسط السجادة التي كانت أمام مكتب "شادي"، وظل يرقص كالملاك، بينما دمعت عين "شادي" من البهجة التي أشعلها صديقه.

-هي كده الدنيا، بتحلو مره واحده، الدنيا حلوه يا "شادي".

لم يسمع "شادي" ما يهمس به صديقه الراقص.

-بتقول إيه يا صاحبي؟

-الدنياا......الدنيااا حلوه أوي يا صاحبي.

قالها وقد تعب من الالتفاف، ليقع أرضًا وهو يسعل، فاقترب منه "شادي" وانحنى بجواره، بينما ظل "مصطفى" يضحك، ليطمئن "شادي".

-الدنيا حلوه يا صاحبي.

-يا رب دايمًا يا درش، مش عوايدك!

وقف "مصطفى" وحاول استعادة وقاره، خاصة أمام أعين المنتظرين خارج الباب الزجاجي، فظل محرجًا، ثم وقف وتوجه إلى الباب ليغادر.

-رايح فين؟

-مروح.

-إنت لحقت تيجي؟

ابتسم "مصطفى" وفتح الباب.

-يابني فهمني، كنت جاي ليه طيب؟

التفت "مصطفى" إلى صديقه وقال مبتسمًا:

-جيت أقولك إن الدنيا حلوه، وشكرًا على كل اللي بتكتبه.

قالها "مصطفى" وخرج، ليترك "شادي" مرة أخرى لعزلته، ولكن "شادي" قد وجد أن المنتظرين قد ملوا الانتظار، ففضل متابعة

عمله، وأن ينهي ما بدأه لاحقًا.

*** ***

-معرفتش مين الكاتب؟

-ممكن يكون الناشر نفسه هو إللي كتب الرواية.

-أنا ازاي ماشوفتش الموضوع ده قبل كده، عشان كدة اكتفى باسم الدار... أكيد.

*** ***

الفصل الثامن

من داخل قاعة الحكم بأحد القصور العثمانية الغنية، كانت تلك القبة الذهبية تسحر المكان وهي تحمل أسماء الرحمن التسعة والتسعين، المكتوبة بحروف عربية رشيقة، وهي مرتكزة على تلك العمدان الرخامية البيضاء، لتتناغم مع فسيفساء الأرضية الزرقاء، ذلك اللون المميز الذي يُفضّله السلطان "أحمد الأول"، والذي كان يجلس مهمومًا على عرشه وهو لا يزال في بداية العشرينيات من عمره، فلقد تولى الحكم وهو ابن الرابعة عشر، ورغم صغر سنه إلا أنه كان عاقلاً وحكيمًا إثْر تدينه المعروف؛ فلقد منع الخمر واهتم بنصرة الإسلام عن ملذاته، وفي عهده أرسلت كسوة الكعبة لأول مرة من "إسلامبول" بدلاً من القاهرة، حتى أنه أبقى على حياة أخيه الأصغر عند توليه السلطة رغم عادة السلاطين العثمانيين في التخلص من أخوتهم وأبنائهم، درْءًا للفتن، كما كان السلطان "أحمد" معارضًا لتدخل النساء في شؤون الحكم، حتى أنه نفى جدته "صفية" خارج البلاد، وإن ظل ضعيفًا بحبه أمام زوجته "أناستاسيا" والتي سُميت بـ"كُوسِم" بعدما أسلمت، وقد كانت "كوسِم" في ذلك الوقت تلاحظ انشغال السلطان "أحمد" وتُعكر صفْوه.

-ماذا يشغلك يا مولاي؟

-إنها رسالة من الأندلس.

-ممن؟

-من صانع الورق.

وقفت السلطانة "كوسِم"، واقتربت من السلطان "أحمد".

-صانع الورق؟!

-نعم يا "كوسِم".

-وكيف وصلت إلى هنا دون كشف فحواها؟

ابتسم السلطان "أحمد" الذي كان يعلم السر.

-هذا هو سر صانع الورق، فلا يستطيع فك تلك الرموز إلا صاحب الرسالة.

-لعلها خير إذن يا مولاي!

وقف السلطان "أحمد" وتحرك إلى وسط القاعة، ليتوسط الفسيفساء أسفل القبة الذهبية، ثم نظر إلى السماء قائلاً:

-لا يا "كُوسِم" فلا يزال أهل الأندلس ينتظرون نجدتنا.

-ولكننا بحثنا ذلك الأمر كثيرًا يا مولاي، إن الأندلس ستُرهق جيوشنا، المنشغلة شرقًا وغربًا في الدفاع عن أراضينا وهذا أهم من بلاد الأندلس، فنحن بحاجة إلى نصر سهل.

-ولكن هل يوجد ما هو أهم من بلاد الأندلس؟

-ولكنها مُهلكة يا مولاي.

سكتت "كوسِم" لحظة قبل أن تضيف مُهدئة.

- نستطيع أن نرسل إليهم مجاهدي البحر بالأسلحة والعتاد.

استسلم السلطان "أحمد"، واعتلى عرشه مهمومًا مرة أخرى وهو يشعر بآلام الذل والهوان لعجزه عن نجدة الموريسكيين، بينما أرسل التعليمات إلى مجاهدي البحر الذين استقبلوها في الجزائر وتونس، ليتحرك مجاهدو البحر من "جربة" لمناصرة إخوانهم في الأندلس ضد ظلم محاكم التحقيق بالعتاد والمُؤن، بعدما ضيّق عليهم الخناق.

كان أسطول مجاهدي البحر مكون من ثمان سفن شراعية رشيقة، وكانت السفن تحمل الأطنان من المتفجرات والمدافع، بينما كانت صواري السفن ترفع أعلام الإسلام، من أعلى أشرعتها، وقد كان أغلب طاقم البحارة من الموريسكيين الهاربين من ظلم محاكم التحقيق، ليتبادلوا ورديـاتهم مع سماعهم لأصوات الأجراس التي تنظم الوقت، كان هيكل السفن الخشبي مُحلًّى ببعض الآيات القرآنية بجانب مخارج المدافع، وقد امتازت مقدمة تلك السفن بالروعة في تصميمها، حيث كانت كالسيوف المدببة تعتليها أبراج صغيرة للمراقبة، يقف فيها بعض البحارين ليكشفوا البحر من خلال نظاراتهم المُعظمة.

قبل أن تستطيع السفن الوصول إلى السواحل الإسبانية كشفتها سفن تابعة للأسطول الإسباني من بعيد، ليستقبل الثمانِ سفن أكثر من عشر سفن إسبانية أكثر ضخامة، ليدرك قائد المسلمين أنهم على وشك معركة طاحنة، ليطلب القائد توزيع بعض آيات القرآن على طاقم السفن، ليرتل الطاقم تلك الآيات، قبل أن تدركهم مدافع الإسبان وتتساقط آيات الرحمن في البحر لتبدأ المعركة التي ظلت ساعات طويلة، تحلى فيها القائد الجهادي

بالدهاء والمكر مستغلًّا رشاقة سفنه في مراوغة السفن الإسبانية، كما استطاع الاستيلاء على إحداها حيث اشتهر مجاهدو البحر بالقرصنة، منذ عهد "خير الدين بربوس" الذي زرع الرعب في البحر المتوسط منذ سقوط الأندلس.

تسيدت سفن جهاديِّي البحر الموقف واستطاعت تدمير سفينتين أخرتين من الأسطول الإسباني، لتسرع باقي السفن بالفرار، ليصل المسلمون إلى جنوب شواطئ إسبانيا، بالمؤن والعتاد، قبل أن يسارعوا بالرجوع ومعهم المزيد من الموريسكيين الهاربين من الجحيم الإسباني، بعد نجاح مجاهدي البحر في مهمتهم. ليظل صيْطهم لعقود طويلة حتى أن "جورج واشنطن" أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية قد اضطر إلى دفع الجزية لهم، ومن ثَمَّ وقَّع معهم المعاهدة الوحيدة التي كتبت بلغة غير إنجليزية، وهي المعاهدة الوحيدة أيضًا التي تعهدت فيها الولايات المتحدة بدفع ضريبة لدولة أجنبية مقابل السماح لسفنهم بعبور البحر المتوسط تحت حماية الأسطول الإسلامي الذي ظل متخذًا من شمال إفريقيا مقرًّا له.

وصل الخبر إلى الملك الإسباني "فيليب الثالث" الذي كان يجالس شيطانه في قصره، ليتخذ قرارًا خسيسًا قد أعده مسبقًا، وإن كان الشيطان نفسه بريئًا من خسة هذا القرار، الذي باركه كبير أساقفة بلنسيه "خوان دي ريبيرا"!

فمن داخل قاعة حكمه التي اعتلاها ذلك الصليب الذهبي الكبير، دخل أحد قادة الجيش على مليكه، حاملاً الخبر المزعج.

-خسرنا سفينتين أخرتيْن يا مولاي.

وقف الملك في غيظ:

-أهُمْ قراصنة المسلمين؟

-نعم! قراصنة المسلمين، أغرقوا سفينتين من أسطولنا واستولوا على أخرى واتجهوا بالسلاح والمُؤن لجنوب البلاد.

-وأين غاروا على سفننا؟

-على سواحلنا يا مولاي، فلقد أتوا ليخلصوا بعض أسر الموارِكة من محاكم التحقيق.

-المورسكيين؟

-نعم يا مولاي! كما كشفنا لهم رسالة أخرى مبعوثة من الشمال.

-وما فحواها؟

-لم نستطع فك طلاسمها يا مولاي، ولكنها مُرسلة من أحد مورسكيّي قشتالة إلى بلاد المسلمين، فلا حاجة لنا للتأكد من فحواها.

-نعم لا حاجة لكشف فحواها، لقد سئمت هؤلاء المسلمين الموارِكة، أكثر من مائة عام فشلت الكنيسة بتنصيرهم، حتى أن محاكم التحقيق فشلت في تغيير عقائدهم.

-نعم يا مولاي! فشلت محاولات العنف واللين، إنهم ليسوا منّا ولسنا منهم، ولو لم نردعهم، لوقف الخليفة العثماني محل قدميك بمساعدتهم.

استلَّ الملك سيفه وكاد يقتل الرجل من هوْل انفعاله، ليركع الرجل لملكه متوسلاً.

-ماذا تقول أيها البغيض؟! أنها أرضنا التي استرددناها بعد ثمان قرون؛ ثمان قرون سأعمل على محو آثارهم من التاريخ، والآن سوف أفعل ما عليَّ فعله للمحافظة على هذه الأرض من نجاسة المسلمين.

-اغفر لي غيرتي يا مولاي!

-إذا كانوا المسلمين الموراكة يبحثون عن الفرار، فسأعطيهم ما ابتغوا.

تركه الملك ونظر إلى أرض الأندلس، ليتخذ قراره أخيرًا، فلقد وقَّع "فيليب الثالث" على مرسوم طرد كل الموريسكيين من بلاد الأندلس، في خلال مهلة قليلة، قبل أن يستبيح الإسبان دماءهم؛ ليتعرض مئات الألوف من الموريسكيين للسرقة والنهب والقتل والترحيل وسبي النساء، فبعدما فشل الإسبان في انتزاع إيمان الموريسكيين من قلوبهم، قرروا انتزاعهم من جذور أوطانهم، في واقعة من أكثر وقائع التاريخ مهانة للإنسانية.

***

(١٧)

عدت إلى منزلي، لأدرك أن وقت السعادة قد ولَّى، فلقد نسيت أن هناك حسابًا متأخرًا وجب تسديده، فلقد كانت "الحيزبون" تنتظرني لأداء واجباتي الزوجية، فلقد "جاء وقت الحساب".

حاولت فتح الباب بمنتهى الرفق واللين، إلا أن أنثى الأسد كانت بالمرصاد، فخلف هذا الباب كانت هي شبه عارية، إلا من الحمَّالات الواهية.

-أخيرًا شرفت؟

-حبيبة قلبي من جوا.

قلتها منافقًا وأنا أحاول الهروب من الآتي.

-خلصت شغلك؟

-هاحكيلك "بس المهم تصدقيني".

-إتفضل احكي.

-الصراحه أنا لسه مخلصتش.

-أفندم!!

-قصدي لو مخلصش النهارده، أخلصه بكره، هو أنا ورايا إيه؟ المهم إنتي يا عمري.

-آه، طيب يالَّا تعالى.

قالتها برومانسية وهي تجرني كالخروف إلى غرفة الواجبات الزوجية، دخلت وتمددت على السرير، ولم تكن أنثى الأسد في حاجة للتبرج، بل كانت في حاجة للأسد، للرجل الذي يعيد الأمور إلى نصابها في هذا البيت، وكنت قد قررت أن أضع حدًّا لابتساماتها المهينة، فتوجهت لحمام غرفتي في تحدٍّ، وأخرجت

من درج أسفل الحوض علبة "الرويال جيلي" التي أهداني إياها "شادي" من "أسبانيا" لمثل هذه الظروف الطارئة، وتذكرت "شادي" وهو يرشدني للتعليمات، "حبه صغيره يا درش على العسل مش ساده". أخرجت رأسي من باب الحمام لأراقب "الحيزبون" زوجة الأسد، فلم أقتنع بكلام "شادي" وأخذت أمرر أصابع يدي على "الجيلي" وأبتلعه، حتى شعرت بالمفعول، قبل أن أخلع ثيابي وأخرج إليها، أبحث عن المجد ساخرًا كعادتي، لأقترب منها مشاكسًا. كانت الإضاءة هادئة ولكنها ليست مُطفأة، لامستها ولامستني، حتى امتنعت روحي من الضحك، فجأة شعرت أني قد نضجت، بل إني حتى قد هرمت، لم أستطع النظر إلى زوجتي، فلم أعد أراها، بل لم أعد أستطيع نكران هذا، فمنذ سنين وأنا أقوم بمعاشرة كل نساء العالم في جسدها! فعندما تُغلق الأنوار كنت أتخيل أرق النساء، وإن لم أكن ألامس جسدًا غيرها، إلا أني لامست في جسدها العديد من النساء، كمراهق يبحث عن متعته بين صفحات الإنترنت، ولكني اليوم، لا أستطيع أن أعاشر غيرها، ليست زوجتي، بل معشوقتي، لا أستطيع خيانتها حتى مع زوجتي. ظل العرق يغمرني، كنت أرتجف، وكانت زوجتي قد توترت، لم أكن أراها، بل كنت أرى غيرها، لا أعلم أين المفر! أطفأت الأنوار، ولكن صورتها ظلت هناك، في عقلي، فلقد حاصرتاني، الأولى بلمساتها، والثانية بسحرها، حتى أني لم أعد أدرك مع من أكون! في هذا الظلام الدامس، حاولت الهروب منهما، فبدأ عقلي في إرسال برقيات الانسحاب من كل وظائف جسدي، ليبدأ جسدي في التراخي، لأشعر بثقله وثقل أنفاسي. امتثل جسدي لأوامر عقلي، الذي ظل يتراقص وهمًا وهو يتخيل راقص التنورة الذي أرسلني إلى عالم بعيد!

***

من داخل غرفة بغيضة في إحدى المستشفيات، صحوت من غيبوبتي، ظللت أرمُق المكان بعيني، كانت الغرفة صغيرة، أرضياتها من البورسلين البيج الكئيب الذي ينبعث منه رائحة "الديتول" الطبي، لأجد "شادي" بجواري على أريكة جلدية حمراء اللون، يشاهد التلفاز الذي كان يعرض رقصة التنورة.

-حمد الله على السلامه يا راجل يا عجوز.

-أنا فين؟!

-هاتكون فين؟ ما قولتلك تحط حبه صغيرين على العسل، مش تلهف الإزازه كلها.

تذكرت ما حدث لي، وشعرت بالحرج الشديد.

-ماتتكسفش أوي كده، إن الله حليم ستار.

-فين "جيجي"؟

شعر "شادي" بالضيق وأجاب:

-لا، هي تقريبًا اضطرت ترجع البيت، أصلها بايته جنبك من امبارح.

كنت أشعر بكذبه، ولكني لم أكن لأكترث، إلا من تأنيب الضمير.

-طيب أنا عايز امشي.

-هانمشي ماتخافش، الدكتور طمني.

-طيب يالَّا.

قلتها وأنا أقف من على السرير، لتخذلني قدماي، فاقترب "شادي" وسند ضعفي وهو يضغط على زر الممرضة.

-إستريح بس بلاش مقاوحه.

-عايز أمشي.

دخلت الممرضة، وخطفت إبرة من مجموعة كانت على المنضدة بجواري، ثم حقنتني بها غدرًا لأقابل راقص التنورة، الذي لم يزل منهمكًا في الدوران مرة أخرى.

ساعات جهلت فيها ما يحدث، ولكني بِت وحيدًا بدون صديقي، حتى ظهرت فجأة "جيجي" من العدم، ظهرت وهي في كامل هندامها لتجلس بجواري:

-"مصطفى"، إحنا محتاجين نتكلم.

-إنتي كنتي فين يا "جيجي"؟

-فارقه معاك أوي كنت فين؟

-يا سيتي هو ده وقت خناق؟ أنا في مستشفى.

-بالظبط كده.

قالتها بتحدٍّ وقوة لا أمتلكها.

-لما تكون يا جوزي يا محترم في المستشفى بين الحياه والموت، وأسمعك بتهمس باسم ست تانيه، المفروض أنا أعمل إيه؟

لم أكن أعلم أن نهايتي ستكون بهذه السرعة، فلم أبدأ حتى التفكير في خيانتها بعد.

-ست مين؟!

-"ليلى" هانم.

ضحكت ساخرًا وعلقت:

-يا حبيبتي دي شخصيه في روايه بقراها، هاتغيري كمان من شخصيات الروايه؟

-الروايه دي؟

قالتها وهي ترمي إليّ بالرواية الجلدية.

-طيب ما إنتي عارفه أهو.

-وهو إنت كمان إسمك ليه في الروايه؟

-إسمي أنا؟

-إسمك وإسمي وأسامينا كلنا، بص بقى يا "مصطفى"، أنا مبقتش حاسه معاك بالأمان، أنا مليش عندك حقوق، ولا عارفه أخلف منك حتة عيل، وإنت مبقتش الراجل المحترم اللي اتجوزته، وأنا ماضمنش بعد ما أضيع معاك شبابي وأجمل سنين عمري، إنك ترميني في الآخر وأنا مليش عليك حقوق.

-أنا يا "جيجي"؟!

-أيوه إنت، كلكم رجاله زي بعض، غدارين، آخر كلام عندي ليك يا "مصطفى" لو بتحبني بجد ومش ناوي تغدر بيا، أمنلي مستقبلي، أنا مش عايزة أحس أني مجرد حبر على ورق.

-حبر على ورق!

لم أكن أفهم أغلب الحديث، ولكن الإرهاق كان قد أعجز تفكيري ولساني أيضًا.

-طيب بس.. فهميني أعمل إيه؟

-تكتبلي الشقه والدار بإسمي.

انتبهت لما تقوله تلك المرأة المجنونة، فنهضت من جلستي:

-إنتي مجنونه؟! بيت أبويا ودار الخوانكي، أكتبهم بإسم حد غريب؟!

-حد غريب! مراتك حد غريب؟

أحرجتني بالفعل وتابعت:

-مش بقولك إنت مش طبيعي، عمومًا ده آخر كلام عندي، لو عايز تحافظ عليا أمنلي مستقبلي، لو مش عاوز إعتقني لوجه الله يا أخي، وسيبني يمكن أخلفلي حتة عيل يسندني قبل ما أموت.

قالتها وخرجت، لتقتل ضعفي وعجزي وقلة حيلتي، لتتركني مع فكري أحاول إيجاد قلب رحيم بضعفي، لأجد "ليلى" فورًا في

خيالي جالسة في "سانتا لوتشيا" تكتب في صمت، لعلها تنتظرني. نظرت إلى الساعة التي كانت تشير إلى السابعة مساء، فقررت الذهاب، ولكني كنت وحيدًا، حتى دخل "شادي" مرة أخرى، دخل مبتسمًا، لأبتسم له ابتسامة كان يجهل معناها، ولكنه شعر بشيطاني، فلقد كنت عزمت أمري بالمغادرة.

-الدكتور كتبلك مغادره بكره.

قالها مبدعي بابتسامة وهو يقترب إلى الأريكة التي كانت بجواري، بينما ظللت أنا أبتسم له ابتسامتي الشيطانية وأنا أنظر لتلك الإبر المخدرة التي بجواري.

-والله هاتوحشني.

نظر إليَّ "شادي" مضطربًا:

-هاتعمل إيه؟

-بالذوق محدش هايكتفك.

بعد دقائق من الصراع، كنت قد استطعت تخدير صديقي الوحيد، بتلك الإبرة التي كانت موضوعة إلى جانبي، لأمدد جسده على السرير بدلاً مني، قبل دخول تلك الممرضة الجديدة، التي استقبلتها بابتسامتي البشوشة. دخلت الممرضة وشعرت بريبة، ثم نظرت إليَّ وأنا جالس على الأريكة وقالت:

-حضرتك معاد الزياره خلص من بدري.

-معلش، أرجوكي سيبيني معاه شويه، أصل ده صاحبي الوحيد.

قلتها وأنا أشير إلى "شادي" النائم على السرير بعدما غرست به تلك الإبرة المثمرة.

-معلش يا فندم، هو خلاص حالته مستقره، وزميلتي طمنتني.

-طيب، هو بس كان عنده حراره وكانت المفروض زميلتك تديله "اللبوس" قبل ما تمشي.

-اللبوس؟!

-إيه حضرتك، جديده هنا مابتعرفيش تدي اللبوس؟

-لأ طبعًا بعرف.

-طيب خلاص أنا هاسيبك، عشان مقدرش أشوف صاحبي في موقف زي ده.

خرجت من غرفتي مفعمًا بالحيوية، بينما سمعت صراخ "شادي" أثر شيء ما، ولكني لم أكترث وتابعت سيري، وخرجت من المستشفى وأشرت إلى تاكسي أصفر قديم:

-محطة الرمل ياسطى؟

-ولو مصر حضرتك، اتفضل.

دقائق مرت وأنا أستغلها في قراءة الرواية الجلدية، لأكتشف المزيد من الغموض، وقبل أن تزيد تساؤلاتي، كنت قد وصلت. فتح لي "متولي" ولكني لم أحيِّه من عجلتي، صعدت السلالم بخفة غريبة، حتى اطمأننت على وجودها، كانت هناك مبتسمة كعادتها، اقتربت والسعادة تغمرني:

-إنت كنت فين من امبارح؟

-في المستشفى.

هلعت، ورسمت لي نظرة كنت أفتقدها؛ نظرة أبي الذي تركني، نظرة أمي كما تخيلتها.

-ماتخافيش، ماتخافيش أنا كويس.

-طيب احكيلي.

-أحكيلك إيه؟

-كل حاجه، كل حاجه بالتفصيل، إنت وعدتني تحكيلي كل حاجه.

-حاضر، بس إنتي كمان وعدتيني إنك هاتجبيلي الرواية اللي إنتي كتباها عشان أقراها.

ابتسمت "ليلى" ابتسامة نصر، وأخرجت من حقيبتها كمبيوترًا صغيرًا وأعطتني إياه، لأجد أمامي نسخة إليكترونية من الرواية. شدني الفضول لأتأكد من صحتها، ولكني لم أجد الأسماء التي كانت بالرواية الجلدية، فاندهشت، ولاحظت اندهاشي، فهربت من الموقف قائلاً:

-هو أنا هاقرا أربعين ألف كلمه هنا؟! إبعتيهالي ميل على ميل الدار.

-طيب استنى أدخلك تكتبه إنت، أنا مش شاطره على الكمبيوتر أوي، بس خلي بالك، أنا لسه مخلصتش الروايه، مش لاقيه ليها

نهايه واضحه.

قالتها وتركتني لأرسل الملف، ثم توجهت إليها قائلاً:

-مش مهم، الأهم قوليلي، هي القصه دي حقيقيه؟

ارتبكت "ليلى" وقالت:

-أي قصه بيكتبها روائي، لازم يكون شافها، حتى لو في خياله.

ابتسمت وضغطت أكثر:

-بلاش الحركات دي يا "ليلى"، أنا صاحب دار نشر، مش دكتور سنان.

-ومالهم دكاترة السنان يعني؟

-يا ستي مسكتي في الكلمه أوي؟ بجد ردي عليا، القصه دي أحداثها حقيقيه، أصل دايمًا أول روايه للكاتب بتعكس تجاربه الشخصيه.

-"مصطفى" أنا مش مدياك الروايه دي عشان تنشرها، أنا مديهالك عشان تقراها، في فرق كبير.

وصلني إحساسها ورقتها، فاعتذرت منها، وبدأت أقص عليها ما حدث بيني وبين "الحيزبون"، بينما كان هناك شخص آخر في المكان يقوم باتصال هاتفي.

-يا كبير قاعدين اهم قدامي.

-تمام أوي كده، الله ينور، المهم مايمشوش قبل ما آجي.

-يا باشا خد وقتك، حتى لو هاتنزل مصر هاستناك.

-لأ أنا جايلك حالاً، أنا في المطعم جنبك.

أغلق "عمر" الهاتف ونظر إلى "هدير" قائلاً:

-كان عندك حق.

-مش قلتلك يا حبيبي، إنت اخترت غلط من الأول.

-أنا هاعرف شغلي معاها كويس.

-وليه ده كله؟ ما إحنا خلاص مع بعض، طلقها يا أخي.

ابتسم "عمر" وقال:

-هاطلقها، ومش هلاقي فرصه أحسن من دي عشان محدش يغلطني، وآخد كل اللي أنا عاوزه، بس مش قبل ما أربيها، مش "عمر" اللي مايملاش عين واحده ست.

*** ***

-مش هاقدر أسامحها.

-هاتسامحيها، عشان أقدر أغفرلك.

-اغفرلي، بس أنا مش كاملة، علشان أقدر أسامح، ساعدني، ساعدني يارب.

-حاضر! هاجيبها لغاية عندك!

*** ***

(١٨)

بينما أنا هائم في ملامح "ليلى"، ظهر هذا المارد من خلفي.

-ما شاء الله! لا دي حاجه ظريفه أوي، طيب ليه يا اخوانا مش طالبين اتنين لمون ليه؟

قالها "عمر" قبل أن يصفق بيديه، ليلفت الأنظار، فاقترب منه النادل الذي حدثه مسبقًا:

-تحت أمرك يا "عمر" بيه.

-إتنين لمون للحبايب هنا.

-تحت أمر معاليك ولو في مصر.

نظر "عمر" إلى "ليلى" التي كانت غارقة في دموعها، ثم تجاهلها ونظر إليَّ:

-هو إنت بقى يا سيدي؟ طب إيه، كنت جاي تسأل على مراتي؟ كنت عايز تشقطها من بيتي؟

لم أكن أجد كلامًا يصف شعوري! فلقد شعرت بصغر حجمي ورجولتي، فلقد تأكدت من حديثه ونظراتها، أنها لا تزال زوجته.

-أنا آسف يا فندم، أكيد حضرتك فهمت غلط، أنا جاي أنشر لمدام "ليلى" الروايه اللي هي كتباها.

-آه الروايه! لأ بص يا حبيبي، الروايه دي بقى تنساها خالص، أنا معنديش حريم يكتبوا عني.

قالها وهو ينظر إلى "ليلى" التي كانت لا تزال خائفة، لتظل صامتة، فلم أستطع أن أغفر لها ما يحدث لي أمام الجميع، فرمقتها بنظرة عتاب، ووقفت، ليمسك "عمر" بيدي:

-على فين؟

-على بيتي، أصلي اتأخرت على مراتي.

-آه مراتك، إذا كان كده معلش، أكيد مراتك طبعًا مش هاتحب الروايه دي برضه، صح ولّا إيه؟

قالها مهددًا إياي، وإن لم يكن في حاجة لذلك، فلقد أدركت لتوي خطأي.

-أكيد.

قلتها وأنا أنسحب من "سانتا لوتشيا" بعدما أدركت أني لن أستطيع أن أعود إليه مرة أخرى بعد هذه الفضيحة. كانت خطواتي ثقيلة وأنا أغادر، فلقد شعرت بمدى الجنون الذي عشته، هي نزوة إذن، نزوة أهلكت وقاري، نزوة وقد وجب عليَّ تجنبها، فلست من يتورط في علاقة مع متزوجة. كانت الأعين لا تزال تغتصب أفكاري، حتى أمسك بي "متولي".

-سموك!

ابتسمت له وأنا أودعه، فلقد ولّى زمن الأمراء. خرجت لشوارع

"محطة الرمل"، لأستنشق الهواء الذي كنت قد افتقدته، خطوات بل أميال وأنا أبحث عن ذاتي وأؤنبها، فلست ممن يستطيع أن يستمتع بالحياة، فلقد كان زمنًا وقد ولى، أدركت أخيرًا ما يجب عليَّ فعله وأنا أنظر إلى البحر وأستنشق يوده، لأتوجه إلى سيارة الأجرة التي كانت تجوب كورنيش الإسكندرية، ليأخذني سائقها إلى بيتي، لأفتح باب الشقة في تردد. ظللت أبحث عن "جميلة" الزوجة الوحيدة التي تقبلتني، كانت مستلقية تتكلم عبر الهاتف، فجلست إلى جوارها وأنا أداعب وجهها:

-أنا آسف يا حبيبتي، أنا هاكتبلك كل حاجه، بس ماتسيبينيش.

ابتسمت "جميلة" وتركت الهاتف وضمتني قائلة:

-يا حبيبي، أسيبك إنت؟! ده مش ممكن أبدًا، هو أنا ليا غيرك؟

-بجد يا حبيبتي؟

قلتها وأنا متردد؛ خوفًا أن أكون قد اشتريت "الترومواي".

***

-حرام عليك يا أخي، إنت عايز مني إيه؟

قالتها "ليلى" من غرفة نومها بشقتها.

-عايزك تفهمي إنك ولا حاجه.

-عارفه يا أخي، حرام عليك، عارفه إني ولا حاجه، لإني لو أي حاجه مكنتش هاتخوني مع طوب الأرض ومن ساعة ما عرفتك.

سكت "عمر" لحظة قبل أن يتابع:

-أيوه كنت بخونك، عارفه كنت بخونك ليه؟ عشان فعلاً ولا حاجه، عشان مسحتي شخصيتك، مابقتش بشوفك، لما ببصلك بحس كأني بشوف نفسي في المرايه، بتحاولي تبقي زيي، يا هانم أنا لو عايز واحده زيي مكنتش هاتجوز، أنا.. أنا محتاج حد غيري، حد شخصيه، مش عيله مشيلاني همها.

-خلاص يا أخي، طلقني.

ضحك "عمر" وقال:

-يا سلام، بس كده، سهله، بس مش دلوقتي.

-ليه؟

-مش قبل ما اتأكد إن البيه اللي كنتي معاه، عرف إنك ولا حاجه، عارفه ليه؟ عشان أنا ماينفعش مَرَه تعرف عليا راجل تاني، أنا مفيش بعدي رجاله، ولو يوم شفتك مع راجل تاني، عارفه هاعمل فيكي إيه؟ هاحرمك من "رغدة"، مش هاخليكي تشوفيها ولو ساعه في عمرك.

-لأ، بنتي لأ، حرام عليك.

-أيوه كده، خليكي شاطره بقى عشان أخليكي تربيها، ماتخافيش أنا كده كده مش فاضي للعيال.

قالها وانصرف، ليتابع الرجل أعماله التي كانت همه الأول منذ البداية، تاركًا "ليلى" أرضًا تحاول النهوض، لتستعيد هي ذاكرتها

المرة، فلقد كان "عمر" واضحًا منذ البداية.

مرت أيام وكل يبكي على ليلاه، فلقد حاولت "ليلى" مرارًا وتكرارًا الوصول إلى "مصطفى" ولكنه كان رافضًا الاتصال بسيدة متزوجة، فلقد كان يظنها قد طُلقت قبل أن يتعلق بها، كان قاسيًا عليها مُر القسوة، وإن كان يجرح نفسه أكثر منها، ولكنه كان يشعر بجرمه تجاه رجل آخر، لم يكن ممن يستطيع أن يأخذ ما لا يستحق، ولقد كانت "ليلى" بالنسبة له أكثر مما يستحق، لذا كان يشعر بحُرمتها، ولقد كسر قلبها بقسوته المصطنعة، فلقد ظل "مصطفى" يصد محاولاتها للاتصال به بعدما انفصلت عن "عمر"، وبعدما رمى نفسه بين أحضان زوجته التي كانت تكيل له بعدما امتلكت ثروته، ليصبح هو تابعًا لزوجته، بينما ظلت "ليلى" تندب سوء اختيارها مع صديقتها "نانسي".

-خلاص بقى يا "ليلى"، هو إنتي أول ولاً آخر واحده اتطلقتي؟ ما أنا قدامك اهو.

-يا "نانسي" طلاق إيه اللي أزعل عليه؟ أنا زعلانه على عمري.

-إحنا اخترنا غلط من الأول.

-أيوه يا "نانسي" اخترنا غلط.

-إتخانقنا على رجاله ماتستهلش.

-لأ يا "نانسي"، إتخانقنا على رجاله مش بتاعتنا، عارفه يا "نانسي" أنا إيه أكتر حاجه مزعلاني؟

-إيه يا حبيبتي؟

-زعلانه إن "مصطفى" شايفني واحده مش كويسه، زي ما أنا كنت شايفه صاحبة "عمر"، مش كويسه.

بالفعل كانت نظرة "مصطفى" لـ"ليلى" أشبه بنظراتها لتلك الفتاة التي حاولت فعل المستحيل لاسترداد "عمر"، ولكن "ليلى" لم تعطها تلك الفرصة وظلت تحاوطه بحبها الزائف، لتشعر "ليلى" اليوم بالكأس الذي أذاقت به تلك الفتاة الضعيفة، لتدرك "ليلى" لتوها قسوتها، ولتشرب من ذلك الكأس مرًّا مع نظرات "مصطفى" البغيضة إليها، لعل هذا كان من أسباب كتابتها لروايتها.

"الحكم قبل المداولة"

-يااه، إنتي لسه فاكرها؟

-وهو أنا هاقدر أنساها؟ أنا عملت فيها كتير، وكنت شايفاها مش محترمه، هي على الأقل لما كانت بتجري ورا "عمر" مكنتش متجوزه ولا هو كان اتجوزني، حقيقي ليه حق "مصطفى" يشوفني زي ما أنا شوفتها، كلنا بنحكم بدري، بنحكم قبل المداوله.

-طيب خلاص يا سيتي، إنسي بقى، لازم نحاول نكمل.

-مش قادره أنسى، مش قادره أسيب "مصطفى" لواحده ماحبتهوش، مش لازم يعيش مأساتي أنا و"عمر".

-ومش لازم إنتي كمان يا "ليلى" تعيشي مأساة صاحبة "عمر".

سكتت "ليلى"، انتبهت لحديث صديقتها وعلقت:

-مش فاهمه!

تلعثمت "نانسي" في الحديث، لتضيِّق "ليلى" أكثر في الخناق:

-إنتي تعرفي عنها حاجه؟

لم تجب "نانسي"، لتغضب "ليلى":

-ماتردي عليا.

-أيوه يا "ليلى" أعرف، أعرف إنها عاشت حياتها كلها بتحاول تتمرمغ في تراب "عمر"، لسه بتحاول تعيش معاه، لسه بتحاول تخلي كل الناس شبهه وبالذات جوزها.

***

في عالم آخر، كان "مصطفى" يحاول التأقلم على حياته الرتيبة مع زوجته، بعدما قطع جميع اتصالاته مع "ليلى"، ليحاول تقبل الاستقرار أو الركود، واليوم قد جهزت له زوجته الفطور الفاخر قبل أن يذهب إلى عمله في دار النشر.

-عايز حاجه تانيه يا حبيبي؟

-لا يا حبيبتي، ده كتير، أنا هاكل وأنزل الدار.

-تنزل الدار ليه؟

-يعني، أحاول أشوف الكتب اللي إنتي وافقتي عليها دي أخبارها إيه.

-طيب ماشي، أنا كمان عندي حبة مشاوير هاخلصها.

-ماشي يا حبيبتي.

أنهى "مصطفى" حديثه مع زوجته، وأنهى فطوره، ليتجه إلى دار النشر التي وصل إليها في دقائق قليلة، وعندما دخل إلى مكتبه استقبله مساعده "عاطف" بحفاوة:

-حمد الله على السلامه يا كبير، الدار رجعت نورت.

-شكرًا يا "عاطف"، هاتلي قهوتي بسرعه في مكتبي.

-ولو في مصر يا فندم.

دخل "مصطفى" إلى غرفة مكتبه، ليحاول استكمال أعماله، ولكنها رفضت وحالت دون ذلك، فلها سحر النداهة، سحر أجبره على ترك عمله ومتابعة ما بدأه، ليترك "مصطفى" كل شيء ويتجه مرة أخرى إلى الرواية الجلدية الموضوعة بجوار مكتبه، ليتابع القراءة رغم كل شيء.

***

-يعني إيه هاتروحيلها؟ إنتي اتجننتي؟

-لأ عقلت.

قلتها بعدما عقدت عزمي على الذهاب لأسدد حسابًا قديمًا في رقبتي، ورغم اعتراض "نانسي"، إلا أن قراري لم يكن قابلاً للنقاش، لأذهب بكل إرادة وعزم إلى "كفر عبده"، لأطرق هذا الباب بقوة، غير مكترثة لذلك الكلب الذي ملأ الدنيا نباحًا، حتى فُتِح الباب أخيرًا.

-مدام "ليلى"؟!

-معلش يا أستاذ "شادي" أنا آسفه لو جيت من غير معاد.

كان "شادي" لا يزال مندهشًا من الزيارة، ولكنه أشار إليَّ بالدخول.

-لا أبدًا، أنا حقيقي مش جايه لحضرتك.

في اندهاش علق "شادي":

-أفندم؟!

-أنا حقيقي جايه لمدام "ياسمين".

-"ياسمين" مراتي؟!

-أيوه يا فندم، "ياسمين" مرات حضرتك، هي مصادفه عجيبه، بس منطقيه.

-يعني هو حضرتك بجد تعرفي "ياسمين"؟

-أيوه والله، ويا ريت لو تبلغها بوجودي.

-طب حالاً، إتفضلي بس استريحي.

أشار "شادي" إليَّ بالجلوس، واتجه إلى أعلى، ليجد "ياسمين" على السلم تنظر إليَّ في اندهاش، فتعجب "شادي" وهو ينظر إلى زوجته التي نزلت بكبرياء يمقته.

-آخر حد كنت ممكن أتخيل إنه يزورني في بيتي.

قالتها "ياسمين" ومن خلفها تابعها "شادي":

-أنا مش فاهم أي حاجه!

-ولا لازم تفهم، بعد إذنك يا "شادي"، سيبني مع "ليلى" لوحدنا.

اقترب "شادي" من زوجته وهمس لها قائلاً:

-إنتي تعرفيها منين؟

-"شادي" لو سمحت، أنا عارفه إنك كنت ماشي، هافهمك كل حاجه بعدين.

-حاضر، هاستأذنك يا "ليلى" هانم، وسلامي لـ"عمر" بيه.

انزعجت "ياسمين" من كلمات "شادي" الذي خرج، ليتركنا وحيدتين.

-إنتي جايه تترجيني أرجعلك المعرض ولّا إيه؟

-المعرض؟! تصدقي برضه أنا استغربت إيه اللي يخلي حد عايز ياخد المعرض ده بالذات! آخر حاجه كنت أتوقعها، إنها تكون إنتي.

- بالعكس! أكتر حد المفروض يكون عايز المعرض هو أنا! انتي نسيتي ان "عمر" سماه على اسمي.

انتبهت لما قالته "ياسمين" فبالفعل سمى "عمر" المعرض "جاستيك" تيمنًا باسم "ياسمين" بالإنجليزية، "ياسمين أنتيك"، ولقد رفض "عمر" تعديل الاسم بعد ذلك.

- يعني انتي كنتي عايزة المعرض، ولا عايزاه عشان تكسريني؟، والصراحه عندك حق، عشان أنا حقيقي اتكسرت، بس لو كنتي عايزه المعرض عشان تخلي "شادي" كربونه من "عمر" زي ما اخترتي مكان فرحك في نفس مكان فرحنا، فيبقى حرام عليكي.

انفعلت "ياسمين" ورفعت من صوتها:

-إنتي جايه تهزئيني في بيتي؟! إنتي مجنونه يا ست إنتي؟! مش كفايه اللي عملتيه فينا كلنا. إنتي عايزه مني إيه تاني؟ حرام عليكي.

اقتربت من "ياسمين" لأهدئ من روعها:

-عايزاكي تسامحيني.

نظرت "ياسمين" إليَّ في اندهاش:

-إنتي جايه تتريقي عليا؟!

-لأ يا "ياسمين"، أنا جايه أعتذرلك على الكاس اللي دوقتهولك، جايه أقولك إني شربت من نفس الكاس.

بدأت "ياسمين" تصدق ما يقال، لتجلس من هول ما تسمعه والدموع في عينيها:

-آسفه، بس كده!

ضحكت "ياسمين" وتابعت:

-طيب فين إحساس النصر؟ إنتي عارفه إنتي عملتي فيا إيه؟

إنتي عارفه إن الجاليري ده أنا اللي مصمماه، عارفه إن إسمه على إسمي، عارفه إن "عمر" كان مني؟

-عرفت وبجد آسفه.

-آسفه، يا بجاحتك يا شيخه! ده أنا كنت بغير عليه من الهوا الطاير، من أهله، من كل حاجه، لغاية لما جيتي إنتي وخطفتي كل أحلام عمري مني، قسيتيه عليا، وخليتيه واحد تاني، وكانت إيه النتيجه؟

-اتطلقت، النتيجه إني اتطلقت.

صُعقت "ياسمين" ونظرت إلى دموعي.

-اتطلقت عشان عمري ما حبيته ولا حبني، اتطلقت عشان كنت هبله وفرحانه بفستان ودبله وغنوتين، اتطلقت بعد ما عرفت طعم الحب الحقيقي إيه، اتطلقت بعد ما عرفت الوجع اللي حاسيتي بيه.

لم أتخيل أبدًا أن تغفر لي "ياسمين"، ولم أكن أتخيل أنها ستحضنني يومًا ما، ولكنها فعلت، فلقد تأكدتُ أني قد ذقت مُر الألم وأصعب وجع، وهو وجع القلب، وهو كافٍ ليغفر للإنسان ذنبه وجهله.

***

لم يصدق "مصطفى" ما قرأه للتو! فلا تزال تلك الرواية تصفعه كلما أفاق، ليكتشف "مصطفى" أخيرًا أن صديقه "شادي" هو ضحية زوجته التي تحاول أن تجعل منه نسخة من حبيبها

القديم "عمر"، لذلك تريده هذا الرجل الحسابي الذي ينجح في الإدارة والأعمال، ولعل هذا سبب إصرارها على شراء "شادي" معرض "عمر"، هي محاولة منها لتعيش الماضي، لتظل خائنة لـ"شادي" وإن ظلت بين أحضانه، فإذا كانت "ياسمين" هي ضحية "ليلى" التي هي ضحية "عمر"، فلا ذنب لصديقه أن يكون ضحية لـ"ياسمين" هو الآخر، فلو علم ذلك لما تعاطف معه منذ البداية، ولعله كان أشار إليه بما يجب أن يفعل في "الأول من كانون الثاني"، فلقد تسرع "مصطفى" في حكمه قبل المداولة، كما فعل مع "ليلى"، دون أن يعطي نفسه فرصة للعلم والفهم. قاطع تفكير "مصطفى" مساعده الذي دخل على استحياء، وظل ينظر أرضًا.

-خير يا "عاطف"؟

-إن شاء الله خير يا فندم.

-طيب مالك في إيه، وإيه اللي إنت ماسكه ده؟

قالها "مصطفى" وهو ينظر إلى مظروف في يد "عاطف".

-ده جواب جاي لحضرتك.

-من مين؟

لم يجب "عاطف"، فتوقف "مصطفى" وخطف الجواب، ليقرأ الفاجعة.

***

توجه "شادي" إلى المعرض، وتوجه إلى مساعده طلبًا للقهوة.

-"عاطف" هاتلي قهوتي بسرعه في مكتبي.

-ولو في مصر يا فندم.

دخل "شادي" إلى غرفة مكتبه، ليحاول استكمال أعماله، ولكنها رفضت وحالت دون ذلك، فلها سحر النداهة، سحر أجبره على ترك عمله ومتابعة ما بدأه، ليترك "شادي" كل شيء ويتجه مرة أخرى إلى الرواية الجلدية الموضوعة بجوار مكتبه، ليتابع الكتابة.

***

ظل "مصطفى" شاردًا وهو يقرأ الجواب الذي كان يحمله "عاطف"، فلقد طلبت زوجته الطلاق قضائيًّا نظرًا لعجزه عن الإنجاب. لم يكن "مصطفى" يتخيل مثل هذا الغدر، فلقد أعدت له الفطور صباح هذا اليوم، فكيف كانت تنوي له مثل هذه النية؟! سكت "مصطفى" عن الكلام ليسقط أرضًا في سلام، فلقد صاروا جميعًا متألمين وبحرقة الحب مخدوعين، ليجد "مصطفى" نفسه في عالم آخر يلف كل ما حوله، ليشعر وكأنه هو راقص التنورة، الذي لا يزال يلف ويدور.

*** ***

دخل و(هو) ثائر يُدخن غليُونه:

- حرام اللي بتعمله فيا، ما توصلش ليا أنا، أنا مستقبلي اتدمر، أنا خسرت كل حاجة؛ بيتي وشغلي، أنا عايز أموت، ياريتك ما فكرت فيا، ياريتني ما اتخلقت.

-ماتخافش، ده كان اختبار...

- اختبار؟!

- خلاص ماتخافش، إنت بالذات ماتخافش، إنت دايمًا قريب مني، أوعدك كل حاجة هاتتصلح ماتخافش.

-ازاي بس؟

-هاتكفر بيا ولا إيه؟

-إنت عارف إني أكتر حد مؤمن بيك، وكلامي كله من عشمي فيك.

-خلاص اتكل عليا وماتخافش، وكل اللي كتبتهولك هاغيره، وكل اللي مضايقك هاصلَّحه، وإللي حرمتك منه، هاعوَّضهولك.

-إزاي؟

-كن فيكون!!

*** ***

الفصل التاسع

لم يكن الرحيل هينًا، فالوطن هو الحياة، وهو الكفن، ففيه نولد وفيه نُدفن، وبين التاريخين نعمره ليكون مكانًا أفضل لأولادنا، واليوم قد طلب منا المغادرة، الهجرة الجبرية، الذهاب دون عودة، ترك بلاد الأندلس، جنة الله على الأرض، نتركها مرغمين مقهورين، بذل منفيين، ومن طردونا هم أهلنا وجيراننا وأحباؤنا، ليزيدوا من عذابنا، فلاختلاف العقائد تجاهلونا، وبغدر الخيانة اتهمونا، فماذا لو حاولوا فقط أن يحتوونا؟ لصرنا أمة واحدة لا يفرق بينها شيء.

ورغم صعوبة ترك الوطن، إلا أن "مريم" كانت تستطيع أن تجعل من الصعب سهلاً، فلقد كانت هي وطني، فالمرأة هي الشيء الوحيد الذي يعوض الوطن، فهي السكن وهي الملاذ من المحن، ولقد كانت "مريم" وطني، وقد فضلت مغادرة قشتاله على تركي، فلقد خيروها، وهي اختارتني، ولا أعلم لمَ عشقتني! لم نستطع المغادرة لبلاد المسلمين؛ حيث استشعر القساوسة الحرج في نفي الأطفال المعمدين في الكنيسة إلى بلاد المسلمين، ونظرًا لتعميدي "علي" لم نستطع التوجه إلى أرض المغرب، وإن لم يشفع لنا هذا البقاء في الأندلس، ليتوجب علينا الرحيل إلى جنوب فرنسا، وبالتحديد مدينة "أورتيز". لم نأخذ معنا أكثر مما نستطيع حمله، ولكني تمسكت بذلك الصندوق الذي صنعته مسبقًا لـ"مريم"، هذا الصندوق ذو الألوان الزاهية، والتي وضعت فيه "مريم" صندوقًا أصغر لحليها، بينما وضعت أنا عدستي المكبرة وبعض أوراق جدي ووضع "علي" حصانه الأحمر الخشبي. ليغتصب أهل

"قشتاله" ما تركنا من مال وأراضٍ بارت بعد ذلك من جهلهم بالزراعة. كانت المواكب حافلة بالمشاة، بينما صوت السياط يتناغم مع صوت الذخيرة لكل من عارض التعليمات، كانت الأطفال تبكي، وكانت النساء تُستباح، ليظهر وجه آخر كريه لأهل الأندلس، الذين كنت أظنهم أهلي، كان الشتاء قارسًا، وكان الزاد قليلاً، وكان "علي" صغير البنية، فكنت أحمله تارة و"مريم" تارة. كان المشاة يتناقصون يومًا بعد يوم؛ أثر المرض أو الجوع، ليموت المئات كل ساعة أمام أعين الجنود، الذين كانوا يقايضون الماء والزاد بالعرض أو الأستعباد. تفرق الجمع وساد الهلاك، ليعبر من تبقى حدود البلاد، لتستقبلنا فرنسا، بنفس الاستبداد، فبرغم اختلاف الفرنسيين عن الإسبان، فهولاء "البروتستانت" وأولئك من "الكاثوليك"، إلا أن الشك تسيد الوجود، فلقد كانت ملابسنا الإسبانية كريهة لهم في فرنسا، كما أن الطمع ملأ النفوس، لينتهز الجند الفرنسيون ضعف اللاجئين، ليسرق كل منهم ما تبقى من المورسكيين، ليعيش المنفيون كابوسًا آخر يزيد من همِّ السنين، فلقد حُكم عليهم بالمذلة قبل التوجه إلى بلاد المسلمين.

كان "علي" قد مرض مرضًا شديدًا، فلقد اغتصبت السموم قدميه الحافيتين، مع سوء تغذيته أثناء السير، وكنا حوله، نحاول تدفئته بجسدينا، فلم نعد نمتلك شيئًا، وكنا ننام على جانب الطريق، لا نجد مأوى من الصقيع، كانت "مريم" خائفة، وكنت أشعر بها، فأعطيتها وردة حمراء كانت لاتزال حالمة في الصندوق، ليزداد ألمي وعجزي عن حمايتهما، فشردت للقمر، وحاولت الحديث لربي داعيًا، لعله يرشدني إلى الأمان، تذكرت أبي وسره الأخير، فأعلم أن لورقه سحرًا غريبًا، يمتص الحبر،

والحروف بشكل رهيب، لتظهر الحقائق لكل باحث عن الحبيب، ويزيف أيضًا لكل مخادع بغيض، ولهذا لم آخذ غيره طوال الطريق، وقد قررت أن أكتب رسالة أخرى إلى السلطان العثماني، لعله يساعدنا فيما حل بنا من سرقة وتعذيب. أخرجت الأوراق من الصندوق وبدأت أكتب بقلمي كل ما أريد، ليعيد الورق تشكيل كل حرف بتغريد، ليكتب معاني أوضح وأعمق مما كنت أريد، كنت أكتب أمام "علي" لعله يتعلم من جديد كل سر عندي ليرثه كما فعلت، ولكني كنت أجد "علي" متعبًا ومريضًا، فخفت ألا يكون قد تعلم مني ما شرحت وذكيت. بعدما فرغت من الكتابة، شردت في رسالة قديمة بخط أبي، وفور قراءتها، كنت قد وجدته أمامي على الطريق، فيا لسحر ورقه الفريد!

-ماذا أنت فاعل يا "هيثم"؟

-أبي، إني ضللت الطريق.

-الوطن هو الطريق.

-كيف وقد تركنا ضعافًا دون سند أو مليك؟

-لست تحتاج إلى المليك، بل تحتاج إلى الإرادة واليقين، فيومًا ما سيجد أحفادنا الطريق.

-فهل سنرجع إلى الأندلس من جديد؟

بعد دقائق من شرودي مع صورة أبي الزائفة،الذي لم يكن أكثر من مجرد "حبر على ورق" سمعت صراخًا من عائلة مورسكية أخرى، فمن وسط جنات الأرض، حاولت النظر إلى ما يحدث، لأجد

مجموعة من المخربين الفرنسيين، في زي أبيض غريب، عبارة عن عباءات بيضاء مطرزة بصلبان ذهبية، وقبعات طويلة على شكل مخروط هندسي، مُخفين وجوههم بأقنعة غريبة، كانوا قد خطفوا امرأة من زوجها، لتقوم جماعتهم باغتصابها أمام أعين الزوج وأولادها، في مشهد مريع أربكني، فلقد شعرت أن القادم أسوأ. في وسط الظلام عدت إلى "مريم" التي كانت تبكي بحرقة وهي تعترض لما تراه من ظلم وقهر، فتذكرت عندما قابلتها صغيرًا، لتردع كل من حاول إهانتي، فما حالها الآن؟! أشعر بها، فهي حرة وقوية، ولكن خوفها اليوم وضعفها حالا دون صراخها، اقتربت من "علي" الذي كان ممسكًا بالوردة الحمراء، لأضم فيها تلك الرسالة التي كتبتها للسلطان العثماني، ووضعتهما في الصندوق بجوار حصان "علي" الأحمر، ثم حاولت إخفاءه وسط الزرع الكثيف، لينظر إلي تلك النظرة التي ودعت بها أمي قائلاً:

- لا تتركاني!

- لن نتركك! بل سنكون هناك دائمًا بين طيات ورق أجدادنا، فسأظل أكتب لك ما حييت.

- سأنتظر كلماتك يا والدي وسأرسل الرسالة!

قالها الرجل الصغير لأودعه ومن ثم حاولت إخفاء "مريم" التي قالت لي:

-لا تدع امرأً غيرك يلمسني.

-بالتأكيد لن يفعلها غيري!

-أقسم لي أنك تفضل موتي عن سبيي وهتك شرفي.

-ماذا أنت قائلة؟!

-أقسم لي أنك لن تدعهم ينالوا جسدي.

بكيت وأنا أقسم لها، فلقد فهمت أسفًا ما ترمي إليه.

-أقسم لكِ أني أفضل موتي عن المساس بشرفي.

قلتها وياليتني ما أقسمت! فلقد ظهر هذا الرجل من فوق جواده، ينبههم لوجودنا، وقبل أن ينتبه باقي المغتصبين إلينا، حدث ما كنت أخشاه، فلقد كان الرجل يحمل سيفًا وبندقية صوبها ناحيتي، بينما كان "علي" لا يزال ساكنًا، أما "مريم" فكانت بجواري، ولكنها أثارت الجواد بذكاء؛ ليتحرك الحصان ويفشل الرجل في تصويب بندقيته باتجاهي، فباغته مهاجمًا لأسقطه أرضًا، لتنطلق طلقة في الجو تنبه الباقين، ليسقط الرجل أرضًا، وتعتلي "مريم" الجواد، فتفقدت الرجل، فوجدته قد فقد الوعي، فأخذت منه سيفه وبندقيته، وجررت جسده إلى وسط الطريق بعيدًا عن مكان "علي"، ثم دفعني فضولي أن أكشف وجه هذا الرجل، فأزحت عنه القناع والجلباب، لأجده جنديًّا فرنسيًّا، فهرعت إلى "مريم" واعتليت الجواد خلفها لنبتعد عن أثر "علي" وصندوقه، قبل أن يظهر باقي الفريق، ورغم نجاحنا في الابتعاد، إلا أنهم كانوا كثرة، لأجد هناك من يحاصرنا في كل مكان، لنجد أنفسنا في بقعة مكشوفة، يحيطنا فرسانهم، من بين الأشجار الكثيفة التي يكسوها الثلج الأبيض.

-لا تتركني لهم.

-لن أفعل.

قلتها وأنا أطلق طلقات البندقية، في محاولات مني لاصطيادهم، ولكني لم أكن محاربًا ناجحًا، لتنفد الطلقات، وأصبح أعزل، إلا من هذا السيف الذي رفعته في مقابل ضحكات سخرياتهم.

-إن اليوم يوم مميز، فسنتبادل جميعًا زوجتك حتى الصباح، وسوف تستطيع الحكم على مجهودنا جميعًا سيدي الفاضل.

قالها أحدهم ممن يرتدون نفس القناع، وإن كنت أظنه كبيرهم.

-أتوسل إليكم أن ترحموا زوجتي وعرضي.

-ولمَ نفعل ولم يفعلها أهل بلدك؟!

سكت وكنت أعلم أنها النهاية، لأجد "مريم" تحدثني في حنان:

-أعلم أن لقصتنا كتابًا سيخلده التاريخ، زوجًا وزوجة، أبًا وأمًّا، عاشقًا وعشيقة، مسلمًا وكاثوليكية، لقد وفيتك كل وعودك، فوفِّني وعدك، فلن أقبل أن يمسني غيرك.

دمعت عيناي لتمسحهما "مريم" قائلة:

-لا تدمع يا زوجي الحبيب، فلسنا من هذا الزمان، ابتسم، فلا زلنا سويًّا، ابتسم فسنقابله سويًّا.

قبَّلتها وكأننا في يوم عرسنا، ضغطتُ على شفتيها الحالمتين، لئلا تشعر بسن السيف الذي غرزته في قلبي بصدرها، حتى تذوقت طعم دمائها الخمري بفمي، لأظل أبكي وهي تفارق الحياة طاهرة،

كما وعدتها، لم أكن أظن أبدًا أن تُلوث يدي بدماء بشر، بل ملاك. أخرجت السيف من أحشائها لأغرزه في قلبي لأودع الدنيا بعدها، فلقد مللت هذه اللحظات التي عشتها وهي غائبة عن الدنيا، ولكن هذا الرجل ذا القناع الأبيض حال دون ذلك، لأفشل في قتل نفسي وأذوق سوء العذاب، ليأسروني هؤلاء الكلاب، وتنقلب عليَّ البلاد، فلقد خلع هؤلاء ملابسهم البيضاء، وإذا بهم أفراد من الجيش الفرنسي، ولقد صرت بالنسبة إليهم منقذًا لما فعلوه آناء الليل، صرت قاتل عسكر الفرنسيين، وصرت المسلم قاتل زوجته الكاثوليكية، لأستعد بعدها للطريق، فلقد صارت محاكمتي رمزًا وطنيًّا عريقًا.

***

(١٩)

يدَّعون أن حركة الكون تبدأ وتنتهي عند نفس النقطة، وكأنه يدور حول نفسه، يظل يدور ويدور، ويدور معه هذا الرجل، كالأرض التي تدور حول الشمس مُكونةً الفصول الأربعة كراقص التنورة الذي يدور سابحًا في ملكوت ربه لا يبتغي إلا حبه، باحثًا عن الحقيقة التي لا يعرفها أيٌّ منا، إلا من رحم ربي.

وهذه كانت حقيقتي قبل أن أستفيق من نكستي بالمستشفى، لأجدها مرة أخرى أمامي، تلك "الحيزبون" اللقيطة.

-"مصطفى"، إحنا محتاجين نتكلم.

مشوشًا أحاول الفهم:

-أنا فين؟

-في المستشفى عشان الزفت إللي إنت بلبعته امبارح ده.

ضحكت وإن كنت قد بدأت أفهم أني كنت أتخيل بعض الأحداث الماضية، لعلني غرقت في أحداث الرواية، وبدأت أتوهم أشياء..

-وهو إنتي كنتي فين يا "جيجي"؟

-فارقه معاك أوي كنت فين؟

-يا سيتي هو ده وقت خناق؟ أنا في مستشفى.

-بالظبط كده.

-لمَّا تكون يا جوزي يا محترم، في المستشفى بين الحياه والموت، وأسمعك بتهمس بإسم ست تانيه، المفروض أنا أعمل إيه؟

ابتسمت وأنا أتذكر ذلك المشهد المعاد في ذاكرتي.

-ست مين؟

-"ليلى" هانم.

ضحكت ساخرًا وعلقت:

-يا حبيبتي دي شخصيه في روايه بقراها، هاتغيري كمان من شخصيات الروايه؟

-الروايه دي؟

قالتها وهي ترمي إليّ بالرواية الجلدية.

-طيب ما إنتي عارفه اهو.

-وهو إنت كمان إسمك ليه في الروايه؟

علقت معيدًا في اندهاش:

-إسمي أنا؟

-إسمك وإسمي وأسامينا كلنا. بص بقى يا "مصطفى"، أنا مبقتش حاسه معاك بالأمان، أنا مليش عندك حقوق، ولا عارفه أخلف منك حتة عيل، وإنت مبقتش الراجل المحترم اللي اتجوزته، وأنا ماضمنش بعد ما اضيع معاك شبابي وأجمل سنين عمري، إنك ترميني في الآخر وأنا مليش عليك حقوق.

لم أعلق، وظللت أتأمل رد فعلها، لتكمل هي:

-كلكم رجاله زي بعض، غدارين، آخر كلام عندي ليك يا "مصطفى" لو بتحبني بجد ومش ناوي تغدر بيا، أمنلي مستقبلي أنا مش عايزة أحس أني مجرد "حبر على ورق".

-"حبر على ورق"!

قلتها ساخرًا فهي تجهل الكثير، هذا قبل أن أتساءل في دهاء، عما تريدني تلك "الحيزبون" عمله!

-طيب بس فهميني أعمل إيه؟

-تكتبلي الشقه والدار بإسمي.

تأكدت مما كانت تريد تلك "الحيزبون".

-إنتي مجنونه؟! بيت أبويا ودار الخوانكي، أكتبهم بإسم حد غر...

تذكرت حديثنا في خيالي، فابتسمت وتابعت:

-حد تاني، حتى لو مش غريب.

لم تستطع إحراجي تلك المرة، فلقد كنت متفهمًا لنواياها.

-عمومًا ده آخر كلام عندي، لو عايز تحافظ عليا أمنلي مستقبلي، لو مش عاوز إعتقني لوجه الله يا أخي وسيبني، يمكن أخلفلي حتة عيل يسندني قبل ما أموت.

قالتها وخرجت، لتقتل ضعفي وعجزي وقلة حيلتي، لتتركني مع عجزي وفكري، أحاول إيجاد قلب رحيم بضعفي، لأتذكر تلك الرواية المرمية على الأرضية، فاقتربت منها وأمسكتها، لألاحظ سقوط قطرات من دمائي أثر، "الكانيولا" المعلقة بيميني، لتلامس تلك الدماء أوراق الرواية، التي سبقتني دماء أخرى إليها منذ زمن بعيد، كانت قطرات دمائي تسير في هدوء وسكينة، وكأنها تمد الرواية بالحياة، أو تنعش حروفها من الموت، لحظات وأنا متسمر خوفًا حتى توقف النزيف عندما دخل "شادي" مرة أخرى، دخل مبتسمًا، ولكني لم أستطع الابتسام.

-الدكتور كتبلك مغادره بكره.

نظرت له وتذكرت ما فعلته في خيالي، فابتسمت ولكني آثرت أن أكون وحيدًا.

-طيب معلش يا "شادي" أنا محتاج أكون لوحدي شويه.

تردد "شادي" وتساءل:

-إنت كويس؟

-هابقى كويس، بس من فضلك، سيبني لوحدي.

-ما إنت فعلاً لوحدك.

قالها "شادي" قبل أن يختفي، ليتركني مع تلك الرواية العجيبة، التي أمسكتها مرة أخرى في فضول. فُتحت الرواية من تلقائها، لأكتشف أن نهايتها لا تزال خاوية، فلم تكمل "ليلى" كتابتها للأحداث، كما قالت لي مسبقًا "أنا لسه مخلصتش الرواية، مش لاقيه ليها نهايه واضحه".

إذن كل باقي تلك الأحداث كان من خيال عقلي المريض؛ مما يعني أني لم أزل قادرًا على تغيير الأحداث، ويعني أني لم أزل أمتلك شقتي وداري!

سكت طويلاً وتذكرت ما كنت أدعيه دومًا، أننا نستطيع أن نغير واقعنا، طالما امتلكنا الإرادة، ولذلك سأبدأ اليوم في كتابة النهاية، لعلي أستطيع تغيير الواقع كما أتمنى. جلست على تلك الأريكة الجلدية وأمسكت قلمًا، وفتحت تلك الرواية الجلدية، وتابعت أين توقفت "ليلى" عند كتابتها، وأكملت أحداثًا كثيرة قد سردت، وبخط يدي كما فعلت "ليلى"، أكملت ساعات من الكتابة وحتى الصباح، أدركت فيها ما أريد، وتوكلت على ربي فيما كتبت، إن أراد لي الخير كما تخيلت.

أيقظني الطبيب في الصباح، وبشرني بقدرتي على المغادرة،

فابتسمت وتذكرت ما رسمه لي عقلي لكي أغادر باكرًا بضع ساعات، واندهشت كيف لم ألاحظ أني كنت واهمًا!

غادرت وتوجهت إلى بيتي، ولقد كنت قد حسمت أمري فيما سأفعل ليلة أمس، وكتبت كل ما أريد بالتفصيل، ولكن هذا لم يقلل من وطأة الأمر وصعوبته، فعندما وصلت، كانت "جميلة" مستلقية تتكلم عبر الهاتف، فجلست إلى جوارها وأنا أداعب وجهها:

-"جميلة" أنا محتاج أتكلم معاكي شويه.

اندهشت "جميلة" وظنت أني قد استسلمت بسرعة، فأنهت حديثها الهاتفي وتوجهت إليّ:

-هاكلمك تاني، إسمي "جيجي" يا "مصطفى"، حمد الله على السلامه، خرجت إمتى؟

-لسه حالاً، بقولك يا "جيجي"، أنا منمتش من امبارح.

-خير؟

-كنت بفكر في كلامك.

-وفكرت؟

قالتها بدهاء وثقة.

-أيوه فكرت، ولقيت إن عندك حق في كل اللي، قولتيه.

في سعادة ردت:

-حقيقي يا "مصطفى"؟ يعني مش زعلان مني؟

-بالعكس، أنا كل همي إني أسعدك، عشان كده قررت هاعمل إيه.

-إيه يا حبيبي؟

-"جميلة" الأمان ما بيتشريش، والوقت مابيتبعش.

صُدمت "جميلة" من مقدمتي ووقفت قائلة:

-تقصد إيه؟

-أقصد إن التمن اللي هادفعه عشان أكسب حبك، أو عشان أحسسك بالأمان، مهما كان، هايكون رخيص، الحب يا "جميلة" أعظم حاجه في الدنيا، وأنا مش هاكون أناني وأحرمك منه.

على عكس توقعي، دمعت عينا "جميلة" لعلها لم تتوقع الفراق، على الأقل لم تكن مستعدة له في تلك اللحظة.

-إنتي لسه صغيره ومن حقك تفرحي وتخلفي، وأنا لو معايا مال قارون مش هاعرف أعوضك بيه عن قلبك، وصدقيني، مهما كان التمن اللي كنت هادفعه، كان رصيدي هايخلص بسرعه، إنتي مش محتاجه فلوس يا "جميلة" عشان تحسي بالأمان، إنتي محتاجه عيله، وواضح إني مقدرتش أكون العيله دي.

بدأ بكاء "جميلة" يزداد، بينما تابعت:

-ماتخافيش، أنا هاجيبلك شقه مؤقته، وهاسيبلك فلوس، وكمان هابعتلك كل اللي تحتاجيه، "جميلة" إنتي طا..

-لأ يا "مصطفى".

-إنتي طالق يا "جميلة".

*** ***

هربت من مرآتي التي جعلتنا سجناءها، لأقرر الخروج من سجن خيالي، والتحرر منه، لأعيش واقعي، وإن ظلت المرآة تُذكرني بعيب خلقي الذي حاولت إخفائه بشعري الطويل، ولكني تشجعت وتركت مكاني، وذهبت إلى مدرسة الرقص التي علمت بمكانها في "لوران"، فلقد كنت أعشق الرقص، خاصة هذه الرقصة التي تعلمتها من أجدادي، ولكني لم أكن أجد من أُراقصه، فمن يعرف تلك الرقصة الاسبانية الصاخبة، التي تقتل الأرض صراخًا وألمًا، وهناك لمحتها، فلقد كانت من بنات قشتالة.

نظرت إليّ بابتسامة جريئة، تفتقدها الكثير من نساء هذا المكان، كانت تشعر بوحدتي، اقتربت بفستانها الأحمر الحالم، الذي كان متماشيًا مع الوردة الحمراء التي تتوسط خصلات شعرها.

-ترقص؟

-إنت مين؟

ظل اسمها يُغرد في أُذني، مع "راقصة الفلامنجو"؛ ذلك التذكار الذي أهدته لي، لأقرر أن أبدأ في الكتابة، بل أبدأ في الرقص، فهي القشتالية الوحيدة التي غفرت عيْب خلقي، فلم أكن بديعًا بألم ظهري.

*** ***

(٢٠)

بعد ساعات طويلة من الانتظار عاد "عمر" أخيرًا إلى البيت، ليجد "ليلى" وهي مستيقظة في انتظاره.

-"ليلى" إنتي لسه صاحيه؟

-وإنت لسه فاكر؟

ارتبك "عمر" وخلع كوفيته، واقترب منها.

-فيه إيه يا روحي؟

-كنت مع مين يا "عمر"؟

-من إمتى بتسأليني كنت فين ولّا مع مين؟

-من ساعة ما اتجوزت "هدير" يا "عمر".

صُعق "عمر" من معرفة "ليلى" بزيجته الثانية، ولم يستطع النطق!

-سكت ليه يا "عمر"؟ مكسوف؟ هي الصراحه حاجه تكسف.

وقفت "ليلى" أمام "عمر" وتابعت:

-طيب ماتجوزتهاش ليه من الأول؟ ما هي كانت قدامك، مش دي برضه كانت سبب طفشان "ياسمين" صاحبتك القديمه اللي كنت مسمي المعرض على اسمها؟ مش كانت بتغير منها زمان؟ طيب يا أخي لما سيبت "ياسمين" ماتجوزتهاش ليه؟ ولّا هي حليت في عنيك لما اتجوزت واتطلقت؟ أنا عايزه أفهم حاجه واحده بس يا

"عمر"، إنت اتجوزتني ليه؟

لم يستطع "عمر" الرد، فلم يكن يعلم الإجابة، وكان هذا كل ما تحتاجه "ليلى" لتطلب طلبها الأخير.

-طلقني يا "عمر".

***

دخلت على "شادي" في المعرض، بينما استخرت ربي فيما سأفعله، فلم يصبح هناك المزيد من الوقت ليُهدر.

-"عاطف" هاتلي قهوتي عند الأستاذ جوا.

-ولو في مصر يا كبير.

دخلت غرفة "شادي" وأنا متوتر، ليلاحظ هو توتري قائلاً:

-خير يا درش، مالك؟

جلست وأنا أحاول ترتيب الكلام.

-يا بني ماتتكلم قلقتني.

شُل لساني، فأخرجت الرواية الجلدية التي كانت بحوزتي، ليرمقها "شادي" في دهشة.

-ياه، قريتها؟

-مش هي دي المشكله.

-أمال في إيه، إيه جو الساسبنس ده؟

-"نانسي".

توقف "شادي" عن السخرية، وترك مكتبه واتجه ليجلس على الكرسي المقابل لـ"مصطفى"، ولكنه ظل صامتًا، ليكمل الأخير:

-أنا عارف إنهم بيقولوا إن الفرصه مابتجيش مرتين، بس حقيقي هي ممكن تيجي للمحظوظين مرتين، أنا مش عارف اللي هاقولهولك ده صح ولّا غلط، بس ناقص يومين.

-ناقص يومين على إيه يا "مصطفى"؟

-ناقص يومين على أول يوم في السنه، يوم ميلادك يا "شادي"، يوم ميلادنا كلنا، "الأول من كانون الثاني".

***

ظلت "ليلى" منتظرة في "سانتا لوتشيا" تحاول كتابة فصل النهاية، بعدما علمت ما حلّ بصديقتها "نانسي" التي تجهل إذا كانت ستسافر إلى "غرناطة" كعادتها في كل عام، أم ستمكث في الإسكندرية لتحاول إدراك ما حلّ بها من غدر، بينما كان "شادي" قد وصل مع صديقه أمام عالم "سانتا لوتشيا"...

-متشكر يا "شادي".

-أنا اللي متشكر يا صاحبي على كل حاجه.

-فكرت كويس هاتعمل إيه؟

-وهي دي محتاجه سؤال؟ إنزل يالّا عشان ألحق أطلع مصر، ألحق

الطياره.

ابتسم "مصطفى" لقرار صديقه، بينما توجه "شادي" لتوديع "مصطفى" بشكل مبالغ، ثم تركه وذهب، ليدخل "مصطفى" عالمه الخاص الذي يعشقه.

-حمد الله على السلامه سموك.

-شكرًا يا "متولى".

دخل "مصطفى" وصعد السلم، حتى وصل للدور العلوي، ليجدها تكتب في صمت، فاقترب أكثر، حتى صادف العاشق الشاب يجلس مع حبيبته التي كانت دائمًا تجلس بعيدًا، فابتسم لهما، ثم مر بجوار "ليلى" التي كانت منهمكة في الكتابة، فخاف وهرب بعيدًا إلى طاولته القديمة خلف "ليلى"، وظل هكذا دقائق كثيرة، حتى اقترب منه العاشق الشاب، وهمس في أذنه:

-إنت مابتحبش "محمد منير" ولَّا إيه؟

ضحك "مصطفى" وفهم ما يرمي إليه الشاب، فتوقف ومر بجانب "ليلى"، ثم جلس أمامها، لتنتبه أخيرًا وتبتسم.

-بتعملي إيه؟

-بكتب النهاية.

رفع "مصطفى" يده ليمسك بيد "ليلى" الممسكة بالقلم وقال:

-سبقتك وكتبتها.

-بجد؟

-تيجي أحكيهالك؟

-يا ريت.

*** ***

ظللت أنظر إلى هذا التذكار لراقصة الفلامنجو ذات الثوب الأحمر والتي أهدته لي أميرة "قشتالة" لتجعلني أنظر إلى ما بداخلي، من خلال تلك المرآة التي عكست آلام ظهري، وأنا اتسائل كيف ابتسمت لي تلك الراقصة الإسبانية؟ كيف رقصت معي في تناغُم؟ كيف اكتشفت الراقص الذي بداخلي؟ كيف تقبلت عيب خلقي عكس الجميع؟ كيف رأتني؟ رأتني في الوقت الذي همَّشني فيه الجميع، لأعيش حياتي وحيدًا بعيدًا عن وطن أجدادي في الأندلس، لا أتحدث إلا مع شخوص تلك الرواية الجلدية التي صنعها جدي الأمير، ليتشتت عقلي الحبيس في ظلمته، وتستغل تلك المرآة وحدتي لتعكس كل من كانوا في داخلي، أما وقد رقصت مع معشوقتي فسأخرج قريبًا من عزلتي بعدما قبلت تلك الراقصة دعوتي في حفل توقيع روايتي في "كفر عبده" في "الأول من كانون الثاني".

*** ***

الفصل العاشر

في قصره ب"إسلامبول"، لم يكن السلطان "أحمد" يتوقع القادم، ولكن تظل إرادة القدير مُسيطرة على الأمور.

-مولاي! رسالة من فرنسا.

-أهي من الملك أم من زوجته؟

-لا يا مولاي، بل من عائلة فرنسية بسيطة.

اندهش السلطان "أحمد" من حديث خادمه وحاول الاستفسار.

-وهل تجدني هنا لأقبل رعيتي ورعايا الحلفاء؟!

-أستميحك عذرًا يا مولاي، ولكنها رسالة هامة.

استسلم السلطان "أحمد" لفضوله، لتدخل العائلة المكونة من رجل طيب عجوز وزوجته ومعهما طفل، ظنه السلطان "أحمد" ابنهما.

-ماذا أتى بكم هنا؟

-هذا الطفل يا مولاي.

-أوليس طفلكما؟

-بلى يا مولاي، نعتبره كذلك!

-تعتبره؟!

وقف السلطان "أحمد" مُنفعلاً، ليقترب الطفل منه وهو يخرج

رسالة أبيه من ذلك الصندوق الخشبي المطرز.

-عذرًا يا مولاي، أنا "علي" حفيد صانع الورق من الأندلس، أرسلني أبي بتلك الرسالة الأخيرة.

لمعت عينا السلطان "أحمد" فرحًا واقترب من الغلام قائلاً:

-وكيف وصلت إلى ها هنا، وأين أبويك وباقي أهل الأندلس الكرام؟

سكت الطفل لحظة قبل أن يجيب:

-أوصلتني هذه العائلة النصرانية الكريمة، أما أبي وأمي ففي الأسر وقعا، أما أهل الأندلس، فهم في انتظار نصرتك.

صمت السلطان "أحمد" لما سمع من أحداث، ثم أخذ الرسالة الأخيرة، ليطلب استدعاء "إبراهيم آغا" ليرسله سفيرًا إلى البلاط الفرنسي ليخلص المورسكيين عامة من قهر الفرنسيين، وليخلص جنديه المخلص ابن صانع الورق خاصة.

***

النهاية

ساعات طويلة من الانتظار مرت على "شادي"، وهو جالس بتلك الكافتيريا من أمام محطة القطار، يُصارع يأسه، فلقد قارب "الأول من كانون الثاني" على الانتهاء، كما قارب هو على الفناء، فلم يعد يشعر بهذا الصقيع، الذي امتلك صدره وأطرافه، ولكنه تحامل على نفسه في محاولة منه لانتظار هذا القطار الأخير،

الذي قارب على الوصول، لحظات وهو ينظر إلى الورود الحمراء الموضوعة بجوار هذا الفنجان الأبيض في صمت كاد يقتله، حتى كسره صوت القطار القادم من "سانتا انا"؛ ليقف "شادي" ويمسك بالورود التي جرحت أشواكها يديه لتسقط دماء حبه فوق أرض الأندلس، قبل أن يذهب بخطاه الثقيلة إلى رصيف المحطة، ليترقب آخر الوافدين، لتفتح الأبواب ويسدل الستار عن السائحين، ليظل "شادي" يرمق كل الواصلين، دون أن يجد ضالته، فلم تأت من امتلكت قلبه وعمره؛ ليظل "شادي" واقفًا يرمق القطار في ضعف، حتى بدأ النداء الذي يبغضه.

"النداء الأخير لقطار804 المتجه إلى "سانتا انا"، برجاء سرعة التوجه إلى رصيف 2".

ظل "شادي" ينظر إلى هذا القطار الأخير وهو يعلم أنه حالم، ليصعد أخيرًا وحيدًا ذلك القطار، ومن بعده جميع الركاب، ليخرج "شادي" قلمه وروايته يائسًا، ليبدأ القطار استعداده للرحيل، ويتحرك ببطء، قبل أن يكتب "شادي" بدماء جراحه داخل تلك الرواية السطر الأخير!

ليقترب هذا التاكسي بسرعة بالغة إلى محطة القطار، وتهرول تلك الخطوات إلى المكان، ليتوقف "شادي" فجأة عن الكتابة، ويحطم الأمير يأسه ضاغطًا على مفتاح الطوارئ بالقطار، ليندهش الجميع ويتوقف السائق هلعًا ليتفقد الأمر؛ ليهرب الأمير من هذا القطار الأخير، في تحد لكل الظروف وبحثًا عن التغيير، لتطأ أقدامه مرة أخرى، رصيف "غرناطة"، ليغلق القطار أبوابه، ويذهب تاركًا هذا الأسير، مع آسِرَته التي كانت هناك تقف أمام

فنجانه الذي لا يزال دخانه يُقاتل برودة الشتاء، كان خلفها يقترب وهو لا يزال لا يصدق عينيه، عرفها من فوره، كما شعرت هي بدفئه من خلفها، وهي تستنشق عبير سحره الذي يقترب منها شيئًا فشيئًا؛ لترسم شفاهها ابتسامة تصالح وجهها المجروح، لتلتفت إليه، والمطر قد بدأ في التساقط، ليتلامسا بأعينهما، قبل أجسادهما، ليتلاحما مرة أخرى، تحت قطرات مطر الرحمن، ليتراقصا في بلاد الأندلس، رقصة يُعلمُها كلاهما، رقصة أسبانية عربية، تطرق فيها أقدامهم الأرض غضبًا وحبًّا، فلطالما عرف هذا الموريسكي أن ضالته ستكون قشتالية، من بلاد الأندلس، وفي

"الأول من كانون الثاني"

***

من داخل بيت الزوجية، استيقظت "ليلى" مهمومة بمرض زوجها وحبيبها "مصطفى" الذي رزقها الله منه بـ "يحيى" أخًا لـ"رغدة"، بعد أقل من سنتين من الزواج، والآن وبعد مرور سنة أخرى، تملَّك "مصطفى" المرض، ولكنه رفض ترك المنزل والعلاج بالمستشفى، ليظل في غُرفته، ذات السقف الأندلسي القديم المُطرز بتلك الحروف العربية المُلونة بألوان الصيف، متناغمةً مع بعض النقوش الهندسية، مُحدثة تشكيلات إسلامية مُعقدة، تتراقص بين الأطراف الأربعة من أمامه، فلقد كان السقف مطرزًا بديكورات أندلسية قديمة، وكان هو مستلقيًا على سريره النحاسي الذي توسط غرفته التي سجنته في الشهور الأخيرة، وبالرغم من أنه كان محاطًا بكل من يُحبه، إلا أنه لم يشعر بأي منهم، فلقد كان "مصطفى" وحيدًا في غيبوبته، يتذكر بطل

الأندلس بشيءٍ من الحزن، لتدمع عيناه، ولتسبح دمعته بجانب جهاز التنفس الصناعي الذي أطلق لخياله بضع ساعات أخرى وهو يُصارع مرضه، ومن خارج النافذة الخشبية، تسللت بعض أشعة الشمس مُداعبة وجهه، مُجففة الدموع بشيء من الحزم، لترتسم ابتسامة يأس على شفتيه، ليهمس أخيرًا بكلمات غير مسموعة، فحاولت "ليلى" الاقتراب لتسمعه، إلا أن صوت "مصطفى" جاء من مكان آخر بالمنزل:

"قبل الموت دايمًا بنندم على القرارات اللي مخدنهاش في حياتنا"

فزعت "ليلى" وظنَّته المذياع، وإن كانت متأكدة من أنه صوت "مصطفى"، لتبكي "ليلى" رافضة لحديثه، وهي تحاول البحث عن مصدر الصوت، لتهرب "ليلى" خارج الغرفة لتسمع جملة أخرى.

"هارجعلك تاني"

كان هذا صوت "نانسي" قادمًا من غرفة مكتب "مصطفى" الخاوي إلا من كُتُبِه في تلك المكتبات الخشبية الكثيرة، لتدخل "ليلى" محاولة إيجاد مصدر ذلك الصوت.

"وأنا هستناكي"

إنه صوت "شادي" كما ظنت، قادمًا من ناحية ذلك الكتاب الأندلسي القديم، الذي كان موضوعًا بشكل مُريب، لا يمسسْه التراب، عكس باقي الكتب، فاقتربت "ليلى" وأمسكته، لتعلو من خلفه أصوات لشخصيات كثيرة، فتملكها الخوف، حتى وقعت عيناها على تلك الرواية الجلدية، التي تصدر أصواتًا لشخصيات تعرفها جيدًا، من داخل أوراق الرواية التي كانت تخصها في زمن

غير الزمن، والتي كانت مخفيَّة في ذلك المكان، ولم تكن "ليلى" تفهم ما الذي أتى بتلك الرواية هنا! أمسكتها والأصوات لا تزال تعلو، طالبين منها الخروج من حبسهم، مُتوسلين إليها لتفتح ذلك الكتاب، لتستسلم لهم "ليلى" وتجلس على مقعد مكتب زوجها، لينفتح الكتاب، وتقرأ الرواية، فيظهر هذا الببغاء من العدم ليعاكسها قائلاً:

-"حيزبووووون".

ابتسمت "ليلى" وهي تنظر إلى صفحات الرواية المكتوبة بخطها وهي سعيدة تفرُّ الكلمات، دقائق وهي تنتقل من صفحة إلى أخرى، حتى تغيَّر الخط، تغيَّرت الكتابة، ليصبح الخط خط "مصطفى" الذي تعرفه جيدًا، لتندهش "ليلى"، فلم تكتب تلك السطور! لتبدأ "ليلى" في القراءة، قراءة ما كتب "مصطفى"، كما فعل هو قبلها ومن نفس مكانها في زمن آخر، لتصيبها دهشة هى الأخرى، ولتفهم حقائق لا يتخيلها عقل! نظرت إلى "النتيجة"، وكان اليوم هو "الأول من كانون الثاني"، فلم تتعجب، فلقد كان دومًا كذلك، كانت قد بدأت تدرك الحقيقة، ولكنها كانت في حاجة لقراءتها بنفسها، ولتعلم النهاية كان يتوجب عليها قراءة الفصل الأخير.

***

ظل/ت يكتب تارة، و يقرأ تارة أخرى بحثًا عن الحقيقة التي يعلمها، وإن كان ينكرها، لينظر إلى مرآة نفسه قائلاً:

- أنا (هو) ولا (هي) ولا (هم) جميعًا!

الفصل الأخير

دخل السفير العثماني "إبراهيم آغا" قصر الملك "هنري الرابع" الفرنسي وهو محمل بالهموم، فلقد أضاف له "محمد أبو العباس الحنفي" وهو أحد قادة الموريسكيين الهاربين لمدينة "بلغراد" العثمانية الكثير من القصص، التي تضاهي قصة "الهيثم" أو تفوقها.

كانت "فرنسا" في ذاك الوقت من حلفاء الدولة العثمانية، حيث كانت مصالح "البروتستانت" تتماشى مع المصالح العثمانية، ولكن كان هذا التحالف قد بدأ في التهالك تدريجيًّا، إلا أن كلا الدولتين كانتا تغازلان بعضهما البعض في كل حين.

دخل السفير العثماني وهو يحمل الكثير من الهدايا الملكية التي تسر الناظرين، ولكن نظرًا لضعف الملك، كانت زوجته "ماريا دي مديتشي" هي الحاكمة الفعلية والوصية على ولدها "لويس الثالث عشر". رحبت الملكة بالسفير، وإن كانت تخفي الكثير.

-مولاتي!

-مرحبًا بالأخ الكريم!

-جئت من "إسلامبول" حاملاً رسالة من السلطان "أحمد".

تفهمت "ماريا" تخوُّفات السلطان "أحمد" وتحفُّظاته، فهو قلق على تجاوزات الفرنسيين ضد مسلمي الأندلس الفارين، وطلب من الملكة حليفة الدولة العثمانية، أن تؤمن للمسلمين منافذ ساحلية يركب منها مسلمو الأندلس، ليتجهوا إلى المكان الذي

يرغبون في الدولة العثمانية، على أن يتحمل السلطان "أحمد" كافة النفقات والتكاليف، ليعوضهم العذاب والهوان طوال رحلتهم، وليعمر المورسكيون كافة بلاد المسلمين بكل ما يعرفونه من علم وتقنيات حديثة في الزراعة وغيرها.

وافقت الملكة ورحبت بطلبات السلطان العثماني، ووعدت بتنفيذها، كما وعدت بتعويض كافة من نهبت أموالهم، فلقد كانت ذكية، وتعلم أهمية ذلك التحالف مع الدولة العثمانية، ولكن لم يكن هذا طلب السفير الأخير، فلقد طلب طلبًا أخيرًا وشخصيًّا للسلطان "أحمد".

-ماذا بعد أيها السفير؟

-للسلطان طلب أخير.

-سل تُعطَ.

- للسلطان عزيز عندكم يُحاكَم، وإنه ليهتم أن ينال عفوك وكرمك ليعود معي إلى السلطان "أحمد" في "إسلامبول".

رسمت "ماريا" علامات الاندهاش الكاذبة، وادعت جهلها بالأمر، في محاولة منها لكسب الوقت.

-دعني أبحث في الأمر، فبالطبع عزيزُ السلطان هو عزيزٌ على الملك ها هنا، والآن سيصطحبك الحرس، ضيفًا عزيزًا في قصرنا.

شكر السفير الملكة وذهب مع الحارس، ولكنه لاحظ من خلال نوافذ أحد ممرات القصر، تجمُّع المارة في الشوارع بشكل مُريب حول منصة كبيرة، كأنهم سيشهدون عرسًا ما، أو كأن هناك حدثًا

جللاً سيحدث عما قريب، وقد كان، فلقد شاورت الملكة وزيرها في الأمر، الوزير الذي كان يخطط للكثير.

-يا مولاتي! بالرغم من صداقتنا مع السلطان العثماني، إلا أن للكنيسة حقًّا أهم، فهناك ضغوطات كبيرة من القساوسة، فلا نستطيع أن ننصر المسلمين على نصارى الكاثوليك.

-فما العمل أيها الوزير؟

-لا بأس مولاتي في ترحيل بعض الموريسكيين، ولكن لا يجب الاهتمام المبالغ بمثل هذه الأمور، فقط نرسل تعازينا واهتمامنا إلى السلطان العثماني، لكن يظل الحال هو الحال.

-ولكن يجب رد السفير غانمًا.

-بالطبع، سنرسل معه الكثير وسنعوض ما نستطيع.

-وبما يخص طلبه الأخير؟

-إنه يقصد قاتل زوجته الكاثوليكية.

-نعم أعلم!

-اليوم يوم محاكمته، وإن لم يُحاكم ستغضب الكنيسة، فهو قاتل زوجته الكاثوليكية أمام أعين الجميع.

-إذن فقد صدر الحكم.

-نعم يا مولاتي.

قالها الرجل وهو يعطي الملكة الحكم، الحكم الذي أعطاها إياه

قبل المداولة، لتقرأه الملكة وتذهب إلى القاعة التي توسطها الأسير "الهيثم" وسط الجميع. عبرت "ماريا" إلى القس مباشرة، همست إليه، فنظر القس إلى حكمها في تحفظ، وإن استجاب لها، فكان الملك ضعيفًا حينها، وكانت المحاكمة صورية ليس إلا، فلقد تم إصدار الحكم مسبقًا، منافيًا لوعودهم للسلطان العثماني.

أُصدِر الحكم..... قبل المداولة

أشار القسّ إلى الحرس بحكمه، ليفهم الحارسان ويمسكان بالأسير متجهين به إلى الساحة الخارجية، الساحة التي امتلأت بكل طوائف الشعب، تنتظر لتتشفى في الجريح. كانت الساحة عبارة عن أرض فضاء، امتلأت عن آخرها، كانت الساحة تتوسط قصر الملك، ومساكن خدمه وحاشيته، اتجه الحارسان في ممر طويل، بين المارة على الجانبين، كان الأسير يُجر وقدماه أسفل رجليه قد سُلخت من قسوة الطريق، كما كانت طاقته قد استُهلكت في سنينه العجاف منذ ميلاده في "غرناطة"، فلقد وُلِد في زمن مليء بالظلم، وسط تعصُّب الجميع، كان رغم ألمه يشعر بأميرته التي بين طيّات الأوراق الموضوعة داخل بنطاله الذي يستر به عورته، ويخضع به روايته الجلدية، ظل ينظر إليها محاولاً مقابلتها كما فعل مع أبيه، ولكنه فشل، ليحاول الهروب منها وإليها، كانت صيحات الجمهور تتعالى، وكان هو يبحث عن "مريم" بين الوجوه، كان يرفع رأسه بصعوبة محاولاً إيجادها، حتى وصل إلى المنصة التي تتوسط المكان. صعد "هيثم" تلك السلالم في رشاقة غريبة، وظل ينظر إلى كل الكارهين له، فلقد كانت جريمته إيمانه! أوقف الحارسان "هيثم" ثم رفعاه إلى رجل ضخم يرتدي قناعًا أسود ورداءً جلديًا بغيضًا وهو يتوسط

المنصة، ليمسك به كالأم التي تحتضن رضيعها، كما أمسك الحارسان قدمي الأسير، ليضعا اليمنى أمام اليسرى، قبل أن يبدأ رجل مقنع آخر في دق وتدٍ حديدي في عظام الأسير، لكي تُثبت ساقاه في عمود خشبي قديم، ليصرخ الأسير طالبًا العون:

-"مريييييييم".

ولكنها لم تظهر بعد، فأمسك الرجلان يد الأسير اليمنى ووضعوها على يسار الصليب، ليدق الرجل الوتد الحديدي الثاني في وريد الأسير، قبل أن ينهوا عملهم في تثبيت وتدهم الأخير في وريد يده اليسرى، ليزداد الرجل ألمًا؛ ألمًا تألمه المسيح، فداء للإنسانية، إلا أن "هيثم" استُثنِيَ من رحمته، ليظل يصرخ كالرضيع وسط تشفِّي الجميع:

-"مريييييييم".

أعلى الرجال الصليب الذي صُلب عليه الأسير، ليقف شامخًا في الساحة، ليتعاطف معه الحضور مع كثرة ندائه لـ"مريم" الكاثوليكية، ليترك كل من في الساحة مكانه، ويظل الأسير يصرخ ألمًا بحثًا عن "مريم" وطنه الأخير. بينما ظل هذا السفير، يدمع وهو يترقب المشهد من نافذة القصر من بعيد، قبل أن تدخل عليه الملكة وهي تتصنع الأسف، فلقد ادعت أنها لم تستطع أن تمنع ما حدث، فلقد تأخر السفير في طلبه، ليتأكد من هوية الشخص المصلوب، ويطلب إنزاله بسرعة من على ذلك الصليب، لتدعه الملكة يذهب إلى الساحة في اصطحاب الحرس، بعدما أرضت الجميع.

-"مريييييم".

لم يستطع "هيثم" تحمل الألم والدماء تغطي جسده، ليظل ينادي حبيبته الكاثوليكية وسط اندهاش الحارسين اللذين تغيرت مشاعرهما تجاهه من البغض للتعاطف، في لمسة إنسانية وتناغم افتقده هذا الزمان.

-"مريييييم"!.

ظل "هيثم" ينادي سنده الوحيد في الدنيا، من تلك الساحة الخاوية، إلا من صليبه الشامخ، ليظل ينزف الكثير والكثير من الدماء وهو يحاول استدعاءها، حتى اختلطت أخيرًا دماؤه الطاهرة العاشقة بحروف اسم معشوقته من على أوراق أجداده السحري، لتبعث روحها في عينيه من تلك الحروف التي رُويت بدماء عاشقها، بعدما كانت مجرد "حبر على ورق" لتقترب إليه وسط الساحة الخاوية، ليتوقف "هيثم" عن الصراخ، ويتحمل ألمه والجراح، لتضمه مليكته إلى صدرها، ليفك الأسير قيوده ويتحرك بحرية مع حبيبته ووطنه الذي ولد منه ودفن فيه.

اقترب السفير من جثمان "هيثم" دامع العينين، وإن هدّأ من روعه ابتسامته وهو حاضن الرواية الجلدية بدمائه، ليمسكها السفير في اندهاش، متذكرًا وصية ابن "هيثم"، في استردادها، استرداد الرواية، أو "لَ نوڤيلا" كما أطلق عليها الفتى بالإسبانية، فلقد كان الولد يعرف الكثير، ويعرف أنه يستطيع الحياة في "لَ نوڤيلا" مع والديه، فلقد علم السر وحفظه منذ ذلك اليوم.

***

اندهشت "ليلى" من الكثير في قراءتها، فلقد كتب "مصطفى" كل ما عاشته في السنوات الماضية، فلقد كتب بالحرف الواحد، تاريخ زواجهما وإنجابهما لولدهما "يحيى"، رغم عدم قدرته على الإنجاب. كتب "مصطفى" حياتهما بحلوها ومرها، كتب بالتاريخ والساعة، كتب حتى أسرارهما، فهل كان يملك من الإرادة ما جعله يحقق كل أحلامه وأهدافه، هل استطاع عيش ما خطط له، أم كتب كل هذه الأحداث قريبًا من باب التدوين، أم أن شكوك "ليلى" كانت صحيحة؟!

فلقد لاحظت "ليلى" استطاعتها قراءة كل ما كتبه "الهيثم" في روايته، استطاعت فك طلاسم لغة "الألخيميادو" التي ظنت سابقًا أنها مجرد حَلايا ورموز للتزيين، أدركت أن "لً نوڤيلا" تعني "الرواية" بالإسبانية، ولكنها كُتبت بتكل اللغة التي ابتدعها الموريسكيين بحروف عربية، فاندهشت "ليلى" كيف استطاعت فهمه تلك اللغة، رغم عدم تمكنها منها أو حتى من اللغة الإسبانية؟! ظلت "ليلى" فَزِعة وهي تنظر إلى "النتيجة" التي دائمًا تشير إلى "الأول من كانون الثاني"، فتوجهت إليها في ريبة وشك، وحاولت تغيير اليوم وإزالة ورقته، إلا أنها وجدت الغد لا يزال "الأول من كانون الثاني". نظرت إلى الببغاء الذي عاد أدراجه إلى صفحات الرواية، ولم يعد متواجدًا، نظرت إلى النافذة التي لم ترَ الظلام مطلقًا، ففهمَّت وأسرعت إلى غرفة "مصطفى" الذي لا يزال في غيبوبته ينظر إلى الحروف العربية في سقف غرفته، حاولت "ليلى" إمساك يده، ولكنها فشلت، راقبت ساعة الحائط المتوقفة، ثم إلى ساعة يدها التي لا تتحرك، لتدرك "ليلى" أنها من خيال عاشقها الوحيد، لا تزال تعيش في كتابه، في تلك الرواية

ذات الأوراق السحرية التي تستطيع دماء العشاق بعث الروح لكل من كُتب اسمه فيها كحبيب، فهل هي مجرد صورة في عين "مصطفى" منذ روت دمائه حروف اسمها في المستشفى؟ أم هي تهول؟ أم لا يزال هناك العديد من الأسرار؟

ظلت تساؤلاتها تطاردها، وظلت حائرة حال الجميع، فهل تفضل الخيال مع الحبيب، أم تحاول اكتشاف حقيقة الواقع البغيض؟

***

حفل التوقيع

في "الأول من كانون الثاني"، ومن داخل مكتبة "ألف" ب"كفر عبده"، والتي تحتوي على عدة طوابق، كل منها له طابع مميز، وكتب قيمة، كان القراء ينتظرون كاتبهم الغامض، بشيء من التحفظ، فلقد تعرف الكثير منهم على أنفسهم بين طيّات تلك الرواية الجديدة، التي نشرها هذا الروائي دون ذكر اسمه، فلقد كتب الكاتب عن أشخاص يعرفهم جيدًا وذكرهم بالاسم والتوصيف، وحتى الأحداث، ليستاء الكثيرون منهم فلقد كشفت الرواية حقيقتهم وأدق أسرارهم وخصوصياتهم، لذلك كان الحضور مهتمين لاكتشاف أمر الكاتب أكثر من الرواية، ليحضر منهم البعض بمحاميه والبعض بأصدقائه من العاملين ب"الداخلية"، لتشعر إدارة المكتبة باستنفار الجميع.

ساعات من الانتظار، تعمَّدها الكاتب، والقراء متراصُّون في غضب وفضول، حتى ظهر أخيرًا مساعد الكاتب "عاطف" وهو يمسك ببغباء كاتبه المدلل "فلامنجو". دخل "عاطف" وجلس على

تلك المنضدة التي خُصصت للكاتب وناشره، ليدخل شخص وحيد، يرتدي بذلة سوداء كرابطة عنقه، تعتليها قلادة ذهبية أسبانية الصنع، أحدب الظهر الذي حاول أن يداريه بشعره الطويل الذي يشبة النساء، والذي كان ينتقده الجميع حال نظارته حمراء اللون كساعة يده، حيث كان يحب هذا اللون الإسباني دون غيره، جلس الكاتب الذي حضَّر له مساعده مسبقًا قهوته "السادة" من البن الفاتح، ليرتشف منها قبل أن يخرج غليونه الأحمر الحميم، مع قداحته الفرنسية المصنوعة من الذهب الخالص، ليبدأ في التدخين، وسط اندهاش الجميع، الذين ظلوا يرمقوه بنظرات الغدر والخيانة، ولتبدأ الأصوات تتعالى باسمه، في غضب.

-"شادييييي".

قالتها "ياسمين" من خلف نظارتها الحمراء المميزة، والتي كانت تجلس في الصف الأول، لتسأله هي أول سؤال:

-إنت لسه بتكتب يا "شادي"؟

ابتسم "شادي" وهو ينظر إليها متحديًا:

-هحكيلك، "بس المهم تصدقيني".

تدخل "عاطف" أحدب الظهر والذي كان يعلم أغلب الحضور، فأغلبهم كانوا يُطاردون "شادي" في المعرض، وكانوا يجلسون على المعروضات في تحدٍّ وهم ينتظرونه كالديَّانة، لذا بدأ "عاطف" تنظيم الحفل قائلاً:

-يا ريت يا جماعه بالدور، مش هايبقى في المعرض وهنا، إتفضل

حضرتك، الصحفي اللي في الآخر.

أشار "عاطف" لصحفي محنك، كان يعلم بسر "شادي"، عكس الغالبية، ليسأل في دهاء:

-أستاذ "شادي هشام تربانة"، حضرتك كنت نجحت قبل كده في روايتك الأولى "الأول من كانون الثاني"، وكنت كتبت عن شخصية إسمها "هيثم عبد المجيد تربانة"، هل معنى كده إن الشخصية دي بالفعل حقيقية وحضرتك حفيده؟

ابتسم "شادي" احترامًا لذكاء الصحفي وأجاب:

-لا تعليق.

غضب الرجل ليشير "عاطف" لصحفي آخر ليسأل:

-طيب حضرتك كتبت على الروايتين "أنهما مستوحتان من أحداث حقيقية"، معنى كده إن...

قاطعه "شادي" مبتسمًا.

-لأ، أنا مكتبتش "مستوحاة من أحداث حقيقية"، أنا كتبت "مستوحاة من أحداث واقعية".

اندهش الصحفي من تعليق "شادي" ليكمل:

-طب يعني حضرتك كده تقصد إن أحداث الروايه واقعيه فعلاً ولّا العكس؟

استعمل "شادي" بخّاخته نظرًا لأزمة صدره، قبل أن يُجيب في

برود.

-لا تعليق.

جلس الرجل متحفظًا ليسأله آخر في زيّ غريب، والذي كان موشومًا بحروف اسمه الفرعونية على أحد زراعيه:

-طيب حضرتك في الروايتين اتكلمت عن رواية جلدية، يا ترى ممكن فعلاً تكون حقيقية وموجودة معاك؟

ابتسم "شادي" لصديقه الجديد وهو يضع يده داخل جيبه، ليتفقد رواية جدِّه الجلدية التي كان دائم الكتابة فيها، ثم أجاب:

-لا تعليق.

لاحظ الرجل الموشوم وضْع "شادي" يده في جيبه، ليدرك في نفسه، أن "شادي" لا يزال يحمل سرّ "لَ نوڤيلا"، ليُسرع الرجل في المغادرة، قبل أن يُكمل "شادي" حواره مع ضيوفه، ليُتابع الرجل الموشوم ما جاء لأجله، فلقد كان هناك كثيرون مستعدون لإراقة الدماء لمثل هذا السر العظيم، بينما كان باقي الحضور منفعلين من إصرار "شادي" على تحفظه متسائلين: لمَ جمعهم في حفل التوقيع إذن؟!

-طيب يا فندم، روايتك الجديده "واحد واحد"، المقصود بيها نفس تاريخ "الأول من كانون الثاني"، يعني واحد يناير؟

قالها صحفي آخر، ليقاطعه "عمر" الذي كان يجلس ببذلته السوداء كرابطه عنقه كعادته قائلاً:

-أو يمكن مقصود بها التعادل، كلنا خرجنا متعادلين، والنتيجه كانت "واحد واحد"!

أضافت "نانسي" وهي هائمة في النظر إلى قهوة عشيقها بذكاء:

-أو يمكن عشان بتتكلم عن كل واحد فينا واحد واحد.

ابتسم "شادي" لمحبوبته قبل أن تقاطع نظراتهما "ليلى تربانة" التي لم تقتنع بهذا الكلام أو ذاك، فلقد كانت تعلم أنها كتبت بيدها جزءًا من تلك الرواية، فنظرت إلى مبدعها وسألت:

-ولّا ممكن المقصود إن كلنا واحد.

لم يعلق "شادي"، ليتوتر الجميع، لتخرج "جيجي" قداحتها المصنوعة من الذهب الخالص لتشعل سيجارة في عصبية، خاصة عند ظهور الناشر "مصطفى" ذي الغليون الأحمر الذي جلس إلى جوار مبدعه، لينتبه إلى وجوده "عاطف" الذي وقف له احترامًا قبل أن يدرك في تلك اللحظة، أنه قد خدم الجميع في تلك الرواية الجلدية ليزداد انفعاله لتسأل "هدير" صاحبة القلادة الذهبية الإسبانية الصنع:

-يعني إيه؟

أجاب "مصطفى" ساخرًا.

-يعني محدش فينا ليه وجود.

-يعني إحنا عايشين في خيال مؤلف مريض، إحنا مجرد شخصيات في روايته.

قالها "أنس" الذي وقف وهو يزيل خصلات شعره الطويل من أمام عينيه ليقرأ اسم "شادي هشام تربانة" من على غلاف الرواية بوضوح، ليدرك أن الحقيقة كانت ولا تزال أمامه، وإن كان يرفض تصديق مبدعه منذ البداية.

-حبر على ورق.

قالتها "جيجي" دامعة متذكرة نقاشها مع زوجها، قبل أن يدركها الببغاء من داخل صفحات الرواية قائلاً:

-"حيزبوووووون".

ابتسم "شادي" لصديقه الوحيد، وإن خانته دمعة حزينة قبل أن ينفعل البعض نافين تفاصيل الحكاية.

-لا! أنا عن نفسي موجود، أنا مش خيال مؤلف، أنا مش زيكم، أنا حقيقه مش خيال.

-وأنا كمان موجودة مش خيال.

ارتبك الحضور، ليتساءل كل منهم عن وجوده من عدمه!

-يعني إيه فيه مننا حقيقه وفيه مننا خيال؟!

-لا تعليق.

أجابهم "شادي" وهو دامع العين، ليودع شخصيات روايته جميعًا الحقيقي منهم والخيال بعدما عاشوا معه أمدًا طويلاً، كان يعلم أن عليه تجميعهم ومواجهتهم، لكي يتركوه يعيش في أمان، فكل كاتب يعيش في وهمه ليجهل حقيقته من الخيال، كان يجب

عليه وداعهم، ليستطيه خياله استقبال شخصيات أخرى. قالها في نفسه قبل أن يخرج مع حبيبته الوحيدة من المكان، تلك الراقصة القشتالية ذات الفستان الأحمر التي اكتشفت حقيقته قبل أن يستوقفه من بين الحضور شخص وسيم، طويل وقوي البنية، صاحب بشرة خمرية، ومميز بأنفه الحاد وشعره الناعم، ليشبه أمراء الأندلس، بذلك الزي الإسباني القديم، ليحسبه "شادي" جده، فأنصت له في انتباه و"هو" يشير إلى الجميع قائلاً:

-ليعلم كل منا أن له كتابًا، تُكتب فيه كل حياته بالحرف الواحد، وحين يقرأه سيندم على كل الأحكام التي حكمها قبل المداولة، وعلى لحظاتٍ مرَّت دون استغلالها في عشقِ قلوبٍ ظلَّت في خيالنا.

رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف، لينظر كل منهم إلى مرآة نفسه، باحثًا عن حروف اسمه المرويَّة بدمائه داخل صفحات كتابه، ليندم كل من ترك قلمه لآخر، متحسِّرًا على عمرٍ عاشه لغيره، وعلى حسابٍ قد حان أجله، وإن ظلوا متساوون جميعًا في عجزهم عن فهم أسرار تلك الصحف التي جفَّت قبل أن تُغير من أقدارهم، إلا من رَحِم ربي......

شكر وتقدير

شكر وتقدير إلى كل شخوص الرواية؛ الحقيقي منها والخيالي، فلقد كنتم دومًا من تؤنسون وحدتي، اليوم قد أنهيت قصتي وحكايتكم، واليوم أتمنى أن تُفارقوا خيالي، قبل أن يتملكني الجنون، فإلى لقاء آخر في:

"الأول من كانون الثاني"

كما أدين بالشكر لكل من ساند ذلك الجنون:

ليـــلى مصـطفى

(هـــي) شـــــادي هشـــــام

رغـــــــــــــدة د. هيثم عبد المجـــــيد

الكاتبة نانــــسي حســب د. عيد إبراهيم عبـد الله

الكاتبة: هالة البيـشبيشي الكاتبـة: فاطمة الشيـشيني

المخرج: محمد أسامـــة المخــرج: أحمد حســن

الفنان: نضـــــال نجـم لمـــــيس غـــــازي

ســــــوزان جـــــلال عليـــــاء شومـــــان

أسمـــــــاء الفقـــي يمـــنى طالـــــــون

شكر خاص

محــــمـــــــد كـــرم محمـــد أبوالمــــجـــد

جروب ساحر الكتب والصديقان:

إيــــــلاريا منسي ميـــــنا مجـــدي

وشكر خاص لمسئولي مطعم "سانتا لوتشيا"

رئيس مجلس الإدارة: "يانِّي سيوكس"

المدير العام: "إلياس جرجيس"

مدير العلاقات العامة: "راندا صادق"

والمخلص "أحمد متولى" من أوائل العاملين بالمكان

المؤلف في سطور

"أحمد عثمان"

مواليد القاهرة 1982، تخرج في كلية الهندسة، قسم الهندسة المعمارية، جامعة حلوان 2004، ليبدأ مشواره الاحترافي في مجال التصميم المعماري والديكور، وتخصص في المجال السكني، استقر في باريس وأنشأ شركة "ريني" للعمارة والديكور وفتح فرع لها في القاهرة.

درس "عثمان" كتابة السيناريو في الجامعة 2004، وكتب بعض الأعمال القصيرة، ثم تدرَّب في بعض المسلسلات التليفزيونية، حتى قرر التوجه للكتابة في 2015، ليبدأ بكتابة "لمسة مليكا" التي نشرت في 2016، عن دار نشر "إبداع"، واحتلت قائمة الأعلى مبيعًا في مكتبات ألف والشروق، والعديد من المكتبات الأخرى،

وبعد نجاح "لمسة مليكا نُشر للكاتب رواية "الوحي" في معرض القاهرة الدولي للكتاب 2017 مع دار نشر "إبداع" قبل أن يتم توقيع عقد تحويلها لمسلسل تليفزيوني مع شركة "راديو وان" للانتاج الفني.

وتعتبر "لَ نوڤيلا" ثالث تعاون أدبي للكاتب مع دار نشر "إبداع".

للتواصل مع الكاتب:

architect.ahmedosman@gmail.com

www.facebook.com/architect.ahmedosman